بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

أدب الفكاهة عند العرب من خلال الكتب المؤلفة

إعداد الطالبة

سميّة علي الناصر الخصاونة

بإشراف الأستاذ الدكتور

عفيف عبد الرحمن

١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م



جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

أدب الفكاهة عند العرب من خلال الكتب المؤلفة

Humour in Classical Arabic Literature (Text Books)

إعداد الطالبة

سمية علي الناصر الخصاونة

بكالوريوس لغة عربية، جامعة اليرموك

ماجستير أدب ونقد، جامعة اليرموك

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه

في اللغة العربية، تخصص أدب ونقد، جامعة اليرموك اربد – الأردن

وافق عليها

أ.د. عفيف محمد عبد الرحمن .... مشرفا ورئيساً

أ.د. عبد الفتاح نافع .... عضواً

أ.د. صلاح محمد جرار .... عضواً

أ.د. يوسف أبو العدوس .... عضواً

أ.د. محمود درابسة .... عضواً

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذي زرع هذه البذرة، ورحل ولم يشهد حصادها ...

إلى زوجي المرحوم الدكتور محمد الشرع

وأسرتي .... وأهلي

الفهرس

الموضوع	الصفحة

المقدمة:

عرف العرب الفكاهة قديماً منذ العصر الجاهلي، حينما كانوا يتحلّقون حول القاص في الطرقات وحول مواقد النار، ليقصَّ عليهم النوادر، والمضاحك، والحكايات، في أوقات سمرهم والترويح عن نفسهم.

كما عرفها العرب في العصر الإسلامي. ولم يقف في وجه الدعابة اللطيفة والمُزاح الملتزم الذي لا يؤذي، ولا يُسبّب إيلاماً أو تعريضاً أو تجريحاً لأحد مهما صَغُرَتْ سنّهُ، أو قلّت مكانته طالما أن هدفه الترويح عن النفس، والتخفيف من أعباء الحياة ومتاعبها. وقد مازح الرسول الكريم أهله، وأصحابه، وبادلوه المُزاح لكنه المُزاح الملتزم الذي لا يقول إلا الحق.

رويّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً "[١]، وقال بعض الصحابة: " يا رسول الله إنك تداعبنا، فقال: إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقاً "[٢]، كما دعا الرسول الكريم إلى ترويح القلوب.

لأن النفوس تملُّ من الدؤوب في الجِّد، وترتاح إلى بعض المباح من اللهو، فمما رُوي عن النبي الكريم أنه قال: " روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت عميت "[٣]، ومن مُزاحه قوله لأحدى عماته: " إنَّ الجنَة لا تدخلها عجوز! فلما جزعت من ذلك قال لها: إن الله يخلقهنَّ يوم القيامة شوّاب أبكاراً "[٤].

وما أن قامت الدولة الأموية حتى انقسمت الأمة إلى شيع وأحزاب تتصارع فيما بينها على السلطة وأيُّهم أحقُ بها، وانبرى كل فريق يُدافِع عن حزبه، وانبرى عن الهجاء، اتجاه لا أحقاد فيه ولا ضغائن وأخذ بالنمو والتطور ويبلغ مداه في النقائض الشعرية التي وسَمَتْ هذا العصر، وأغنتهُ بشعر سياسي، واجتماعي يقوم على التهكم والتجريح والتعريض بالأنساب للنيل من بعضهم بعضاً، وتصبح

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص ١٢٨.

(٢) الإمام البخاري: الأدب المفرد: تحقيق عبد الباقي ودمشقية ، دار البشائر، ط٤، ص ١٠٢.

(٣) ابن الجوزي:/ أخبار الحمقى والمغفلين، ١٩٩٧، ص١٧.

(٤) ابن عاصم، حدائق الأزاهر، ص١٢٧.

الفكاهة أداة فعّالة للسخرية غايتها النقد والبحث عن العيوب والنقائض للتجريح والإيلام.

غير أنَّ هذا لا يمنع من أن تكون هناك مجالس لهو، ومنادمة، يقيمها الخلفاء في أوقاتٍ يتفرغون فيها للراحة واللهو والعبث، إذ تروي لنا المصادر كثيراً من النوادر التي جرت بين بعض الخلفاء الأمويين وخصومهم والتي تدل على رغبة كل منهم بالتهكم والسخرية لينالوا من بعضهم بعضاً، وتصبح الفكاهة وسيلة لهو وتسلية لا تخلو من التجريح والإيلام. ومن النوادر التي تُروى في هذا الباب النادرة التالية:-

" دخل شريك بن الأعور على معاوية بن أبي سفيان، وهو يختالُ في مشيته، فقال له معاوية: والله إنك لشريك، وليس لله شريك، وإنك لدميم، والوسيم خيرٌ من الدميم فبمَ سوّدك قومك ؟ فقال له شريك: والله إنك لمعاوية ، وما معاوية إلا كلبةٌ عوتْ فاستعوتْ، فسميت معاوية، وإنك ابن حرب، والسلمُ خير من الحرب، وإنك ابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك ابن أمية، وما أميّة إلا أمةٌ صغيرة فسميت أمية، فكيف صرتَ يا أمير المؤمنين ؟ !!

فقال له معاوية: أقسمت عليك إلا ما خرجت عني ! "[1].

هذه مقدمة موجزة كان لا بد منها، تهيأ وتُقدم لما سيأتي في الدراسة.

أما هذه الدراسة فإنها تتألف من تمهيد وأربعةَ فصولٍ. وأما التمهيد فإنه يتضمّن دراسةً عامةً للفكاهة والضحك وأهم النظريات والاتجاهات التي عُنيت بهذه الظاهرة. ومن تلك الدراسات، دراسة برغسون للضحك الذي يؤكد على المعنى الإنساني والاجتماعي للضحك، وكان الجاحظ في القرن الثالث الهجري (١٥١هـ - ٢٥٥هـ) قد سبقه في التأكيد على المعنى الاجتماعي للضحك حينما قال: " ولكن ضحك مَنْ كان وحده لا يكون على شكل مشاركة الأصحاب "[2].

---

(١) ابن حجه الحموي: ثمرات الأوراق بها مشى المستطرف، ج١، ص ٥٩، وعصر بني العباس.

(٢) الجاحظ، البخلاء، ص٧.

وفي الفصل الأول تحدثت الدراسةُ عن الفكاهة في القرن الثالث الهجـري، كما تحدثت عن تطور المجتمع العباسي في هذا القرن، والعوامل التـي سـاعدت على نهوض الفكاهة وازدهارها، كما قدّمتْ دراسة لكتابي الجاحظ النجلاء ورسالة التربيع والتدوير كنماذج لمؤلفات هذا العصر، كما تضمن الفـصل صـوراً مـن فكاهات هذا العصر ودلالاتها.

أما الفصل الثاني فقد تضمن دراسةً عامة لأحوال العصر في القرن الرابع والخامس الهجريين ، ودراسة لظاهرة الكَدية من خلال كتاب " المقامات " لبـديع الزمان الهمداني، ودراسة لظاهرة التطفيل من خلال بعض الكتب المؤلفة.

كما تناولت في هذا الفصل بعض المؤلفات التي عُنيـت بـأدب الحمقـى والمغفلين والظرّاف والمتماجنين، والأذكياء والمجانين، كما عُنيت بجمعه وتدوينـه في كتب مستقلة. وبيّنت الدراسة الأسباب التي دعت الاهتمام والاعتناء بمثل هـذا النوع من الأدب، لأجل هذا .. جاءت دراستي لثلاثة كتب لابن الجوزي هي على التوالي: كتاب الحمقى والمغفلين، وكتاب الظَراف والمتماجنين، وكتاب الأذكيـاء، وكلها تؤكد على قيمة العقل، وبيان فضله على الإنسان.

أما الفصل الثالث فقد تضمّن هذا الفصل دراسة للفكاهة من خلال بعـض الكتـب المؤلفة بعد القرن الخامس الهجري، وبيّنت الأسباب التـي دعـت مؤلفيهـا إلـى تضمين الفكاهة لمواد كتبهم وموضوعاته المتعددة والتي تتوزع بين الأدب والفقـه والحكمة وغير ذلك، وبيّنت ان الفكاهة وان جاءت في هذه المؤلفات بقصد التسلية والترفيه والترويح عن النفس، إلا أنها تتضمن غاية أسمى هي التوجيـه والتنبيـه والتحذير.

أما الفصل الرابع والأخير فقد نضمّن دراسة فنية لكتاب حـدائق الأزهـار لابـن عاصم الغرناطي الأندلسي.

الخاتمة:

جاءت هذه الدراسة في تمهيدٍ وأربعةِ فصولٍ تحدثتُ في التمهيد عن الفكاهة والضحك، وأهم الدراسات والنظريات التي حاولت دراسة الفكاهة، وقد تبيّن أن مصطلح الفكاهة مصطلحٌ غامضٌ غير محدد، ولا يمكن أن نضع له تعريفاً بشكل نهائي، وذلك لتأرجح الفكاهة بين الأدب والفلسفة وعلم النفس، وعلم الاجتماع. وجاء الفصل الأول بدراسة لأحوال العصر العباسي في القرن الثالث الهجري، وكان من أزهى المجتمعات، ازدهرت فيه مختلف نواحي الحياة، وتنوعت وسائل الترف والغنى مما جعلها تنحى منحيين:

المنحى الأول: أن الفكاهة قد أصبحت وسيلةً ترفيهية، ترويحية تخفف من أعباء الحياة وهمومها. وبرز هذا المنحى في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وعلية القوم.

المنحى الآخر: أن الفكاهة قد أصبحت وسيلةً للسخرية بقصد التجريح والإيلام. كما أصبحت أداة نقد بغرض التوجيه والتعليم والتثقيف.

أما الفصل الثاني فقد تضمّن دراسة لأحوال العصر في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وبيّنت أن الفكاهة قد أصبحت وسيلة للسخرية والنقد والتوجيه لأجل التعليم والتثقيف.

الفصل الثالث: وقد تضمّن هذا الفصل دراسة للفكاهة من خلال بعض الكتب المؤلفة، بعد القرن الخامس الهجري، وبيّنت الأسباب التي دعت مؤلفيها إلى تضمين الفكاهة لمواد كتبهم وموضوعاتها المتعددة والتي تتوزع بين الأدب والفقه والحكمة وغير ذلك. ووضعها ضمن ما يسمى بالأدب الموسوعي، وبيّنت أن الفكاهة، وإن جاءت في هذه المؤلفات بقصد التسلية والترفيه عن النفس إلا أنها تتضمن غاية أسمى وهي التوجيه والتنبيه والتحذير.

أما الفصل الرابع والأخير فقد جاء دراسة فنيّة تشتمل على حدائقه وأبوابه. ومكونات الكتاب الشكلية، ودراسة لبعض نوادر وحكايات الكتاب.

التمهيـــــــد

الفكـــاهــة والضحــك و السخرية

دراســة عــامــة

الفكاهة والضحك والسخرية

الفكاهة من الموضوعات القديمة الجديدة، قديمة قدم الإنسان، نمت وتطورت تبعاً لتطور الإنسان، فهي ظاهرة إنسانية خصَّ الله بها البشر دون سائر مخلوقاته وأكرمه بها " فلا مُضحكَ إلا فيما هو إنساني، ويضحك سواء أكان لطيفاً، رائعاً أو قبيحاً فلأنه ينتمي إلى الإنسان"(١) ، وقد أشار كثير من الفلاسفة لهذه الحقيقة عندما عرّفوا الإنسان بأنه حيوان يَضْحَكُ ويُضْحِكُ معاً، معتمدين في ذلك على ما أتاه الله من ذكاء وفطنة وقدرات عقليه مقارنة مع بقية المخلوقات الحية الموجودة على وجه الأرض. لقد جذب موضوع الفكاهة والضحك اهتمام الكثيرين من الكتاب والأدباء والفلاسفة، وعلماء النفس "نظراً لما يلعبه الضحك في حياة الإنسان، والدور الضخم الذي تقوم به الفكاهة في التعبير عن الأوضاع الاجتماعية السائدة لديهم"(٢).

وقد لاحظ هؤلاء الدارسون ارتباط الفكاهة والضحك بالمجتمعات، وبعادات الشعوب وتقاليدها، فما يضحك شعبا أو مجتمعاً، قد لا يكون مضحكاً لغيرهم، فلكل مجتمع طريقة في الضحك والفكاهة، وله أسلوبه الخاص به في التفكه، وأنماطه في الضحك، فالذي يُضحكُ العرب قد لا يتذوقه أهل الغرب فلا يضحكهم، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى دراسة أخلاق الشعوب من خلال نكاتهم على اعتبار أنها تمثّل جزءاً هاماً من ثقافة تلك الشعوب بما تحويه من نقد أو سخرية أو تعليق، منبثقة عن عادات تلك الشعوب وأنماط تفكيرها وسلوكياتها وغير ذلك، ونكاتهم هي خلاصة لتلك المنظومة الثقافية والاجتماعية "لأن الفكاهة خير مرآة تنعكس عليها أحوال المجتمع وما يمر به

---

(١) هنري برغسون: الضحك- بحث في دلالة الضحك- ترجمة سامي دروبي وعبد الله عبد الدايم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص١٦.

(٢)د. أحمد أبو زيد: الفكاهة والضحك، عالم الفكر، وزارة الأعلام في بالكويت ج١٣،ع٣، ١٩٨٢م، ص٢ .

من أحداث وما أندمج في خلقه من سمات"[١] ، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها، لأن الإنسان الفكه هو ابن بيئته ومجتمعه منهما يستقي فكاهاته وضحكاته، وفيهما يمارسها ناقداً وموجهاً ومضحكاً في آن معاً، وسواء أكان هذا النقد يعبر بطريقة إيجابية أو سلبية فإنه يدلل ويكشف عن مدى التجاوب العقلي والوجداني بين أفراد المجتمع، وهذا يعكس حاجة الضحك - الإنسان الضاحك - إلى مشاركة الآخرين، "فتذوق الضحك لا يكون في حال الشعور بالعزلة، لأنه بحاجة إلى صدى، وإلى أن يكون على صلة بعقول أخرى وضحكنا أبداً هو ضحك جماعة"[٢] وقد عبر الجاحظ عن تلك النقطة حينما قال: " فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة، ولو كان معي من يفهم طيّب ما تكلم به محفوظ النقاشي لأتى على الضحك أو لقضي عليّ، ولكن ضحك من كان وحده ،لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب"[٣]، وهذا يعني أن الفكاهة تتسم بأنها ذات طابع اجتماعي وإنساني. أما الإنسان الضاحك، فلا بد له من صفات يتصف بها ليضحك أهمها الصفاء النفسي، والهدوء الانفعالي، وهذان حسبما أظن شرطان لابد أن يتحققا لديه" فلا يمكن للمضحك أن يُحدثُ هزتَه ألا إذا سقط على صفحة هادئة تمام الهدوء، منبسطة كل الانبساط، فاللامبالاة وسطه الطبيعي، والد أعدائه الانفعال"[٤]، فلا نضحك من أشخاص نعطف عليهم أو يثيرون في أنفسنا عاطفتي الحزن أو الشفقة، وقد أكد أحد الباحثين على هذه الحقيقة من خلال دراسته لتلك العلاقة القائمة ما بين الضحك والانفعال " وأشار إلى وجود عاطفتين أساسيتين من شأنهما أن توقفا الضحك، ألا وهما

---

(١)د. زكريا إبراهيم: سيكولوجية الفكاهة والضحك، دار مصر للطباعة د.ن،ص٧٨..

(٢)هنري برغسون: الضحك، ص١٧.

(٣) الجاحظ: البخلاء، ج٢، ص٤٦،

(٤) هنري برغسون: المرجع السابق، ص١٦.

عاطفتنا الشفقة والخوف"[1] ،فلا نعود قادرين على ممارسة الضحك، لأننا قد نحس بالرغبة في البكاء أو التألم، ولكي نضحك لا بد من " إيقاف القلب عن الشعور ولو لبرهة من الزمان، لأن الضحك يخاطب العقل ويتوجه إليه"[2] أما المضحك وهو الشخص الأساس في العملية الفكاهية، فلا بد من صفات تجتمع لديه، تساعده على إبراز ميله وموهبته للفكاهة والضحك، ومن هذه الصفات امتلاكه للحس الفكه " وخفة الروح وما يقترن بها من مرح وفكاهة وحيوية وعشق للهو"[3] ، إضافة للذكاء، وسرعة البديهة، والحضور الدائم. والفطنة، وهذا ما عبرت عنه إحدى النوادر التي تدلل على الذكاء وسرعة البديهة، والمفاجأة فمما روي عن الرسول الكريم في هذا الباب: "أن عقبة بن أبي معيط قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أمر بضرب عنقه يوم بدر: مَنْ للصبية يا محمد؟!! قال: النار"[4]، فالرسول الكريم وبما يمتلك من ذكاء وفطنة وبديهة جاهزة فاجأه بهذا الرد، والذي قد لا يتوقعه، فأسكته وأفحمه به، إن قدرة الإنسان على إدراك العناصر الفكاهية في شتى المواقف المضحكة، أو التي تعبر عن السخرية، تدلل على نضجه الانفعالي والنفسي، وعلى قدرته على تذوق النكتة أو النادرة، أو ما يمكن أن يسمى بالروح الفكاهي أو الحس الفكه، وهو سمة من سمات الشخصية الإنسانية، حاول العديد من الفلاسفة تحديد مضمونه إذ قالوا: إن الحس الفكه هو نوع من الاستبصار " insight"، أو ضربٌ من الإحساس الفلسفي بالحياة، "ومنهم من ربط

---

(١) د. زكريا إبراهيم: مرجع سابق ص٢٠١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) البشير المجذوب: الظرف بالعراق في العصر العباسي فيما بين القرنين ٢هـ -٤هـ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ص١١٦.

(٤) ابن عاصم : حدائق الأزهر - تحقيق د. عفيف عبد الرحمن ، دار المسيرة - بيروت ١٩٨١،ص٤٧

بينه وبين المزاج الخاص"[1] ، وقد عرّفه زكريا إبراهيم في كتابه "سيكولوجية الفكاهة والضحك"، بالقدرة على الاستجابة الملائمة للمؤثرات الهزلية وبالقدرة على ابتداع أفانين الضحك، وأشار إلى أنه ينطوي على عنصري تقدير وإبداع، يستطيع الشخص بمقتضاهما أن يضحك في الوقت المناسب، وأن ينتزع استجابة الضحك من الآخرين " إن روح الفكاهة هي التي تساعد الكاتب الفكاهي على أن يجد أشخاصاً يستثيرون الضحك، أو ابتداع صور شعرية كاريكاتورية تُمكِّن الكاتب من أن يدرك العناصر الفكاهية في شتى المواقف"[2] إنَّ الحس الفكه هو القادر على التمييز بين الأدب غير الفكاهي، والكاتب الحذق هو القادر على أن يجسد هذا الأمر، من خلال وعيّه ونضجه الفكري والعقلي والانفعالي، "لأن الأدب الفكاهي يتسم بفلسفته أكثر مما يتميز ببنائه، فهو يُمثِّلُ أسلوباً في التفكير ينبع من نظرة الكاتب إلى الحياة"[3] .

إنَّ الدراسة التاريخية لمصطلحي الفكاهة والضحك تجعلنا ندرك أنهما قد تنازعتهما مجالات مختلفة ومتباينة تبعاً لأهداف كل مجال وفلسفته ، ومن هذه المجالات: المجال الفلسفي، وأشهر الفلاسفة الذين عُنوا بهما: أفلاطون، وأرسطو، وجوفنتال، وكانت ، وشوبنهور وبرغسون وغيرهم، ولهؤلاء إسهامات مهمة في نظرية الضحك فالقدماء منهم عمدوا إلى التفكير بماهية الضحك والفكاهة، والعامل الذي يؤثّر في كل منهما وبحثوا مدى تأثيرهما بكل من العقل، والمجتمع ولإيضاح معنى الضحك قابلوه بمعنى البكاء، ومن هنا برزت فكرة التقابل بين الضحك والبكاء وهيرقليطس، "٤٠ ق.م " أحدُ فلاسفة اليونان، أتخذ من البكاء شعاراً دائماً له، " لأنه كان دائم البكاء

---

(١) د. زكريا إبراهيم: مرجع سابق ص٢٠١.

(٢)د. عبد العزيز شرف : الأدب الفكاهي ، الشركة المصرية العامة للنشر - ؟؟؟ ، ط١١، ١٩٩٢، ص٦.

(٣)المرجع السابق: ص٦.

لا يبتسم له ثغرٌ، ولهذا كان يُلقبُ بالفيلسوف الباكي"[1] وديمقريطس فيلسوف يوناني آخر،" كان يُسمّى بالفيلسوف الضاحك لشدة ما كان يضحك"[2] حتى اعتقد الناس أنهُ قد أُصيب بالجنون، إلى أن بررّ أبقراط وهو طبيب يوناني سبب ضحكه فقال: " إنه يضحك من حماقات الجنس البشري، وهو أكثر الناس حكمة وجدية إلا أنه كان يلجأ إلى الضحك لأنه وسيلة، ذات طبيعة جديدة تساعده على التحمل والمواجهة."[3].

وقد تحدث أفلاطون عن الضحك وعدّه من أهم الأسباب التي يمكن أن تهدم العالم المثالي الذي بناه في جمهوريته، لأنه يرى في المضحكات خبثاً، لكنه لم يمانع من أن تُمثّلَ ويشاهدها الناس " لأن الإنسان الكريم، لا يعرف الجدّ إلا بالهزل، وأنه من الحسنِ أن يشاهد مناظر الهزل من العبيد والأحرار والمسخّرين، ولا ينغمس فيها بنفسه"[4] ، أما أرسطو فقد أهتّم بالفكاهة، وخاصة الكوميديا، وعلاقتها بالفكاهة، وميّزَ بين ضحك الكلمات، وضحك الأحداث، كما تعرّض لدراستها بعض فلاسفة العصر الحديث ومنهم: توماس هوبز وكريجكورد وهنري برغسون وغيرهم، ففي دراسته حول دوافع الضحك ودلالاتهن قدّم بعض التقسيمات، وحدّد من خلالها آليات الضحك، وهذه الأقسام هي:

١. مضحك الأشكال، ومضحك الحركات.

٢. مضحك الواقع، ومضحك الكلمات.

---

(١)عباس محمود العقّاد: جحا الضاحك المضحك، دار الهلال القاهرة أب ١٩٦٥، ص٤٧.

(٢) الشهر ستاني: الملل والنحل- تحقيق مها فاعور-دار المعرفة- بيروت ١٩٩٠،ط١،ج٢، ص٣٩٩.

(٣) محمد عبد العظيم: عرض الكتاب الفكاهة والضحك - رؤية جديدة- لمؤلفه شاكر عبد الحميد ، دراسات عربية في علم النفس، ج١،ع٤،أكتوبر ٢٠٠٣م.

(٤) العقّاد: جحا الضاحك المضحك، ص٥٢- ٥٣.

٣. مضحك الشخصية "الطباع".

وقد تحدّث عن كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة، وأسهب في الشرح عنها، وأكد على أن للضحك معناً إنسانياً ومعناً اجتماعياً، ويضرب مثلاً حول رجل يتعثر فيسقط في الشارع، فيضحك منه المارّة ويضرب مثلاً آخر حول رجل يُعنى بمشاغله، فيأتيه مادح خبيث يزيّف الأشياء من حوله، كأن يضع له الطين بدلاً من الحبر في المحبرة.

ويوضح برغسون الأسباب التي جعلت المارّة يضحكون " فالرجل الذي تعثر وسقط في الشارع كان في غير إرادته، إذ كان عليه أن يغيّر في سلوكه، أو يحيد عن الحاجز لكنه لصلابته، وعدم ليونة جسده، أو لسرعة مكتسبة، استمرت عضلاته في إجراء نفس الحركات، بينما كانت الظروف تقتضي شيئاً آخر"(١) ، فالحركة غير الإرادية للعضلات واستمرار تلك الحركات وبشكل عشوائي وغير متزن هو ما اضحك المارة، ويقارن بين تلك الحركات وضحك الكاريكاتوري (شكله وحركته)، ويرى أن الهيئة أو الشكل مهما أنتظم، ومهما انسجمت خطوطه ومرنت حركاته لا يكون التوازن فيه تاماً تماماً مطلقاً، لأن فيه اعوجاجاً أو تشويهاً أو عيباً اعتراه، وفن الكاريكاتور يُبرز هذا العيب وهذا الاعوجاج، وهذا التشوه الذي لا يراه الناس، فيضخّمها ويظهرها للناس، أما مضحك اللغة فإنه يرى أن اللغة تتمتع بقدرة على الإضحاك، كما يتمتع الإنسان بهذه القدرة فاللغة المناسبة في الوقت المناسب وبما تمتلكه من تعبير قادر أن تجد ما بهذا الموقف من فكاهة وإضحكاك وتكون أقدر وأسرع على الوصول إلى إضحاك الآخرين، وانتزاع الضحك منهم، ويتحدث بعد ذلك عن مضحك الطباع، وأشار إلى أنه أهم أجزاء الموضوع وأنه لا مضحك غير الإنسان، وكما يقال الإنسان هو الطباع، والطباع هي تلك العمليات الدقيقة من تسرّب وامتزاج واتحاد، يتسرب المضحك إلى حركة بسيطة أو

---

(١) هنري برغسون: الضحك،ص١١٤.

موقف غير شخصي أو جملة مستقلة، وكل طبع جاهز في الشخصية أن يكون مضحكاً، أو أن يكون موضعاً للتفكه والتندر، "والشخصية المضحكة هي شخصية نمــوذج، أو الشبيهة بنموذج ما"[١] ، وما يميز هذه الشخصية هو الذهول أو السهو غيــر المقــصود واللاإرادي، وهو من العناصر التي تؤلف الطباع، إنّ مضحك الطباع والمضحك بشكل عام، قد خُلِقَ وفيه استعداد فطري ، خلقه الله تعالى عليه، وهو في الفطــرة الإنــسانية والطبيعة النفسية " وانه شيء يحيا عليه، ويمكن أن يلاحظ من الخارج، شــأنه شــأن الطفيلي مزّود بوجود مستقل"[٢] يتجه مضحك الطباع إلى العيوب ولا يهم إن كانت هذه العيوب قليلة أو كثيرة، طيّبة أو خبيثة، وقد يتوجه هذا المضحك إلى محاسن النــاس لا إلى عيوبهم يضحك منها، إنّ الضحك ليس دليلاً على عيب بالمعنى الأخلاقي للكلمة فقد تكون أعمال الشخص متوافقة مع الأخلاق، ولا تلائم المجتمع لأنها وإن كانــت غيــر اجتماعية ولا تلائم المجتمع تغدو مضحكة، فعدم التــأقلم مــع المجتمــع مــن جانــب المضحك، وعدم المشاركة الانفعالية من جانب المتفــرج همــا الــشرطان الأساســيان للإضحاك وهناك شرط ثالث يتضمنه هذان الشرطان وهو التلقائية " فلا مضحك فــي جوهره إلا ما يُحققُ تحقيقاً تلقائياً، كأن يُصدر حركة ما لا إراديــة ، أو كلمــة غيــر واعية"[٣] ودون قصد من قائلها ويرى برغسون أن أشد الكلمات إضحاكا تلك التــي تتصف بالسذاجة والسخف، لأنها تكشف عن عيب في قائلها، أو في تناقضها،أي تناقض الشخصيات مع نفسها، وجملة ما في القول إنّ الشخصية الإنسانية بكل مكوناتها النفسية، والجسدية، والمعرفية، قد تصبح موضعاً للتفكه والضحك ما عدا الأمور العاطفية التــي

---

(١) أنظر المرجع السابق . ص١٩.

(٢) هنري برغسون: الضحك،ص١١٤.

(٣) د. زكريا إبراهيم: سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص٣٢.

تخالف العقل وتتبّع أهواء القلب، فإنها تفقد حرارة الضحك فلا تُضحكُ، أما الحواس فإنَّ لها دوراً بارزاً في عملية الإرشاد والتوجيه إلى السلوك.

إن دراسة برغسون ليست الدراسة الوحيدة التي درست هذه الظاهرة، بل تبعتها دراسات كثيرة فسيولوجية وبدنية ونفسية، لكل منها وجهة نظر محـــددة، ومـــن هـــذه الدراسات دراسة لديكارت وهيجل وفيها "عدّوا الضحك بمثابة ظاهرة بدنية تدخل فـــي النطاق الفسيولوجي"(١) وجاء باحثون آخرون عدّوا الضحك ظاهرة نفسية بحتة، ورأوا " أن لا أهمية لكل تلك الانقباضات العضلية التي تُصاحب الضحك الذي تخلّفه النكتـــة أو الملحة في نفوسنا"(٢) ، وأشهر هؤلاء علماء النفس المعاصرون، بعضهم فسّر الضحك على ضوء نظرية جيمز لانج في الانفعال فقالوا: " إننا لا نضحك لأننا مسرورون، بل نحن مسرورون لأننا نضحك، وهذا يعني أن المظاهر العضوية لانفعال السرور هـــي العلة الحقيقية للضحك"(٣) ، أما لوسيان فابر وفي دراســـته للـــضحك أكـــد علـــى "أن الضحك في الحقيقة عبارة عن ظاهرة عضوية تترجم عن نفسها سيكولوجياً بالانتقـــال المفاجئ من بعض الحالات الشعورية إلى حالات أخـــرى مغـــايرة"(٤) ، وقـــد أشـــار مكدوجال لهذا المعنى وأكد عليه حينما قال: "إن للضحك من الآثار الفسيولوجية مـــالا يقل أهمية عما له من آثار سيكولوجية، وذلك من شأنه أن يرفع ضغط الدم، يدلنا علـــى ذلك احمرار وجه الشخص الذي يضحك من أعماق قلبه"(٥) ، وجاء بـــاحثون آخـــرون

---

(١) المرجع السابق: ص٣٠- ٣١.

(٢) د. زكريا إبراهيم: سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص٣٠ -٣١.

(٣) المرجع السابق: ص٣٧.

(٤)المرجع السابق، ص٣٧.

(٥) د. زكريا إبراهيم، فلسفة الفكاهة والضحك، ص٣٧.

وتحدثوا عن الدغدغة ومدى ارتباطها بظاهرة الضحك، وأشاروا إلى الطابع الفسيولوجي الذي يكتنفها ورأوا أنها لا تقع إلا على أشد مناطق جسم الإنسان حساسية، بل وأكثرها استثارة " ولهذا فقد ربطوا بين الدغدغة ومناطق التهييج الجنسي لأنهم رأوا أن ثمة عنصراً جنسياً أكيداً في الدغدغة"[١].

لقد أكد هؤلاء على أن الضحك المتولد عن الدغدغة هو الصورة الأولية للضحك، وما تطور من صور أخرى له نشأتْ على سبيل التطور عن تلك الصورة الأولية التي نلمحها لدى الأطفال " ولذا فقد أطلق بعض علماء النفس على فن الكوميديا أسم فن الدغدغة العقلية"[٢] ، أما هربرت سنبسر فقد اعتمد على نظرية فائض الطاقة حيث رأى أن " للسرور طابعاً ديناميكياً يجعل منه طاقة فائضة لا بد لها من منافذ لتتحول إلى حركة ، أو طاقة تحدث نوعاً من النشاط في عضلات التنفس تسمى بالظاهرة الصوتية – التنفسية، هي ما يُسمّى بالضحك"[٣] .

أما الفكاهة في الدراسات العربية، فقد تعرضت لها بعض الدراسات، وأفردت لها كتباً، ودرست أنواعها وألوانها ودلالاتها، والنظريات التي قيلت فيها، ومن هذه الدراسات دراسة قام بها أنيس فريحة " إذ عرض لنشأتها، وتطورها في الأدب العربي في كتابه الذي ألفه حولها وأسماه "الفكاهة عند العرب"، كما بحث لنشأتها عند الأمم الأخرى وموقفها الديني من الفكاهة والضحك، كما عرض لدراستها، أحمد الحوفي، درسها دراسةٍ وافيه، وأدرج بواعثها، وأنواعها، وألوانها، ودلالاتها، معتمداً في ذلك على مصادر التراث العربي القديم، بشقيه الشعري والنثري واستعان ببعض أساليب

---

(١) المرجع السابق.

(٢)المرجع السابق، ص٣٤.

(٣) المرجع السابق.

البلاغة لتكون عناوين لعض فصول كتابه والذي أسماه "الفكاهة في الأدب العربي" كما أورد في الكتاب فكاهات ونوادر البخلاء والطفيليـين، والأعـراب والنحـاة والقـضاة وغيرهم، وأفاد منها كشواهد أدبية تساعده في إيضاح الفكاهة وتحديد أنواعها وألوانهـا ودلالاتها، واستشهد بآراء عدد من المفكرين والفلاسفة الذين درسـوا هـذه الظـاهرة وساهموا بأبحاثهم ودراساتهم في توضيح مفهوم الفكاهة والضحك، وتسهيل دراسـتهما، كما درسها عبد الكريم اليافي وأفرد لها فصلاً في كتابه دراسات فنية في الأدب العربي، تحدث من خلاله عن تطور المجتمع العربي وربط هذا التطور بتطور الفكاهة، وبـيّن دور الفكاهة في تقويم وتهذيب السلوك الإنساني مستشهداً بآراء عـدد مـن المفكـرين والفلاسفة العرب والغربيين الذين درسوا الفكاهة لتحليلها وبيان دلالاتها.

وعرض لها زكريا إبراهيم، وله إسهامات جادة فـي هـذا المجـال، وكتابـه سيكولوجية الفكاهة والضحك من أشمل ما كُتِبَ عنهما، وعرض لأبرز النظريات التـي تناولت هاتين الظاهرتين بالدراسة والتمحيص سـواء منهـا الفلـسفية أو النفـسية أو الفسيولوجية إنَّ كل ما قيل أو كُتِبَ عن الفكاهة في الأدب العربي يُعدُّ جديداً على ما قاله الجاحظ وأسس له في القرن الثالث للهجرة فقد عرف الضحك، وبين أيُّ الضحك الـذي نريد ونقصد، كما بيّن مقدار الضحك، وأي الأوقات التي يمكن أن يضحك فيها الإنسان " وللضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار متى جازهما أحدٌ، أو قـصّر عنهما أحدٌ، صار الفضل خطلاً ، والتقصير نقصاً، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقـدر، ولم يعيبوا المزاح إلا بقدر"(١) ، وأشار لفوائد الضحك على جسم الإنسان وعلى الـنفس وعافيتها، " فالهزل جِمامٌ للقلوب، وراحة للأبدان، وعونٌ على معـاودةِ الأعمـالِ"(٢) ،

---

(١) الجاحظ: البخلاء: ص٧.

(٢) الجاحظ: البخلاء: ص٧.

وبحثَ الجاحظُ علاقة الجِّدِ بالهزلِ، ودرسها دراسةً فلسفيةً عميقةً، وأشار لارتباطهما مع بعضهما بعضاً، رغم العلاقة التناقضيه القائمة ما بينهما، وأكد على الجانب الاجتماعي للضحك، والأثر النافع الذي يحدثه الضحك في نفوس الأفراد والجماعات.

١- الفكاهة لغة

٢- الفكاهة اصطلاحا

١ - الفكاهة لغةً:

الفكاهة في اللغة هي المُزَاح، وفعلها الثلاثي فَكَهَ، والفكاهة بالفتح كما يقول الجوهري وابن منظور مصدر فَكَهَ الرجل بمعنى مَزَحَ وأضحَكَ بما يتمتع به طُرف الكلام، وأضاف الزمخشري تفكه بكذا إذا تلذذ به وبالكسر فكِهٌ، إذا كان طيّب النفس مزاحاً، والفاكه: المزّاح وفي حديث أنس رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم، من أفكه الناس مع أهله.

والفُكاهة بالضم: المزُاحُ، وقيل: الفاكه ذو الفكاهة والتفاكه التمازح، وفاكهت القوم مفاكهة على الكلام، والمزاح، والمفاكهة الممازحة.

ويقال للمرأة: فِكهةٌ، وللنساء: فكهات.

وتفكهت بالشيء: تمتعت به، ويقال: تركت القوم يتفكهون بفلانٍ أي يغتالونه، وينالون منه .

والفكه: الذي يُحدّثُ أصحابه ويضحكهم.

والاسم: " ألفكيهةُ والفكاهة"[١]

ومن معانيها: الدعابة: "والدعابة هي المُزاح - واللعب، والمضاحكة"[٢]

والمزح والمِزاح: الدعابة، ونقيض الجد- وهو أيضا المزاح،والمُزاحة.

ومنها أيضاً "الهزل - والهزالة : الفكاهة "[٣]

والتهكم: هو "الاستخفاف والاستهزاء والعبث"[١]

---

(١) اللسان: مادة فكه.

(٢) اللسان: مادة دَعَبَ

(٣) المخصص: ج١٣، ص١٩.

والسخرية: "هي الاستهزاء، والسّخرة والضحكة"[٢]

قال الأخفش: سخر منه، وبه ، ومنها ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: "يسخرون منهم" و"سخر الله منهم".

ومن معاني الفكاهة في اللغة أيضاً الظرف، يقول صاحب اللسان: الظرف البراعة وحُسنُ البراعة وقيل حُسنُ الهيئة، وقيل:الحَذَقُ بالشيء، وقد لخّص صاحب المعجم الأدبي معاني الفكاهة بقوله: "إنها طرفة أو نادرة أو ملحة أو نكتة، أو حكاية موجزة يسرد فيها الراوي حادثاً واقعياً أو متخيلاً فيثير إعجاب السامعين، ويبعث فيهم الجذل والضحك أحياناً"[٣] من هذه النصوص اللغوية نستطيع أن نتبين أصلاً عاماً للمادة "فكّة" تشترك فيها، معانيها المختلفة وتدور حوله، وهو المزح والمزاح، والتفاكه والضحك والدعابة، فالفكاهة في مفهومها اللغوي: هو الذي يُحدّث أصحابه بمُلح الكلام ويمازحهم ويضحكهم، وعندما زاد عليها ابن منظور قوله: تركتُ القوم يتفكهون بفلانٍ أي يغتابونه وينالون منه، أصبح لها معنى آخر وهو السخرية والتفكه باستغابة الآخرين للنيل منهم والاستهزاء بهم والضحك منهم.

إن المتمعن في التعريفات للفظة فكاهة، يتبين دلالتين: أولاهما تعكس طيبة في النفس، وتلطفاً في المحادثة والكلام بهدف الإضحاك والترويح عن النفس.

وثانيتهما تدل على نوع من التهكم، والتلذذ بذكر العيوب وفي التعريف الأخير "يتفكهون بفلان" نجد فيه ما يشير للدلالة التي تبعث على الضحك والسرور والانشراح.

---

(١) اللسان: مادة همَمَ.

(٢) اللسان: مادة سخِرَ.

(٣) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩، ص١٩٤- ١٩٥.

تظهر الفكاهة بأشكال مختلفة، وألفاظ تشترك معها في المعنى ومنها: التبسّم. لقد أجمعت معظم المعاجم على أن التبسّم يعني" أول مراتب الضحك وأحسنه"[1]، ثم يليه" الإهلاس وهو إخفاؤه، ثم الإفتدار والانكلال وهما الضحك الحسن ، ثم الكتكته، أشد منهما القهقهة، ثم القرقرة، ثم الكركرة، ثم الاستغراب، ثم الطخطخة وهي أن يقول: طخ طيخ، ثم الإهزاق والزهزقة وهي أن يذهب الضحك به كل مذهب"[2] .

البهجة والابتهاج.

تدل هذه اللفظة على السرور والفرح والحُسنُ، فالبهجة حُسنُ لون الشيء ونضارته، وفي الإنسان ضحك أسارير الوجه، أو ظهور الفرح البتة، والابتهاج: هو السرور، وامرأة بهجة ومبهاج : غلب عليها الحُسن"[3] .

البشر وتعني " الطلاقة وأبشر واستبشر وتبشر : فرح رجل بشير الوجه إذا كان جميله"[4]الهزل من أساليب التفكه " والهزل نقيض الجد، ورجل هزل كثير الهزل، والهزالة الفكاهة، والهزل هو استرخاء الكلام وتفنينه" [5] .

---

(١) الأساس واللسان والقاموس المحيط :" تَبسَمَ"

(٢)الثعالبي : فقه اللغة وأسرار العربية مطبعة الحياة – بيروت (د.ت) ، فصل ف ترتيب الضحك ، ص٧٢.

(٣)الأساس واللسان مادة بَهَجَ.

(٤) الأساس واللسان مادة بَشرَ.

(٥) اللسان مادة هَزلَ.

الفكاهة اصطلاحاً:

الفكاهة من المظاهر الفنية، والأدبية، والاجتماعية والحضارية التي تتميز بها الأمم والشعوب، وبها تقيس درجة رُقيُها وتطورها، كما أنها سمة من السمات الشخصية الهامة التي تُميّز الإنسان، وتعكسُ نظرته للحياة، وموقفه منها، حيث يلتقي فيه الإبداع الأدبي بالحس الجمالي، والعقل بالثقافة.

والفكاهة كغيرها من المصطلحات الأدبية التي قام الكثير من الأدباء والفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس بتعريفها ووضع حداً لها، منطلقين في ذلك من وجهة نظر تحددها ثقافتهم الأدبية والاجتماعية والنفسية وأشاروا لصفتها الإنسانية فقالوا لا مضحك إلا فيما هو إنساني كما وأكدوا على صفتها الاجتماعية إذ تستدعي مشاركة الآخرين في الضحك وقد تستدعي البكاء خاصة إذا كانت الفكاهة توجع، وتُقصد الإيلام إن هذا المعنى للفكاهة ينسجم مع معنى الآية الكريمة "وأنه هو أضحك وأبكى "[(١)] فقد قابل الله تعالى بين معنيين متضادين الضحك والبكاء " وذلك لإيضاح المعنى في كل منهما " لإظهار الخلل المنطقي في موازاة المنطق الذي يسترسل في إظهار هذا الخلل بدون مفاجأة، لذلك يردُ على الذهن " أن الضحك الدائم أو البكاء الدائم كلاهما إفراط، وخروج عن الجدّ إلى ماعداه، ماعدا الجد يلتقي بالضحك ولو في بعض الطريق"[(٢)] وعلى هذا يمكننا " أن نقابل بين الملهاة والمأساة كلونين ناضجين من ألوان الأدب، تصدر الأولى عن حالة نفسية تبعث على الضحك، في حين تصدر الأخرى عن حالة نفسية تبعث على البكاء "[(٣)] وانطلاقاً من هذا التقابل " يتفرّع الضحك ويتشعب وتلوح

---

(١) سورة النجم الآية ٤٣.

(٢) د. عبد العزيز شرف: الأدب الفكاهي، ص٣.

(٣) المرجع السابق.

منه الأفانين المضحكة"[1] ، ولإيضاح الفكاهة، لا بد من تعريفها اصطلاحيا، فقد عرفها الكثيرون وقدموا لها تعريفات مختلفة قد تتفق مع بعضها في جانب لكنها تختلف في جوانب أخرى، وأحدُ هذه التعريفات تعريف معجم المصطلحات العربية الذي يقول: "هي تلك الصفة في العمل، أو الكلام أو الموقف - أو الكتابة، التي تثير الضحك لدى النظّارة أو القُراء"[2] ، وقد اختلف بعض النقاد في ماهية هذه الصفة فأرسطو ينسبها إلى عيب، أو تشويه في أمر ما، لا يصل إلى مرتبة الإيذاء، أو الإيلام " لأن الضحك عنده تعبير عن استهزاء ملطف ينتج عن اكتشاف نقطة ضعفٍ لدى الغير، يعتقد الضاحك أنه هو نفسه لا يتصف بها"[3] وأظن أن هذا التعريف يُسهم في تعريف الفكاهة، لأن الفكاهة في بعض معانيها تعني الاستهزاء، والاستهزاء في بعض الأحيان لا يأتي إلا من عيب أو تشويه يحاول المستهزئ التركيز عليه واستغلاله للنيل من شخص المُستهزأ منه.

أما برغسون فقد انطلق في تعريف الفكاهة من مقولته " إن للعقل أهمية كبرى في إدراك الفكاهة والتجاوب معها شريطة أن يتوقف القلب عن الشعور لأنه يتوجه إلى العقل المحض"[4] فلا يمكن للمضحك أن يُحدث هَزته "ألا إذا سقط على صفحةِ نفسٍ هادئة تمام الهدوء، منبسطةٍ كل الانبساط، فاللامبالاة وسطه الطبيعي وألدُّ أعدائه

---

(1) عباس محمود العقاد: حجا الضاحك المضحك، القاهرة ، دار النهضة بمصر، ص٣٦.

(2) مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ، بيروت ط٢، ١٩٨٤، ص٢٧٦.

(3) المرجع السابق: ص٢٧٦.

(4) هنري برغسون: الضحك، ص١٧.

الانفعال"[1] فلا نضحك من أمرئ يثير فينا الشفقة أو يثير فينا المحبة، أو الكراهية عند ذاك يجب أن نُسكِتَ تلك الشفقة أو المحبة ولو لبضع لحظات من أجل أن نضحك وأشار برغسون لأهمية المشاركة، مشاركة الآخرين حينما قال: " أنه ينبغي لهـذا العقـل أن يكون على صلة بعقول أخرى، فنحن لا نتذوق المضحك في حـال شـعورنا بالعزلـة وضحكنا أبداً هو ضحك جماعة "[2]وقد سبقه الجاحظ حينما أشار لهذه الحقيقة فقال: "فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به محفوظ النقاش لأتى عليَّ الضحك أو لقضي عليّ ولكن ضحكُ من كان وحده لا يكون علـى شـطر مشاركة الأصحاب"[3] ، كما عرّفها أنيس فريحة في كتابه "الفكاهة عند العرب" انطلاقاً من الأدب وعلم السيكولوجيا اللذين دخلتهما الفكاهة فأصبحت تعني أولاً: أنهـا صـفة قائمة في القول والفعل والحركة من شأنها أن تُستأنف إلى القلب، فتخلق جواً من البهجة والحبور والراحة النفسية.

ثانياً: أنها قدرة عقلية وروحية تستطيع أن تكشف العناصر المضحكة والمتناقضة فـي الأقوال والأفعال والحركات والمواقف وتتجاوب معها وتعبّرُ عنها ضحكاً أو ابتسامة أو رضاً روحياً لأن " الفكاهة تجاوب بين ما هو مضحك أو غير معقول أو ما يتميز بصفة التناقض في القول والفعل والحركة وبين قدرة الإنسان العقلية على إدراك هذه العناصر وتقديرها والتعبير عنها"[4] اعتمدت دراسة أنيس فريحة للفكاهة فـي الأسـاس علـى الدراسة الشاملة التي قام بها هنري برغسون للضحك، فالتنـاقض واللامعقوليـة فـي

---

(١)هنري برغسون: المرجع السابق: ص١٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٥.

(٣) الجاحظ: البخلاء، ج٢، ص٤٦.

(٤) د. أنيس فريحه: الفكاهة عند العرب، بيروت، ط١، ١٩٦٢، ص١٤.

الأقوال والأفعال والحركات كانت المحاور الرئيسية التي اعتمدها برغسون في دراسته - بحث في دلالة الضحك - وتعريف فريحة للضحك هو تلخيص لما ورد في تلك الدراسة.

وقدّمت دراسة أحمد الحوفي " الفكاهة في الأدب العربي" تعريفاً أدبياً يقول فيه: "الفكاهة هي كل باعث على الضحك من فنون القول وإن اختلف الاسم"[1] أنّ تعريف الحوفي للفكاهة تعريفاً يكاد يقتصر على فنون القول وحسب، والفكاهة ممتدة لتشمل الحركات والأفعال أيضاً ، فقد نضحك لحركات أو أفعال يقوم بها أشخاص على مسرح وأمام مشاهدين، دون أن يتكلموا ،أي بلغة إيحائية صامته تسمى فكاهة.

تظهر الفكاهة بأشكال مختلفة فقد تكون قصة أو نادرة أو نكتة، أو دُعابةٍ وقد تكون موقفاً أو ظُرفاً وفي المجون والعبث والمزاح كثير من الفكاهة والتهكّم والسخرية والهجاء فكاهة، فعندما تقسو الفكاهة تسبب ألماً وحزناً، وكل هذه الأشكال إنْ هي إلا ظواهر، ومفاهيم فكاهيه، تصدرُ عن طبيعةٍ بشريةٍ متناقضة، خَلَقَها الله تعالى وهي عليها، فما من شيء فيها إلا وله نقيضهُ، فيهِ الشرُ وفيه الخيرُ.

تلك هي الطبيعة البشرية التي سُرعان ما تملُ حياة الجِدّ والصرامةِ والقسوةِ " فتلتمس في الضحك واللهو ترويحاً عن النفس وتبحث في الفكاهة عن منفذٍ للتنفيس عن آلامها"[2] ، ومما تجدر الإشارة إليه أن الفكاهة قد تعبر في مضمونها عن السخرية لكنها أقل حدةً وإيلاما وتأتي الفكاهة في أكثر الأحيان لتخفيف الألم النفسي أو نشدان الشيء المفقود أما السخرية فإنها تدل على أحد أساليب التعبير التي قد تثير الضحك والاستهزاء ممن يكون موضعاً للسخرية " فنقول فلان سُخْرةُ وسُخرةُ يضْحكُ منه الناس

---

(١) د. احمد الحوفي: مرجع سابق/ ص١٠.

(٢) عبد الحليم حفني: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص١٦.

ويضحك منهم"[1] " وسخرتُ منه واستسخرت واتخذوه سُخرياً والسُخرة الضحكة، ورجل سُخرةٌ يُسخرُ بالناسِ وسخرةٌ يُسخرُ منه وكذلك سُخريٌ وسخرية "[2] ، قال تعالى: (ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً) ، والسخرية في معناها البلاغي تعني" طريقة في الكلام يعبّر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل كقولك للبخيل ما أكرمك!، وهناك صورة أخرى للسخرية هي التعبير عن تحسر الشخص على نفسه كقول البائس" ما أسعدني!"[3] " وللسخرية اتصال وثيق بالأدب وهناك من عدَّها أحدُ فنون الأدب الذي يحتاج إلى ذكاءٍ وفطنةٍ وسرعةٌ في الردِ، وذلك لأنها من أصعب فنون الأدب"[4] .

وبعد: فإن تعريف الفكاهة ووضع حدّ لها أمر يشوبه الكثير من الصعوبة والتعقيد لا لشيء إلا لأنها فن واسع ممتدة جذورها في كل ألوان الأدب وصور الحياة قد نضحك لمنظر نشاهده عند مرورنا في طريق يخالف المنطق والعقل والمألوف وغرابته هي ما يضحكنا.

---

(١) الأساس : اللسان ،تاج العروس، مادة سَخَرَ.

(٢) اللسان: مادة سَخَرَ.

(٣) مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. ص١٩٨.

(٤) انظر د. عبد العزيز شرف: أدبيات الأدب الفكاهي. ص٢٥٩.

غايات الفكاهة وأهدافها:

تعدُّ الفكاهة أحد ألوان الأدب في التراث العربي القديم ولون من ألـوان الفـن الرفيع الذي أنجزه العقل الإنساني على مدى العقود والسنين ومظهراً من مظاهر النشاط الإنساني الذي يعكس مدى تجاوب الإنسان وتوافقه أو عدم توافقه مع المجتمـع الـذي يحيط به ونظرة مبدعه إلى الحيـاة "والأثـر الفنـي الـذي ينبثـق عـن خـصائص صياغته"[1] فالفكاهة وضمن هذا الإطار المعرفي تغدو أداةً فعالةً، تـستطيع أن تحقـق للإنسان أهدافاً وغايات لذاته وللمجتمع من حوله لعل من أهمها:

- أنها تخلق لديه ضرباً من السعادة، والراحة النفسية والاتزان العاطفي وتخلصه مـن بعض ما يعاني منه في هذه الحياة المليئة بالمصاعب والهموم.

كما وتخلصه - ولو إلى حين- من بعض تبعات الحياة اليومية التي تتسم بالجدية والقسوة والتي قد تسبب له إرهاقاً نفسياً وفكرياً وجسدياً وهذا ينسجم مع توجهات بعض علماء النفس الذين يرون أن للفكاهة طابعاً سوياً وصحياً باعتبارها "وسيلة نافعة للتهرب - آنياً من بعض مشاغل الحياة وهمومها"[2] .خاصة إذا كان هؤلاء الأشـخاص ممـن يعانون من بعض الأمراض النفسية التي تجعلهم أشخاصاً انعزاليين لا يتوافقـون مـع أنفسهم ومع المجتمع الذي يحيط بهم، بل إنهم قد يشعرون بالغربة والضياع" ويـصبح الضحك بالنسبة إليهم بمثابة السبيل أو الطريق إلى تحقيق ضرب من التكامل الاجتماعي والنفسي"[3] ، وقد أكد الجاحظ مُنطلقاً من - مبادئ المعتزلة - الذين يتخذون من الفكاهة والسخرية أسلوباً في النقد والتوجيه - أكد على هذه الغاية للفكاهة فيما عـدّها وسـيلةُ

---

(١) عبد العزيز شرف : أدبيات الأدب الفكاهي ، ص ١٣.

(٢) المرجع السابق: ص٢٠.

(٣) د. زكريا إبراهيم: ص١٢.

،يمكن من خلالها تحقيق غايةٍ جديرةٍ بالاهتمام والتقدير وهذه الغاية تتمثل بقدرة الفكاهة على أن تصبح أداة يمكن من خلالها تثقيف الفرد وتعليمه وإصلاحه خاصة وأنّ الفكاهة في بعض جوانبها تبحث عن عيوب الفرد ونقائصه لتضحك منها وتُضحك الآخرين " للإعراب عما يعتمل في نفس الإنسان الفكه الضاحك – من نقد وازدراء لكثير من مظاهر الحياة"[1] ، فتضخّم تلك العيوب والنقائض ، بل وتبالغ في تضخيمها لتدلل على عمق تلك العيوب، وتأصلها في نفوس الأفراد والمجتمعات ،وبيان أثرها عليهم وتغلّفها بإطارٍ فكه مليْ بالسخرية، يبدو في ظاهره أنه مضحكٌ، بينما الشخص المضحوك منه، يُحسُ في أعماقه بالمرارة والألم والإحباطِ، مما يدفعه إلى معاودة التفكير في تلك العيوب أو الأخطاء للابتعاد عنها ولإصلاح نفسه، وتهذيبها، وتقويم اعوجاجها، وربما في نهاية الأمر تدفعه إلى تلمس الكمال"[2] ، وهذا ينسجم مع ما ذهب إليه أحمد الحوفي في أن الفكاهة " وسيلة للتقويم والتهذيب والإصلاح"[3].

لقد برزت هذه الغاية في العصر العباسي وتطورت بتطور الفكاهة والسخرية وعندما دعت الحاجة إلى إصلاح المجتمع العباسي الذي أصبح يعاني من تناقضات كثيرة، على مستوى الأفراد والمجتمعات، نتيجة للاحتكاك المباشر بين العرب وغيرهم من الشعوب والحضارات، وما رافقه من صدام فكري، واجتماعي، وحضاري، وثقافي، أدى إلى تخلخل في بعض القيم، والعادات، والأعراف، والتقاليد، وإلى اضطراب في مدلولات بعض المفاهيم والألفاظ والمفردات وتغيّر في معانيها كالبخل مثلاً هذه الصفة القبيحة والتي كانت في الجاهلية تعني سُبّةً وعاراً تخشاها القبائل العربية وتخافُ أن

---

(١) د. قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة بيروت،ص.

(٢) د. عبد الحكيم بلبع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط٢، ١٩٦٩،ص٢٧٧.

(٣) احمد الحوفي : الفكاهة في الأدب العربي، ص٣.

تُتهَم بها، أصبحت في – العصر العباسي- أمراً مقبولاً، وشاعت بين عدد كبير من أبناء المجتمع، – وأخذوا يقدمون الحجج والبراهين التي تسوغ بخلهم، وقد تصدى لها بعض الشعراء، وكتّاب النثر، وعبروا عنها من خلال الشعر وكُتبُ الأدبِ المختلفة، للحد من سريانها في مجتمعهم وللتقليل منها، وخيرُ من يمثّلُ هؤلاء الأدباء الجاحظ.

كما وقد تصبح الفكاهة، أداةً تعيننا على التغيير الاجتماعي، لبعض قيم المجتمع وعاداته وتقاليده، وما طرأ على أخلاق الناس من تغيّر، واضطراب ،وتبدل، وانحلال وفسادٍ بتوجيه النقد اللاذع والساخر لهم ،بالتركيز على تلك العيوب الأخلاقية، وفضحها، وكشفها أمام الآخرين ومهاجمة القيم والعادات الضارة من خلال السخرية والضحك منها وتعريتها أمام أفراد المجتمع لتصويب وتصحيح تلك الأخطاء ونبذ الفاسد ، وتثبيت الصالح والنافع منها.

ومن ناحية أخرى، فإن المجتمعات التي تتزعزع فيها سلطة رجال الدين، فإنها تنال من شخوصهم، كما تنال من قدراتهم الدينية فتتحول كل فكاهة نحوهم ويصبحون موضعاً للتندر بهم لا بل والسخرية منهم، ففي كتب الفكاهة، كثيراً ما نجد بعض النوادر التي تتخذ من رجال الدين موضعاً للسخرية، لرقة دينهم وضعفه، وعدم تمكُنهم من علمهم، وعدم معرفتهم بأمور دينهم ودنياهم.

أما المجتمع الذي يعنفُ فيه الصراع الطبقي قد تتخذ فيه الطبقة المتحضرة. من الفكاهة، سلاحاً ينالون فيه من الأعراب سكان البوادي، ونوادرهم في هذا الباب كثيرة لا يحصى عددها في المؤلفات الأدبية التي تناولت مثل هذا الموضوع مثل كتاب حدائق الأزاهر لابن عاصم وكتاب المستطرف في كل فن مستظرف" للأبشيهي، وكتاب الظّراف والمتماجنين" لأبن الجوزي وغيرها، فهذه الكتب مليئة بنوادر الأعراب التي يسخر فيها أبناء المدينة من جهل هؤلاء وحمقهم وغفلتهم، وسذاجتهم، ،ورقّةِ دينهم وضعف الوازع الديني لديهم.

كما يوجد تأكيد على " أن الضحك يردُ الذي أُخرج بغفلته لعيبٍ من العيوب فيه، إلى حظيرة المجتمع الذي أُخرج منه"[1] وقد أشار باحث بلجيكي هو "جين دوبرييل" إلى هذه الوظيفة فقال ما معناه " أننا عندما نضحك من إنسان فكأنما نأتمر به فنخرجه من دائرتنا لغفلته "وتُخفِّضهُ عن منزلتنا، فيحاول هذا الفرد، أن يرتفع إليهما وذلك بأن يُصلِحَ العيبَ الذي فيه"[2]، لقد أصبح الضحك وسيلةً رادعةً تردُ وتقيدُ الشخص الغافل الذي نَبَذَهُ المجتمع ليعود إلى هذا المجتمع متوافقاً معه، ومع عاداته وتقاليده، إنَّ خوف هذا الشخص وخشيتِهِ من المجتمع وخوفه من أن يظل موضعاً للتندر به والسخرية منه قد دفعه إلى إصلاح شأنه وتهذيب نفسه ليعود لمجتمعه بنشاط وحيوية.

أما أرسطو وفي كتابه " الشعر" فقد عدّ الفكاهة وسيلةً تطهيرية تُطهرّ النفس كما تطهرها المأساة، إن إفراغ القدر الزائد عن طاقة الإنسان من الانفعالات، يساعد في تطهير النفس من تلك الانفعالات، والتي تتولد في نفس الإنسان نتيجة لموقفٍ ،ينمُّ عن الشفقةِ أو الحقدِ، أو الغضبِ ،أو نتيجة لاحتكاكٍ مباشرٍ وصدام مع أشخاص آخرين، فإنه يثير في النفس واحداً أو أكثر من الانفعالات، قد يُفرغُها في صورة بكاءٍ زائدٍ أو ضحكٍ زائدٍ، المهمُّ في الأمر أنه يُطهُر نفسه من شيءٍ لا يستطيع تحمّله وفي هذا المجال فإنه يُفرغُ تلك الانفعالات بالضحك والفكاهة.

إن الحياةَ بغير الضحك والهزل قاسيةُ ،مملّةٌ بل إنها عبئاً ثقيلاً لا يقدرُ الإنسان على احتماله، والضحكُ أو الهزل، هو المتنفس الذي يُخففُ، من ضغوطها وينُسي همومها وآلامها، ويحررُ من قيودها زمناً قد يطولُ، وقد يقْصرْ، ولذا فإنَّ بعض الأدباء يعتبرون الضحك مظهراً من مظاهر السرور والانشراح ووسيلةً من وسائل الترويح عن

---

(١) د. عبد الكريم اليافي: دراسات فنية في الأدب العربي مكتبة لبنان بيروت- ط١، ١٩٩٦، ص٣٣٩.

(٢) المرجع السابق: ص٣٣٥.

النفس، وقد أكد الجاحظ على هذا الأمر، حينما تحدّث عن الضحك وأهميته، وأثرهُ على النفس والجسد معاً، ورأى أنَّ غاية الضحك هو الترويحُ عن النفس والتسليةُ وتنشيطُ القراءُ إذا ما أصابهم الملل فيقول "إن كنا قد أمللناك بالجد فإنا سننشطك ببعض البطالات ، وبذكر العلل الطريفة ما لا يبلغه أجزُ النوادر وأجمعُ المعاني"[١].

فالجد إذا دام وطال، تعافهُ النفسُ، وتملُّ منه لأنه: "نصبٌ ومبغضةٌ، وصاحبُ الجدِ في بلاءٍ ما كان فيه، والمزاحُ دليلٌ على حسنِ الحال، وفراغُ البالِ، وصاحبُ المُزاحِ في رخاءٍ إلى أن يخرج منه، والمُزاح محبةٌ وربما عرّضك لألذ منه"[٢] .

وهذا ينسجم مع ما ذهب إليه أحد الدارسين حينما حصر مهمة الفكاهة في مجرد العبث والتسلية، بينما ذهب التوحيدي مذهباً راعى فيه حاجةُ البدنِ والنفسِ إلى الراحةِ والهدوءِ وقد طبّق هو نفسه هذا حينما ختم بعض مجالسهِ مُلحةً أو نكتةً في كتابه الإمتاع والمؤانسة " لأنَّ النفسَ تملُّ كما أن البدن يكلُّ ، وإذا كلَّ طلب الراحةَ، كذلك النفسُ إذا ملت طلبت الرّوْحَ"[٣].

---

(١) الجاحظ: مقدمة كتاب البخلاء، ص٦.

(٢) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير، ص٦٦.

(٣) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ج١، ص٢٧.

الفصل الأول

الفكاهةُ في الكتب المؤلفة في العصر العباسي الأول (القرن الثالث الهجري)

لعل العصر العباسي الأول من أزهى عصور الخلافة العربية الإسلامية وأكثرها نضوجاً وتطوراً سياسياً واجتماعياً، واقتصادياً، فبعد سقوط الدولة الأموية، وانتهاء حكمها، استطاع العباسيون سنة "١٣٢هـ" بناء دولتهم بقوة، وتمكّنوا من إرساء دعائم حكمهم وتوطيد أركانه بمساعدة من الموالي وعلى رأسهم الفرس الناقمون على بني أمية، الذين كانوا ينظرون للفرس "نظرة ازدراء واحتقار وشعور بالأنفة والكبرياء لاعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم، ولغتهم أرقى اللغات"[١]، وعرفاناً بالجميل لهم فتحت الدولة الجديدة صدرها لهم، ونالوا في ظلها ما كانوا ينشدون من عدالة اجتماعية افتقدوها إبان الحكم الأموي، كما عمل الخلفاء العباسيون على تقريبهم منهم، وتوليتهم أعلى المناصب بالدولة، فكان منهم الوزراء، والولاة والقواد، والحكّام، بل لقد كان الخلفاء يؤثرونهم على العرب أنفسهم وقد ذكر السيوطي "أنّ المنصور هو أول من أسند لمواليه الأعمال وقيادتها"[٢].

وأصبح العرب كأي عنصر من العناصر التي انضوت تحت لواء الدولة العباسية، مما أثار ضغينة العرب، وبعث أحقادها الدفينة على الفرس وقد انعكست آثار تلك النظرة على طبيعة العلاقة التي قامت فيما بعد بين العرب والفرس، وصبغتها بصبغة عدائية، تقوم على إحساس كل منهما بالحقد والكراهية تجاه الآخر، العرب يعدوّن أنفسهم انهم أصحاب المُلك وأهل الأرض والإسلام، والفرس يفتخرون بأنفسهم وحضارتهم وأمجادهم التي ولّت، وحقدهم على العرب كان له ما يبرره لديهم، فهم يرون أنّ العرب كانوا وراء سقوط دولتهم وضياع هيبتهم بين الأمم، ولهذه السياسة جانب كبير من الأهمية، بل هو مفصلٌ هام من المفاصل التي ساهمت في إضعاف الجانب السياسي للدولة، والهيمنة عليها وضياع هيبتها فيما بعد.

شهد هذا العصر انفتاحاً للدولة العباسية على الحضارات والأمم الأخرى، مما أدى إلى اختلاط تلك الأمم وامتزاجها مع بعضها، العربُ بالفرس وبالروم، والآرام والكلدان وغيرهم،

---

(١) د. إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٤، ١٩٦٤، ص٣٤٨.

(٢) جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٠٥.

وغدا المجتمع العباسي، مجتمعاً قادراً على استيعاب كافة الاتجاهات الاجتماعية، والأطياف السياسية، جمع بين الحزب وضده، الشيعة في مواجهة مع العباسيين أنفسهم حول شرعية الحكم، وهم أيضاً في صراع مرير مع أهل السنة، خليط من الأحزاب والشعوب والثقافات تتصارع مع بعضها بعضاً في بوتقة واحدة، بوتقة الخلافة الإسلامية.

كما شهد العصر ألواناً من الترف والبذخ واللهو، بسبب ثراء الدولة، وتدفق ما يُجبى من الأموال على خزائنها في بغداد، بعد تحسن مواردها من التجارة والزراعة، اللتين نشطتا بعد حالة الهدوء والاستقرار التي شهدتها الدولة، وتوقف حركة الفتوح، مما شجع على الترف، ميل الخلفاء للهو، وانتشار الجواري والقيان والمغنيات "فقد رُوي أنَّ المنصور قد خلّف حين توفي أربعة عشر مليوناً من الدنانير، وستمائة مليون من الدراهم"[1].

وقد قلدهم في ذلك الوزراء، والقواد وكبار رجال الدولة ومَنْ يتحلق حولهم، في حين أنَّ العامة من الناس محرومة من أبسط حقوقها المالية والاجتماعية، تحيا حياة البؤس والشقاء وكثرت الثورات وحركات التمرد، وعلت موجة من المجون والزندقة في المجتمع العباسي ساعد عليها الفرس الراغبين في الانتقام من العرب، وجرّهم نحو الفساد والانحطاط والتدهور الأخلاقي.

أما الحياة الفكرية والأدبية فقد شهدت تطوراً وازدهاراً وذلك لتنوع علوم هذا العصر وتعدد مصادره، وتمازج ثقافاته وعلومه الفكرية والعقلية، إضافة لتشجيع الخلفاء والأمراء للدراسات والنشاطات العلمية والأدبية والفكرية في بغداد واحتضانهم العلماء والأدباء والفلاسفة وإغداق الأموال عليهم.

وتشجيعهم لحركات الترجمة والنقل، نقل الكثير من الكتب الأدبية والفلسفية والعلمية، من اللغات الفارسية، واليونانية، والهندية إلى اللغة العربية، وبلغت حركة الترجمة ذروتها في عهد المأمون "إذ تحوّل بخزانة دار الحكمة إلى ما يشبه معهد علمياً كبيراً"[2].

---

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج٣، ص٢٣٢.

(2) انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف بمصر، ط٦، ١٩٦٦، ص١١٣.

واعتقد أنّ هذا الاحتكاك الثقافي، والفكري والحضاري قد ساعد على رقي العقلية العربية، ونضوجها، وتطورها، وتوسّع آفاقها، وانعكس على مرونتها، وقدرتها على استيعاب علوم الآخرين بسلاسة، مع الاحتفاظ بالهوية العربية الإسلامية وذلك لأنها "ترتكز على قاعدة ثابتة، هي عقيدة الإسلام، وثقافة القرآن"[1]، كما ساعد على رُقيُّها نهوض بعض الفرق والمذاهب الدينية، والفلسفية، والكلامية، وما انبثق عنها من حوار وجدل ومناقشة، حول الكثير من القضايا والمسائل، حتى ليمكننا القول أنّ العقل قد أصبح سمة العصر "ولم يعد العصر عصر خيال واندفاع، إنما عصر رويّة وتفكير عقلي"[2]، ولذا خبا الشعر وانطفأت جذوته، وتطور النثر، فكما كان الشعر ديوان العرب في الجاهلية والإسلام وعصر بني أمية، أصبح النثر في هذا العصر ديواناً للعرب، وسمة من سمات الأدب آنذاك، مما أفسح المجال أمامه لأن يتطور، ويتقدّم، وتتفرع ألوانه لتشمل بالإضافة إلى الخطب والمناظرات، والرسائل، والتأليف في علوم أخرى كالفلسفة والمنطق وغيرها، كما عُني أُدباء المعتزلة بصقل هذا الفن، وأشهر هؤلاء هو الجاحظ (١٥٠هـ -٢٠٥٥هـ)، في هذه الأجواء، ازدهر أدب الفكاهة والسخرية وتطوّر، وأصبح فناً له معالمه، وغاياته، وأدباؤه، بدا ذلك واضحاً في مؤلفات ابن المقفع، وسهل بن هارون، وابن الزيات، أما الجاحظ فهو أسبق مَنْ عُني بمراعاة ميول قُرائه، وتفنن في إمتاعهم، وإدخال السرور على نفوسهم، إبقاءً على نشاطهم، وإبعاداً للملل والسأم عنهم كان إذا تخوّف ملل القارئ، وسآمة السامع، خرج من جدٍ إلى هزلٍ، ومن حكمةٍ بليغة إلى نادرةٍ ظريفة.

عوامل تطور الفكاهة:

تحدثت فيما مضى عن البيئة التي أنضجت الفكاهة وسأتحدث الآن عن العوامل التي ساعدت على تطور هذا الفن الأدبي ومنها:

---

(١) عبد الحكيم بلبع: أدب المعتزلة إلى نهاية القرن ٤هـ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٣، ص٧٦.

(٢) طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر، ط١٩٣٦م، ص٥٥.

١-رُقّي العقلية العربية وتطور فكرها.

لعل العقلية العربية لم تبلغ شيئاً من الرقي مثلما بلغته في العصر العباسي، ففي هذا العصر، نضجت وتبلورت، وبلغت مرحلة لم تكن لتبلغها لولا تلك العوامل، ومنها:

أ- حركة الفتوح الإسلامية:

قامت حركة الفتوح الإسلامية وهي تحملُ على عاتقها عبء نشر الدين الإسلامي الجديد، في أقطار وأمصار، متناثرة في آسيا وأوروبا، وأفريقيا والهند، ما كان للعرب والمسلمين الوصول إليها، لولا تلك الفتوحات وما نجم عنها من اختلاط وتقارب بين تلك الشعوب، والشعب العربي الإسلامي بما يحمل من معارف وعلوم وآداب، وفلسفة، وغير ذلك،حتى استطاع أن يتلاقى معها ويتمازج بها مما مكّنهم أن يتحولوا إلى أمة علمية، تُعنى بكل جوانب العلم والمعرفة بين غيرها من الأمم، وخاصة الفرس، والهنود والسريان واليونانيين، " وتشاركُ فيه مشاركةً جادةً، وتضيفُ إليه علوماً جديدةً"[١]، لتُشكل في نهاية الأمر، ثقافةً إسلاميةً تنسجمُ مع ما ذهب إليه العباسيونَ عند قيامِ دولتهم "حينما اتخذوا لأنفسهم الطابع الإسلامي بكل رحابته"[٢].

ب- مجالس الخلفاء والوزراء وحاجتهم للندماء:

كان الخلفاء يعقدون مجالس للندوات العلمية والمناظرات في كافة العلوم والآداب يحضرها علماءٌ متبحّرون من أعلام اللغة والأدب ممن لهم ذوق في النقد ودرايةٌ في الأدب وكان الخلفاء يشاركون في المناظرات ويثيرون المسائل ويناقشون القضايا العلمية والأدبية.

---

(١) د. شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني،ص١١٥.

(٢) د. عز الدين إسماعيل: مرجع سابق، ص٢٥٥.

وبرزت أهمية المنادمة وحاجة الخلفاء لمن ينادمهم ويسامرهم "وقد كان لكل خليفة ندمائه ممن يوردون النوادر والفكاهات ومَن يعرفون كيف يُرضونه في ساعات صفوه"[1].

لقد هيأت هذه المجالس للفكاهة أن تنمو وتزدهر وتتطور وتتعدد ألوانها وتتفاوت ما بين النكتة والطرفة أو المُلحة أو النادرة أو الحكاية، والتي أُعدت خصيصاً لتُروى في هذه المجالس فتكون زينتها وبعضاً من دعامتها، وأُنساً تشيعه حركةً وحياةً ورونقاً تزيده.

وأصبحت المنادمة مهنة لها شروطها في الشراب والمعاملة، والتغافل عن رد الجواب خاصة في مجلس الخليفة.

ج- الترجمة:

وللترجمة أثرٌ كبيرٌ على نشاط الحركة الفكرية والعقلية، فقد وُضِعتْ أمام العرب المسلمين، ثروة علمية هائلة، تمثلت بتلك الكتب التي تُرجمت عن اللغات الأخرى، الفارسية، والهندية، واليونانية، إلى اللغة العربية.

وأسهمت في بناء العقلية العربية وإنضاجها، والعمل على تطور فكرها، وصقل ذوقها الأدبي والفني، حتى ليمكننا القول بأنها تُعدّ إحدى "الدعامات الرئيسية التي قام عليها صرح الفكر العربي الإسلامي منذ القرن الثاني للهجرة"[2] ، لقد أوجدت هذه العقلية، للشخصية العربية ملامحها الثقافية والحضارية والإنسانية ولعل ابن المقفع كان أشهر التراجمة، فقد نقل إلى الأدب العربي بعض المؤلفات الفارسية في التاريخ والأدب أهمها كتاب (الكيكين) وهو كتاب يشتمل على تاريخ الفرس وأيامهم، وأخبار ملوكهم،

---

(١) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧٣، ص٧٦.

(٢) د. عبد الحكيم بلبع: أدب المعتزلة، ص٧٠.

وكذلك كتاب (كليلة ودمنة) وهو في الأصل كتاب هندي تمت ترجمته إلى اللغة الفارسية ثم ترجمه ابن المقفع إلى اللغة العربية كما شهدت حركة الترجمة، نقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية، ومنه "منطق أرسطو الذي لعب دوراً هاماً في تشكيل الثقافة العربية"[1] ، وأسهم إلى حد كبير في تحديد ملامح وأطر اتجاه فلسفي إسلامي جديد "لم يسلم من تأثيرات أنواع اللاهوت المختلفة التي كانت شائعة في الأقاليم الفارسية والبيزنطية، وبخاصة في إقليم العراق"[2].

هـ. كثرة الأحزاب والمذاهب الدينية والفلسفية واستخدام الفكاهة للنقد السياسي والاجتماعي:

لقد كان لظهور بعض المذاهب والفرق الإسلامية أثرٌ هامٌ في تطور الفكر العربي الإسلامي، ونضوج العقلية العربية وتفتحها إبان العصر العباسي، وظهورها في هذا العصر، إنما هو امتداد لظهورها المبكر في نهاية العصر الإسلامي، والعصر الأموي، لقد احتدم الخلاف فيما بين هذه الفرق حول الخلافة، ومن هي الجهة صاحبة الحق في هذه الخلافة، وتشكّل لدى كل مذهب أو فريق أفكاراً ومبادئ انبثقت عن دعواهم، مما أفسح المجال أمام السخرية والتهكم لأن تتطور وتزدهر وبرز كثير من شعراء وأدباء السخرية الذين عبّروا عن هذا الخلاف، والتهكم من بعضهم بعضاً، للنيل من أعراضهم.

---

(١) أنظر المرجع السابق: ص٧٦.

(٢) المرجع السابق: ص٧٣.

٢-أتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء واتخاذ الفكاهة كوسيلة للتسليةِ والتخفيفِ من مصاعبِ الحياةِ وظروفها:

إن اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء هي إحدى أهم سمات المجتمع العباسي، ولهذه السمة أسباب أدت إلى إبرازها وإظهارها بشكل لافت، نظراً للعواقب الوخيمة التي نتجت عنها، فالمجتمع العباسي مجتمع طبقي تسوده فئات مختلفة من الشعوب والأقوام، وهذا ناجم عن الانفتاح الحضاري، واختلاط الشعوب الذي شجعته سياسة الخلفاء العباسيين منذ بدء دعوتهم، وعند قيام دولتهم أيضاً، استمروا بهذا التشجيع ليكْثرَ مناصروهم، ومخالفةً للنظام الذي كان يتّبعه الأمويون ولذا فإن هوية الأمويين كانت عربية خالصة، بينما كانت هوية العباسيين هوية لا تدل على جنس واحد، بل هي هوية مختلطة الأجناس قائمةً على استيعاب كافة الفئات والعناصر العربية وغير العربية ليتشكل منهم في نهاية الأمر مجتمع إسلامي متنوع، ضمَّ الفرس والموالي، إضافة للعرب وغيرهم من الشعوب التي دخلت الإسلام وقد انعكس هذا التنوع على الخلفاء العباسيين" إذ أحاطوا أنفسهم ببعض هؤلاء وخاصة النابهين منهم الذين استطاعوا أن يثبتوا وجودهم، وأن يقوموا بدور ملموس في الحياة السياسية والعلمية والحضارية للمجتمع"[١] ، وكانت الحظوة في بداية الأمر للفرس فما قاله داود بن علي في خطبة له لأهل الكوفة: " يا أهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين، مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شخصيتنا أهل خراسان، فأحيا به حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا"[٢]، والفرس أصحاب حضارة وثقافة وعلم نقلوا كل ما لديهم من حضارة، للمجتمع العباسي، وكان لهذا الأمر أثر بالغ في تغيّر ملامح وصور الحياة للمجتمع بدأ الخلفاء

---

(١)د. عز الدين إسماعيل: في الأدب العباسي، الرؤيا والفن،ص٢٠٠.

(٢) د. عز الدين إسماعيل: مرجع سابق، ص٢٥٦- ٢٥٧.

العباسيون يبحثون عن وسائل المتعة واللهو، وأطلقوا لأنفسهم العنان في الافتتان في مظاهر الأبهة في بناء القصور وتنسيق الحدائق، والتزييّ بالأزياء المصنوعة من الديباج المطرز، " وفي كل هذه المجالات كان طراز الحياة اليومية الفارسي يغزو المجتمع ويفرض نفسه عليه، حتى صار الدخول في هذا الطراز، مظهراً من مظاهر التميّز والوجاهة الاجتماعية"[1] ، وأظن أنّ هذه الوجاهة تحتاج إلى الأموال الطائلة، وهذا ما حصل فقد كانت الأموال تتدفق على خزائن بيت المال في بغداد والخلفاء ينفقون منها كيفما يشاءون يوزعون الرواتب على موظفي الدولة، وما يتبقّى منها، يظل تحت تصرف الخلفاء ولم تكن هذه الأموال توجّه لصالح المجتمع أو، عامة الناس، لم يكن يصل إليها أي شيء من هذه الأموال وهذا الخلل في التوزيع المالي، أدى إلى وجود فجوة عميقة بين طبقتين من المجتمع هما: طبقة الخلفاء والوزراء ومَنْ يتحلقون حولهم، وطبقة العامة وهي الأكثرية ، الطبقة الأولى تزداد ثراً وغنى، بينما الطبقة الثانية تزداد فقراً وجوعاً وحرماناً، لقد خلق هذا التفاوت في الطبقات حقداً وبغضاً وكراهيةً من جانب الفقراء على أصحاب الثروة والمال، فكَثُرَ اللصوصُ وقطّاع الطرق ممن يسلبون وينهبون وفي أنفسهم إحساس بأن هؤلاء قد اغتصبوا حقوقهم.

وكثيراً ما نجد بعض تلك المعاني مثبوثةً في أدب تلك المرحلة وخاصة النثر، والفكاهة والسخرية وهي إحدى فنون النثر استطاع بعض الأدباء الصاعدين من طبقة الفقراء، التعبير عن هذه الأحاسيس بالتوجه إلى أضحاك الآخرين بالتفكه بعيسب من عيوب الأغنياء أو بالسخرية من صفة من صفاتهم والجاحظ أحد أولئك الأدباء إذا أستطاع أن يجسد معاناة تلك الطبقة بكتابية (البخلاء) والتربيع والتدوير.

---

(١) المرجع سابق، ص٢٥٦- ٢٥٧.

٣- المجون

ظهر المجون في المجتمع العباسي، تبعاً للتطور والتقدم الذي شهدته الدولة العباسية، والذي شمل معظم مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وقد ساعد عليه الانفتاح على حضارات الأمم والشعوب المختلفة، والفرس أكثر تلك الشعوب تواصلاً وانفتاحاً على العرب، وهم أصحاب نزعة قومية، أيقظتها فيهم سياسة الدولة الأموية التي اعتمدت على إبعادهم عن مراكز الحكم -- والشعوبية هي التي استطاعت أن تجسّد هذه النزعة، وإيماناً منهم بالثأر من العرب بدأوا بإدخال أنماط سلبية – تنتشر في مجتمعاتهم – تتوافق مع ما عُرِفَ عنهم من ميل إلى " اللهو والسرور والإفراط في حب النبيذ وديانتهم تجعل شرب النبيذ من شعائرها"[١] ، والمجون أحد تلك الأنماط وأدخلوا هذا النمط إلى الحياة العربية عن طريق المجالس التي كانوا يشجعون الخلفاء على إقامتها في قصورهم، حيث اللهو والطرب والغناء والموسيقى وما يرافق تلك الممارسات من شرب للخمرة أو النبيذ، وكذلك الجواري والقيان، أصبحنَ من ضرورات تلك المجالس نظراً للدور الذي يقمن به في تلك المجالس من غناء ورقص، وأشاعه جو من الطرب وإدخال السرور إلى قلوب الماجنين، على اختلاف فئاتهم، فمنهم الخليفة والوزير، والشاعر ومنهم من هو من عامة الشعب.

وثمة ظاهرة أخرى انبثقت عن هذه الظاهرة وهي ظاهرة التعلق بالغلمان المرد، والولوع بهم " وهي آفة مزرية تورط فيها المجان والخلفاء"[٢] ، وذلك أمعاناً منهم بالمجون والفسوق، وقد شاركهم فيها بعض الخلفاء وخاصة الخليفة الأمين " الذي انقطع

---

(١) د. عز الدين إسماعيل: مرجع سابق، ص٢٥٩.

(٢) د. شوقي ضيف: مرجع سابق، ص٩٧

لملاذه ومجالس طربه وأنسه منصرفاً عن مهمات الدولة، مسرفاً ما تجمع لديه في بيت المال من ثروة على ملاهيه وجلسائه ومسامريه ومضحكيه ومغنيه"[١].

إضافة لولعه بالغلمان "فقد استكثر من الخصيان، وجعلهم قائمين علـــى شـــئونه الخاصة ومجالس لهوه، وشرابه، وخلواته، يقال أنه أنقطع إليهم دون النساء"[٢].

والخمرة كانت من العوامل التي ساعدت على ظهور تيار المجون، فقــد شــاع شربها في هذا العصر،وأصبحت مطلباً لمجالس الأنس واللهو فلا تنعقد تلك المجالس ألا بوجودها، وموقف الإسلام منها معروف، إذ حرّمها ولعن صـــانعها، وبائعهـــا فكيــف بشاربها وهو ينتهك حرمة الدين ويبدو " أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعــسل والتــين والبُــر والزبيــب المطبوخ أدنى طبخ"[٣]. لقد سوّغ الأمر لبعض الناس في تحليل كل أنواع الخمر وليس ما اقتصر عليه هذا التحليل، وأصبحت تجارتها رائجة واختلطت أمور المــسكر بغيــر المسكر.

وأصبح الجميع يتناولونها دون تمييز أو تحريم، ويظهــر أن لمجلــس الــشرب طقوس معينة كانوا يقيمونها لتكتمل متعة الشراب لتوفر الندماء وأن لا يقل عددهم عن ثلاثة، تدار عليهم الخمرة من خلال سقاة وساقيات من الغلمان والجواري، وأن يحــاط بمجلسهم الورود والرياحين، وربما يكون المجلس في " الهواء الطلق وســط البــساتين وعلى حافات الجداول والأنهار"[٤] ، وأظن أن اختيارهم للطبيعة أماكن للشرب واللهو،

---

(١) د. عز الدين إسماعيل: مرجع سابق، ص٢٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٢.

(٣) د. شوقي ضيف مرجع سابق ،ص٩١.

(٤) البشير المجذوب: الظرف في العراق ما بين القرن٢- والرابع للهجرة ، ص٢٩.

تعبر عن افتتانهم بها، فقد قرنوا ما بين جمال الطبيعة، والخمرة والغناء واللهو، وهي أشياء جميلة وثمينة وغالية عليهم " فالطبيعة ليست مجرد إطار جميل يغريهم بالشرب، وسماع الغناء، وإنما هي علاقة أرفع وأعمق، إنها علاقة تكاملٍ وتمازج، وتوافق بين عناصرٍ تلتقي وتتحد لإذكاء حاسة الجمال، والإشعار بلذة الحياة، والوعي بقيمة الوجود"[1] ، هذه النظرة بالنسبة للماجن تُشَكلُ جزئية خاصة للذي يبحث عن اللذّة والمتعة.

النوع الثاني من المجون: وهو المجون المباح بكافة صوره العادية والشاذة وهذا النوع هو الذي كان الخلفاء يمارسونه في مجالس لهوهم ومجونهم. تشبهت بهم الشخصيات ذات الوجاهة والثراء في المجتمع، وأقامت مجالس للهو والمجون، واتسع نطاق هذا النوع في المجتمع العباسي وانطلقت العامة في إقامة مثل تلك المجالس حيث اللهو والعبث والمجون والانحلال والتهتك والخلاعة، فلم يعد يخيفها رجال الشرطة الذين كانوا في السابق يلاحقون مثل تلك المجالس ومثل هؤلاء الماجنين والخلفاء وغيرهم، فلا يجرؤ أحد على إظهار خلاعته ومجونه أو الإعلان عنها، لعدم تقبل الناس والمجتمع لمثل تلك الأمور، والعادات والتقاليد تعارض تحلل الناس من أي قيم أو عادات أو تقاليد وتعده خروجاً على الدين وعلى المألوف، غير أن انفتاح المجتمع الإسلامي وتهيؤ طبقاته المختلفة على اقتناء الجواري والإكثار منهن في بيوتهم، وقصورهم، ومجالسهم، قد أفسح المجال للاختلاط بين الرجال والنساء- وهن من دون الحرائر- وهذا ما كان له أن يتم لولا الاختلاط، فقد أصبح بوسع الرجال أن ينالوا ما يريدون دون إحساس بالخوف من العقاب والملاحقة، فهنَّ شريكات للرجال في مجالس لهوهم ومجونهم- يتجلى دورهن بالغناء والعزف وخلق أجواء المتعة والطرب والمرح والمسرة، بل لقد كان لهؤلاء الجواري أدب خاص بهن نشأ نتيجة لثقافتهن الواسعة

---

(١) المرجع السابق: ص٢٩.

والممتدة في علوم معرفية مختلفة في الشعر وأوزانه، وفي النقد الأدبي، وفي علوم اللغة، وفي العزف والموسيقى والغناء وغير ذلك.

إضافة لذلك فقد كُنَّ يمتلكن رقةً وجمالاً رائعاً وحساً مرهفاً، وذوقاً أدبياً راقياً، وشعرُهنَّ شعر مرح ومسرة وغناء وألفاظه ألفاظ المجون والدعابة، وقد أنعكس ذلك على أدب هذا العصر، وكثرت القصائد والمقطوعات التي كانت تُلحن وتُغنّى.

وبعد فهذه هي العوامل التي ساعدت على تطور هذا الفن، وهي في مجملها عوامل سلبية ساعدت على انحلال بعض فئات المجتمع العباسي، لكنها في جانب آخر ولدت أدباً استطاع أن يعكس أحوال المجتمع ويصوره وقت ازدهاره ، ووقت تقهقره واضطرابه والناظر في هذا الأدب يدرك الدرجة التي وصل إليها وخاصة أدب الفكاهة والسخرية وسأتحدث في هذا السياق عن النثر - النثر الفني الذي نهض ونما وتطور في هذا العصر، لم يكن النثر وليد هذا العصر لأنه " في بعض صوره امتداد للقديم، وفي بعضه الآخر مبتكر لا عهد للعرب به، على نحو ما هو معروف في كتابات سهل بين هارون والجاحظ"[1].

بدأت معالم هذا الفن على يدي عبد الحميد الكاتب(١٢٣هـ) وابن المقفع (١٤٣هـ) اللذين شهدا جانباً من أول عصر العباسيين "إذ كانا من أشهر الكتاب الواضعين لأصول الكتابة والنثر في الأدب العربي"[2] ، وكان لثقافة الأدباء واتجاهاتهم السياسية والدينية والفلسفية إسهامات كبيرة ساهمت في صقل هذا الفن، كما ساهمت بعض فرق المتكلمين من معتزلة وغيرها في صقله، أيضاً، والجاحظ أحد أفراد المعتزلة أسهم في بناء النثر إسهاماً كبيراً ليغدو في نهاية الأمر نثراً فنياً واضح المعالم

---

(١) د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص١٢٥.

(٢) أنظر د. عبد المنعم خفاجي: أبو عثمان الجاحظ، ص١٩٠.

متنوع الأشكال كما برع أيضاً في فن الفكاهة والسخرية " بل هو أسبق الكتاب العرب احتفالاً بالفكاهة، وحشداً لها في ثنايا مؤلفاته، وهو صاحب مذهب مشهور في مزج الجد بالهزل، فهو رائد للأدب الفكاهي عند العرب وأول من ابتكر هذا الأسلوب، وأسبق من عُني بمراعاة ميول قرائه وإدخال السرور عليهم أبقاءً على نشاطهم وإبعاداً للملل والسأم عنهم"(1).

وذكر ابن قتيبة "276هـ" في مقدمة كتابه عيون الأخبار "إن كتابنا هذا سينتهي بلك إلى باب المُزاح والفكاهة وما روي عن الأشراف والأئمة فيهما فإذا مرّ بك أيها المتزمت حديثٌ تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك منه فأعرف المذهب فيه وما أردنا به؛ وأعلم أنك أن كنت مستغنيٌ عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخص في تشددت فيه، محتاجٌ إليه، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيُهيأ على ظاهر محبتك، ولو وقع فيه توقّي المتزمتين لذهب شطر بهائه ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك"(2).

فالفكاهة في رأي ابن قتيبة عامل من عوامل الاستمالة ولون من ألوان الجمال، همه الترويح عن القارئ وإمتاعه، وتنشيط ذهنه من كد الجد وإتعاب الحق، لكن طابعه الوقور غلب على نوادره وفكاهاته فجاءت مغلفة بالوقار وكثير منها لا يثير الابتسام وإن وجد فهو قليل.

أما التوحيدي صاحب كتاب(الإمتاع والمؤانسة) وأسمه علي بن محمد بن العباس، الملقب بالتوحيدي (312هـ -414هـ) فقد عرض في كتابه هذا لمسائل

---

(1) أحمد عبد الغفار عبيد: أدب الفكاهة عند الجاحظ. ص28.

(2) ابن قتيبة، مقدمة عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، مطور عن دار الكتاب المصرية، 1925م، ج1، ص "ل".

عديدة، أهمها الفلسفة والمنطق والدين واللغة والنحو والحِكم والأمثال والفكاهة والكتاب في مجمله كتابٌ موسوعي شامل، جمع فيه بين العلم والأدب والفلسفة والطبيعة والجد والهزل ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء.

أما مادة الكتاب، فقد دونها التوحيدي في ليالٍ وجعل من الليلة – تلك المسافة الزمنية القصيرة إطاراً عاماً لأحاديثه ومسامراته، ولعل تسميته لهذه الأحاديث والمسامرات بالليل ، نابع من الوقت الذي كانت تقال فيه وهو الليل، كما يأخذ التوحيدي صفة المتكلم الذي يُحدِّثُ ويُسامرُ الوزير ابن سعدان ليطرد عنه الملل والضجر ويبعد عنه أدران الهم والحزن والقلق، فتطيب نفسه ويهدأ باله، بما يسمع من أحاديث شيّقة، وموضوعات متنوعة، خاصةُ ملحةُ الوداع، وما تتضمنه من أحاديث عن الهزل والضحك ومن هنا جاءت تسميته لهذا الكتاب (بالإمتاع والمؤانسة) ، لقد تنوعت الأشكال القصصية التي استخدمها التوحيدي في كتابه وتراوحت بين الخبر والنادرة والطرفة والحكاية وكلها من أنواع القصص الفكاهي،لاحتوائها على حدث بسيط يكشف عن موقف يعبر القاص من خلاله عن قضية إنسانية ولهذا فأننا نراها تتصف بقصرها، وصغرِ حجمها فلا تتجاوز عدداً من الأسطر القليلة ، وهذا ما يفرّقها عن الحكاية التي تشبه بشكل ما ، القصة القصيرة، وذلك من حيث تعدد الأحداث وتناميها وتطورها في الحكاية، فالملحة التي تقتصر على حدث بسيط ربما تكون الغاية منها التسلية والترويح عن النفس في حين أن الحكاية لا تقتصر غايتها على التسلية ، بل تتعداها لتقوم بدور إصلاحي تهذيبي. ينم عن فلسفة عميقة ومحددة يؤمن بها القاص، ولتحقيق تلك الغاية يستخدم أسلوباً غير مباشر يبدو في معناه العميق ما يخالف دلالته في معناه القريب، هذا الاتجاه يتوافق مع ما منيت به شخصية التوحيدي من فقر وقهر، ومعاناة من الظلم والجور وإدبار الزمن عنه، لأن تطلعاته عالية، وواقعه مقيد بقيود سياسية واجتماعية واقتصادية لا سبيل إلى الخلاص منها، إلا من خلال اللجوء إلى الفكاهة والسخرية

والتهكم ومزج الجد بالهزل، مقتفياً في ذلك أسلوب الجاحظ في كتاباته، بل زاد عليها في بعض الأحيان وعورة الألفاظ وغموضها، فلا سبيل إلى فهمها إلا باستخدام المعاجم اللغوية كما لجأ لاستخدام الإيجاز في ملحة وداع الليلة التاسعة يقول: " لو علم الذي يحمل الباذنجان أن عل ظهره باذنجاناً لصال على الثيران"[1] ، فالذي يحمل الباذنجان هو كالحمار الذي يحمل أسفارا، وهو كائن ضعيف، بينما الثيران قوية فهي الغالبة دائماً، تماماً كحال الناس في ظل حكم ظالم مستبد، يعملون بشكل متواصل إلا أنهم مغلوب على أمرهم، فالمعنى البعيد في هذه النادرة يدل على قوة وتسلط الحاكم، على رعية مستضعفه لا حول ولا قوة لها إلا الاستسلام.

أما النوادر والتي تشكل جزءاً هاماً من فكاهات التوحيدي، فقد تنوّعت وتعددت وكان الهدف من إلقائها هو تلطيف جو المستمعين بالابتسام حيناً وبالغمز الذي يهدف إلى النقد الساخر حيناً آخر.

وخلاصة القول أن فن الفكاهة قد نما ونضج على أيدي عددٍ من الأدباء وأصبح فناً قائماً بذاته بفضل الرقي الحضاري، والنضج الثقافي الذين أصابا الأمة العربية في العصر العباسي، حتى يمكننا "أن نعده نظرية ، فلسفية، أو مذهباً واضح المعالم، راسخ الأسس، ينم عن خبرة عميقة بطبيعة النفس البشرية ووعي دقيق لما أجتمع فيه من متناقضات هي قوام حياة الإنسان، ومبعث حركته ونشاطه، وعامل القوة والخصب، والإبداع فيه قائماً أصلاً على نسبية الحقائق والقيم والصراع بين الأضداد فلا معنى ولا نفع في الجد دون الهزل"[2].

---

(١) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ج١، ص١٥٧.

(٢) البشير المجذوب: الظرف بالعراق في العصر العباسي فيما بين القرن ٢هـ - ٤هـ،ص١٠٣.

صور للفكاهة العباسية ودلالاتها

إن التطور البالغ الذي شهده المجتمع العباسي قد ساهم إلى حد كبير في تطـور الفكاهة، وتنوّع أساليبها وتعدد ألوانها ودلالاتها، وأفانينها كثيرة لا يمكن حـصرها، إلا أنني ورغم ذلك أستطيع أن أتبين اتجاهين اثنين لفكاهة هذا العصر وهما:

١- الاتجاه الأول: ويتمثل بتلك الفكاهة السامية التي تخلو من "الميـول العدوانيـة أو الأغراض الشخصية"(١)، التي لا غاية لها إلاّ الضحك والتسلية، وإدخال السرور إلـى نفوس متلقيها نجدها مبثوثة في أدب ذلك العصر وبعض مؤلفاته.

٢- الاتجاه الثاني: ويتمثل بتلك الفكاهة القائمة على معانٍ سـلبية كمعنـى الـسخرية والاستهزاء والتهكم، إذ يعمد الإنسان الفكه إلى البحث عن العيوب والأخطاء، ومواطن الخلل في الفرد والجماعة، ليصوّرها بعد أن يُضخمها ويجعلها موضعاً للتفكه والسخرية والضحك، وذلك لتوفر ميول عدوانية نمت وتأصلت في نفس هـذا الإنـسان الـساخر لإشباع رغبته في الانتقام أو التشويه أو التجريح والإيلام النفسي .

وبناءً على ذلك أرى أن الفكاهة تنقسم إلى الأقسام التالية :

١- المداعبة.
٢- التحامق والتغافل والغفلة.
٣- الرد بالمثل وسرعة البديهة التخلص الفكه.
٤- المفارقة.
٥- الحذلقة واللعب بالألفاظ والمعاني التهكم والتجريح بالذات.
٦- السخرية من التطفل والكدية والاستجداء بالآخرين.

١- المداعبة:

المداعبة هي الممازحة " وهي فعل إشراك يشترك فيه اثنان أو أكثر، وأدعـب الرّجل، إذا أملح أي قال كلمة مليحة أو قولاً يستملح" (١) ، فالمداعبة تعني المـشاركة

---

(١) د. عبد العزيز شرف: الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر ،ط١، ١٩٩٢، ص٤٣.

في المزاح بين الضاحك وآخرين يشاركونه في الضحك، كما تعني الترويح عن النفس لأنها تخلو من الميول العدوانية التي تؤدي إلى الإيذاء وربما التجريح والإيلام النفسي، ويصفها هيجل بقوله: " الدعابة ميل العقل والقول إلى قول الحقائق بأسلوب مرح، وهي شيء موهوب وغير مكتسب)[٢] ، والأدب العباسي- شعره ونثره- حافل بهذا النوع من الفكاهات، مما روي في هذا النوع ما روي عن أسحق الموصلي، نديم الخلفاء وثـري من كبار الأثرياء في العصر العباسي وقد أولم ودعا بعض أصدقائه لتناول الطعام عنده، فأراد أن يداعبهم بذكر بعض أنواع الطعام، يبدو أنها غير محببة لتناولها- ويعرضها عليهم مداعباً ومازحاً فيقبلون بها أيضاً مداعبة وممازحة وهذه الأنواع تخلوا من اللحوم والفراريج المشوية، ويرضون بالكشك والعدس والزيتون، لقد اجتمعت الفكاهة من الموصلي بعرضه، ومن الأصدقاء بقبولهم وتحققت المداعبة وخلقت جواً من الضحك والسرور، أشاعته على مجلسهم فيقول ممتدحاً لهم:

نِعْمَ الصـديقُ لا يكلّفـنـي	ذبحُ الدجاج ولا شيٌّ الفراريجِ
يرضى بلونين من كشك ومن عدس	وأن تشـهىّ فزيتون بطسوج[٣] ،

ومما يروي في هذا الكتاب أيضاً تلك المحاكمة التي عقدها أبو يوسف القاضي في مجلس الخليفة الرشيد وزوجته زبيدة، اللذين احتكما له في بعض الحلوى (الفالوذج واللوزنبيج) أيهما أطيب، وقد كانا يرغبان في الضحك والفكاهة فأرادا أن يداعبا القاضي ويشيعا جواً من السرور والفرح على مجلسهما، وقد تحقق لهما وعقد أبو يوسف لهما محكمة وطلب مثول الحلوى أمامه ليحكم في أيهما أطيب وألذ فقال: " أنا لا

---

(١) القاموس المحيط واللسان: دَعَبَ.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار،ج٣، ص٢٣٢- ٢٣٣.

(٣) الطسوج: جزء من الدراهم يساوي ١/١٢ منه، اللسان: طَسَجَ.

أحكم على غائب، فأمر الرشيد بإحضارهما، فجعل أبو يوسف يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة أخرى حتى نصف جاميهما، ثم قال: ما رأيت خصمين أجدلُ منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أبى الآخر بحجته"(١).

إن موافقة القاضي على عقد تلك المحكمة، هي مجاراة للخليفة وزوجته واحتراما لرغبتهما في المداعبة والضحك، لم يستطع أن يحكم بين الصنفين لتساويهما في اللذة والطيب، والفكاهة في هذا الموقف تمثلت بتلك الأجواء التي أشاعها القاضي في مجلس الخليفة استوحاها من أجواء المحكمة الحقيقية حيث الشهود والقضاة رغبة منه في تناول الحلوى والاستمتاع بطعمها والتلذذ بمذاقها، ولإشاعة جو من الضحك والفرح والسرور للخليفة الرشيد وزوجته زبيدة.

٢- الحمق والغفلة والتغافل:

الغفلة والتغافل هو أن يظهر الإنسان نوعاً من الغباء ونقص في الذكاء والفطنة وفي اللسان: " المغفل هو الذي لا فطنة له"(٢) ، تختلف الغفلة عن التغافل، فالغفلة هي غباء ونقص في الذكاء وعدم الإدراك دونما هدف أو تعمد يقول ما يريد ويفعل ما يشاء، ولا يدرك ما هو عليه من غباء وحمق وسذاجة، يُضحكُ ، مَنْ حوله، ويشيعُ جواً من الفكاهة والضحك، دونما قصد، أو غاية عقدها في نفسه، لأن مَنْ حوله يدرك ما هو عليه من غفلة وغباء،أما التغافل فتتوفر فيه القصدية لأنه "يتعمد الغفلة"(٣) ، ويظهر نفسه وكأنه غبي ناقص في فطنته غير قادر على الإدراك والوعي وذلك ليحقق رغبته في نفسه، إما لتجنب مسؤوليةٍ أو خوف من عقاب قد يلحق به فيتعمد التغافل، ويُظهرُ

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر بيروت ١٩٧٨، ج٢، ص(٣١٤- ٣١٧).

(٢) اللسان: (غَفَلَ)

(٣) اللسان: (غَفَلَ)

نفسه غبياً أحمقاً قليل الذكاء ويُضحكُ مَنْ حوله، رغم عدم صدقه ويبذلُ جهداً لإشاعة جو مِن الفرح والسرور حوله وكأنه يصطنعُ الغباءَ اصطناعا ، والأدب العباسي ملئ بهما وأنشأ الكتاب والأدباء كتباً عن أخبارهم وقصص حمقهم وغبائهم ، الجاحظ أفرد لهم باباً في بعض كتبه روى فيه "أخبار المجانين والموسوسين والنوكى وأهل المرة"[1] ، ولأبن الجوزي كتاب مستقل يتحدث عنهم سماه كتاب (الحمقى والمغفلين) وقد صنفهم في طبقات وذكر نوادر كل طبقة.

ومنها نوادر القضاة ونوادر المعلمين ونوادر الأعراب ونوادر النحاة وغيرهم ونوادر هؤلاء جميعاً ترتكز على المغفلين من هذه الطبقات ومما يروى عنهم: " أنه حج أعرابي، فدخل مكة قبل الناس وتعلّق بأستار الكعبة وقال: اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس"[2] ، ومما يروي في هذا الباب أيضاً أنْ "قال بعضهم مررت بمعلمٍ للصبيان يضربونه وينتفون لحيته، فتقدمتُ لأخلّصه فمنعني وقال: دعهم بيني وبينهم شرط أن سبقتهم إلى الكتاب ضربتهم، وأن سبقوني ضربوني، واليوم غلبني النوم فتأخرت ولكن وحياتك إلا بكرت غداً من نصف الليل وتنتظر فعلي بهم، فالتفت إليه صبي وقال: أنا أبات الليلة هاهنا حتى تجئ وأصفعك"[3]، ومن نوادرهم أيضا ما روي عن ابن الجصاص. أحد كبار المغفلين وأعيان التجار كان يجالس الخلفاء والوزراء فتصدرُ عنه حماقات لا تخطرُ على بال وشاع أمره بين الناس، وقيل أنه كان يتظاهر بالتغافل لتسلم

---

(١) الممسوس: الذي به مس من الجنون إذا تخبط / اللسان(مسس)

(٢) ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين/ تحقيق د. عزيز، فوال بابيتي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٤، ص١٢٣.

(٣) المرجع السابق: ص١٥٩.

أمواله من المصادرات، ومن أدعيته أيضاً قوله: اللهم أغفر لي من ذنوبي ما تعلم ولا تعلم"[1] .

٣- الرد بالمثل.

الرد بالمثل أحد ألوان الفكاهة في العصر العباسي يقع في الكلام عندما يأتي شخص ويستهزئ من شخص أخر ويقصدُ الاستهزاء به فيرد عليه الشخص المخاطب رداً مماثلاً بل أكثر استهزاءً مثيراً للضحك لذا فأنه يحتاج إلى ذكاء وسرعة بديهة ماهر في مراعاة النظير واختيار الرد المجانس للكلام الذي سمعه [2] ، وما يثير الضحك في هذا النوع من الفكاهة تلك الإجابة المفاجئة المجانسة لكلام الآخر ، ومما يروي في هذا الباب ما قاله أبو حنيفة[3] للأعمش، وقد أتاه عائداً في صرخة لولا أن أثقل عليك أبا محمد لعدتك في كل يوم مرتين!! فقال له الأعمش: والله يا أبن أخي والله انك لتثقل عليّ وأنت في بيتك، فكيف لو جئتني في كل يوم مرتين ؟!!"[4]، ومما يروى أيضاً "أن نصر بن سيار قال لأعرابي يوماً : هل أصابتك تخمة ؟ قال: أما من طعامك وطعام أبيك فلا!!"[5]، ويروى أيضاً أن رجلاً قد شهد عند سوار فقال له : ما صناعتك؟ قال : أنا مؤدب ، قال : فإنا لا نجيز شهادتك.قال: ولِمَ؟ قال : لأنك تأخذ على تعليم القران أجراً ، قال: وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً. قال: أُكرهتُ على القضاء. قال: يا هذا القضاء أكرهت عليه، فهل أكرهتَ على أخذ الرزق؟ ، قال هلم شهادتك

---

(١) الكتبي: فوات الوفيات ج١، ص(٣٧٢- ٣٧٥).

(٢) احمد الحوفي : الفكاهة في الأدب العربي، ص١٦٦.

(٣) أبو حنيفة : أحد الأئمة الأربعة : النعمان بن ثابت (ت١٥٠هـ)

(٤) أبن عاصم: حدائق الأزهر، تحقيق د. عفيف عبد الرحمن، دار المسيرة بيروت، ١٩٨١،ص٥٢- ٥٣.

(٥) المرجع السابق: ص٥٧.

فأجازها"[1] ،الفكاهة في هذه الحكاية تقوم على الرد بالمثل لقد قاس الرجل على إجابة القاضي ورد عليه بمثل ما قال: إجابة لم يكن القاضي يتوقعها، بل وأحرجه وأسكته عندما قال له: وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً فإن رده في هذه الحالة يكون موضعاً للفكاهة والضحك والتندر.

٤- سرعة البديهة والتخلص الفكه.

سرعة البديهة والتخلص الفكه لا تقعان إلا بعد خطأ يقع فيه أحدُ الأفراد كأن يستهزئ هذا الفرد أو يسخر من صديق له لعيب ما فيه ، فإن كان هذا الصديق قد وُهِبَ ذكاء "وسرعة" في البديهة وقدرةٌ على الرد السريع، وان لا يقل هذا الرد قوة وبلاغة عن القول الذي وُجِهَ إليه، يكون هذا الفرد قد تخلّصَ من الإحراج الناجم عن الموقف المباغت الساخر الذي لم يكن يتوقعه، عندها يصبح هذا الرد موضعاً للفكاهة والضحك وربما السخرية أيضاً، ومن النوادر التي تقوم على هذا النوع ما جرى بين الخليفة هارون الرشيد وخادمه مسرور، والمضحك ابن المغازلي، ومما حُكِيَ أنَّ هارون الرشيد ، وفي ليلةٍ من الليالي قد أصيب بأرقٍ شديدٍ لم يستطع بعدها النوم، وضاقَ صدرُه فأخبره الخادم مسرور، وبعد أن سمعه يشكو هذا الأمر لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي عن مضحك شهده وقد تجمّع حوله الناس يضحكهم ببعض المضحكات، لكن الخادم مسرور وعندما ذهب لإحضاره اشترط عليه أن يكون له ثلثا ما يناله من الخليفة، كما اشترط عليه الخليفة، إنْ هو أضحكه أن يعطيه خمسمائة دينار، وأن لم يضحكه سيضربه بجراب فيه حجارة، ثلاث ضربات، قام ابن المغازلي بأفعال عجيبة تُضحك الجمود، فلم يضحك الرشيد وأمره بضربه ثلاث ضربات، فضربه الضربة

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتاب العربي بيروت مصور عن دار الكتاب المصرية ١٩٢٥، ج١، ص٦٩.

الأولى فصرخ صرخة عظيمة، وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور وأخبر الرشيد بهذا الشرط، ولذلك فهو يطلب أن ينال مسرور حصته من الضرب، فأمر الرشيد بضرب مسرور ضربتين " فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار، كلُ واحدٍ منهما خمسمائة دينار ورجع أبن ألمغازلي شاكراً"[1] ، لقد نجح ابن ألمغازلي في إضحاك الخليفة بفضل سرعة بديهته وقدرته على إيجاد المخرج الملائم، للوضع الحرج الذي وقع فيه عندما لم يتمكن من أضحاك الخليفة ، ونال عقابه من الخليفة بضربه بجراب فيه حجارة سببت له الألم والتوجع، هذا الموقف بكامله كان مدعاة للضحك والفكاهة.

٥- التهكم.

يقول صاحب اللسان: إن المتهكم هو المتقحم على مالا يعنيه، والذي يتعرض للناس بشره، وتهكم بنا: روى علينا وعَبِثَ بنا ، والتهكم: التكبر، وهو السبيل الذي لا يطاق، وتهكمت البئر: تهدمت، والتهكم: هو الاستهزاء والوقوع في القوم. والتهكم أحد ألوان السخرية وتتعدد أشكاله تبعاً لأسلوب التهكم ورغبته أيضاً، يرتكز التهكم على العيوب والبحث عنها لإبرازها وتضخيمها، ومن هذه العيوب ما يتعلق ببعض أعضاء الجسد، أو شكله، ومنها يتعلق بصفات قد يتصف بها الإنسان كالبخل أو الجبن أو الخوف وقد يتعدى ذلك ليصبح وسيلة نقد وتقويم وإصلاح فيمتد التهكم ليطال المجتمع أولاً والسياسة ثانياً.

يبحث عن بعض العيوب الاجتماعية ومواطن الخلل التي قد تؤثر على بنية المجتمع وبنية الدولة وتشكيلها السياسي، وكثيراً ما يختلط التهكم بالهجاء لقربهما من بعضهما، إلا أن التهكم لا يصدر عن نفس حاقدة ، بل " يصدر عن عواطف نبيلة تدعو

---

(١) الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ،مطبعة الاستقامة ،مصر ، ١٣٧٩هـ، دار الفكر، ج٢، ص٢٤٨.

إلى الفضائل والصلاح وتقويم الأخلاق وتهـذيبيها أي يبغـي إلـى ناحيـة تهذيبيـة وتوجيهية"[١] ، وهذا ما يفتقد إليه الهجاء لأنه لا يصدر إلا "عن عاطفة الغضب والحقد والبغض والأنانية التي تكشف عن مساوئ الفرد أو المجتمع وكشف بـشاعة الرذائـل والنقائض وأن كان في بعض جوانبه يهدف إلى الإصلاح والتهذيب والتقويم"[٢] ، وفي كتب الأدب التي أُلِفَتْ في العصر العباسي كثيراً من "الفكاهات المبنيـة علـى الـتهكم بالعيوب الجسدية والنفسية وترسم صوراً صادقة لفئات من المجتمع كما أنها تعبّر عـن أمزجة قائليها وتفكيرهم المتجسد في هذا اللون الأدبي السافر"[٣] ومما روي عن التهكم ببعض صفات الإنسان "الشخصية التي لا تساير المثل العليا للمجتمع كالبخل والجـبن والغرور وحب الظهور"[٤] ، ما قاله الرشيد للجمّاز كيف مائـدة محمـد بـن يحيـى البرمكي؟ قال: شبر في شبر، وصفحته من قشر الخشخاش، وبين الرغيف والرغيـف مضرب كرة ، وبين اللون واللون فترة نبي، قال: فمن يحْضُرُهَا؟ قال: الكرام الكاتبون فَضَحِكَ وقال لحَاَكَ الله من رجل"[٥] ، التهكم واضح في هذه النـادرة خاصـة عنـدما وصف الجمّاز مائدة محمد بن يحيى البرمكي، وقال إنها شبر فـي شـبر أي صـغيرة الحجم وغير ممتدة صحفها رديئة وخشنة وصغيرة الحجم وهذه تدل على أنَّ صـاحبها بخيل، ويضيف قائلاً أن المائدة قليلة الأرغفة ولقلتها فأنه يباعد فيما بينها، ويزيده تهكماً

---

(١) د. قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المـسيرة بيـروت ١٩٨٨، ص١٤.

(٢) أنظر المرجع السابق: ص١٣.

(٣) د. رياض فريحة: الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي، المكتبة العـصرية بيـروت- لبنـان ١٩٩٨،ط١،ص٢٨٤.

(٤) د. احمد الحوفي: الفكاهة في الأدب، ص٢١٩.

(٥) أبو حيان التوحيدي: الإقناع والمؤانسة ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١، ١٩٩٧، ص١٩٨.

مما يزيد في تهكمه أنه عندما يعلم أن الذين يحضرون على المائدة هم الملائكة وليس البشر لأنهم لا يأكلون ولا يشربون، وهنا مكمن الفكاهة والضحك، لأنه جعل الأكلون ليس بشراً ، بل جعلهم من الملائكة لأنه لا يريد لطعامه أن يؤكل ، لأنه ولشدة بخله يستمتع بمنظر الطعام على المائدة دون أن يكون حوله بشر يأكلون.

وظاهرة التهكم بالذات إحدى أهم أنواع التهكم وأشدها إضحاكاً لما تحويه وتعبر عنه من عبث بالذات وتشويه لكثير من قيمها التي تخلخلت واضطربت، "أن الشخص الذي يتندر بنفسه شخص فكه، لبق خفيف الروح سريع البديهة، يتفكه بنفسه تنفيساً عن غيظ مكتوم أو صدى لاستهزائه بالأحداث التي مرت به ، ويصبح التندر ضرباً من التعالي على كوارث الدهر ومفارقاته"[1] أو "لينجو من مأزق أو ملامة أو عقوبة"[2] ، ومن ذلك ما رُوِيَ عن المهدى عندما دخل عليه أبو دلامة وعنده جماعة من الأشراف ومن بني هاشم والوزير محمد بن الجهْم، فقال المهدي لأبي دلامة: والله لا تبرح مكانك حتى تنجو واحداً ممن هنا وإلا قطعت لسانك أو ضربت عنقك. فنظر إليه القوم، وكلما نظر إلى واحد منهم غمزه، بأن علّى رضاك قال أبو دلامة: فعلمتُ أني وقعت، ولم أر أحداً أحقُّ بالهجاء منى، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي.

فقلت:

ألا أبلغ لديك أبا دلامة	فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لبس العمامة كان قرداً	وخنزيراً إذا نزع العمامة
وإن لبس العمامة كان فيها	كثورٍ لا تفارقه الكمامة
جمعتُ دمامة وجمعت لؤما	كذاك اللؤم تتبعه الدمامة

---

(١) د. احمد الحوفي الفكاهة في الأدب، ص٢٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٤.

فإن تـك قـد أصبت نـعيم دنيـا   فـلا تـفـرح فقـد دنـت القيامـة

فضحك القوم ولم يبق أحد منهم إلا أجازه"[١] ، لقد تهكم الشاعر بنفسه لـيخلّص نفسه من المأزق الحرِج الذي وضعه فيه الخليفة المهدي، وهجا نفسه بأقبح ما يمكن أن يوصف به وهو الخنزير والقرد والثور، وساعفته على ذلك روحـه المرحـة وميلـه للفكاهة والضحك.

ولعل التهكم ببعض الصفات والعيوب الخلقية أحدى المعاني والـدلالات التـي عبرت عنها الفكاهة العباسية: كصفة القصر المفرط أو اللحى الطويلة وقد عبر الجاحظ عن هذا النوع من التهكم برسالته التي أسماها التربيع والتدوير، والتي تعـد " أرقـى نماذج الفكاهة القائمة على التهكم، وأوسعها وأغناها بـأنواع الفكاهـة الـساخرة"[٢] ، الرسالة قائمة على هجاء شخص أسمه أحمد بن عبد الوهاب، لا هو بالطويل المفـرط الطول كما يدعي بل "هو مفرط بالقصر مربع وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدوراً"[٣] ، لقد شوّه هذا الرجل ومسخ شكله الخارجي ولتحقيق هـذا الأمـر اسـتخدم أسلوب التهكم كأداة فعالة أعانته على رسم صورة قبيحة لشخص محمد بن عبد الوهاب لم يقف التهكم عند هذا الحد بل تعداه إلى التهكم بثقافته وعلمه والسخرية منهما، كمـا وصفه بالجهل وعدم المعرفة، ووجه إليه مئة سؤال عجز عن الإجابة علـى أي منهـا وذلك ليعرّيه " وليعرّف الناس مقدار جهله"[٤] ،وادعائه بالعلم.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣،ص٣٣١،ونهاية الأدب ج٤،ص٤٣.

(٢) د. رياض فريحة: الفكاهة والضحك في التراث العربي، ص٢٩٦.

(٣) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير/ تحقيق فوزي عطوي الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ، بيـروت لا.ت مجلد واحد، ص٣.

(٤) المصدر السابق.

اللعب بالألفاظ: واللعب بالمعاني والحذلقة:

اللعب بالألفاظ أحد أنواع الفكاهة في العصر العباسي تقوم على تغيير بعض الحروف في اللفظ الواحد واستبداله بحروف أخرى، مما يشكل له معنى مغايراً للمعنى الحقيقي الذي وُضِعَ له "معتمداً في ذلك على الاشتراك المعنوي في اللفظ الواحد أو على الجناس أو الطباق بين اللفظ الذي سمعه واللفظ الذي ينطق به "[1] ، وكثيراً ما يصاحب هذا الأمر دهشة واستغراباً لدى السامع الذي لم يكن يتوقع سماع مثل هذا المعنى في صياغته الجديدة، مما يولّد لديه إحساساً قوياً بالضحك، وليس للتلاعب اللفظي أهدافاً محددة عدا الرغبة في التفكه والتندر وإثارة الضحك، بل هو جهد ضائع لأن "اللغة لم تستطع التعبير ولأن السامع لم يحسن الاستمتاع والفهم، ونتيجة لهذا التصلب أو ذاك فإننا نجد أنفسنا أمام باعث قوي من بواعث التندر والتفكه"[2] ، أما التلاعب بالمعاني فهو أحد أساليب البلاغة التي استخدمت للتعبير عن الفكاهة العربية في العصر العباسي، والتورية والكناية والتعريض من بين تلك الأساليب أيضاً يختار الأشخاص الفكهين أي من تلك الأساليب، ليصل إلى غرضه في مفاجأة السامع وربما خداعه لإضحاك نفسه (المتكلم)، وإضحاك الآخرين فالتورية تستخدم للتعبير "عن فكرتين منفصلتين إحداهما قريبة بالبال لكنها غير مرادة، والأخرى بعيدة عن البال لكنها هي المرادة"[3] ، مما يضحك أن السامع قد توهم أن المعنى القريب هو المراد" جرياً وراء سياق العبارة [4] ، في حين أن الشخص المتكلم كان يرمي إلى المعنى البعيد الغائب عن البال، مما يوقع السامع بذهول نتيجة توهّمه وعدم تدقيقه فيما يسمع ، فوصل إلى ما وصل

---

(١) د. احمد الحوفي: الفكاهة في الأدب العربي، ص٦٤.

(٢) المرجع السابق ،ص٨١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق، ص٨١.

إليه من إرباك وذهول وتفاجئ، وهذا هو موضع الفكاهة والضحك "ويكثُر هذا إذا كانت الفكرتان متعارضتين"[١] تناقض إحداهما الأخرى لأن "الكلمة المنطوقة تؤدي معنيـين، أحدهما يراد بها صوتها والأخرى يراد بها صوتها ومعناها"[٢] ، ومن الأمثلـة علـى التورية أنه " وقف أعرابي على قوم يسألهم فقال للأول: ما أسمك؟ قال : مانع، وقـال للثاني ما أسمك؟، قال محرز، وقال للثالث : ما أسمك؟، قال حافظ، قال قبّحكم الله ، ما أظن الأقفال إلا من أسمائكم"[٣].

ما يضحك في هذه النادرة أن الأشخاص الثلاثة لم يقصدوا المعنى البعيد الـذي فهمه الأعرابي وأراده من أسمائهم التي توحي بوسائل الحفظ والحماية (مانع، محـرز، حافظ) ، وهذا ما جعله يفكر بالقفل والذي هو وسيلة حماية تـستخدم لحفـظ الأمـوال والبيوت من السرقة. أما الكناية فهي "التعبير بجملة يراد من ورائها المعنـى المـرتبط بمعناها الأصلي"[٤] ، ومثال ذلك : "أنه قدم رجل من فارس على صاحب له ، فـسأله صاحبه: قد كنت عند الأمير كأني شيء ولا ك؟!!، قال له : ولاني قفاه!!"[٥]، فموضـع الفكاهة في قوله ولاني قفاه، كناية عن أن الأمير قد أعرض عنه وأدار له ظهره ولـم يوله شيئاً وعاد خائباً.

ومما يروى أيضاً عن الكناية أنه سرق رجل حماراً وذهب ليبيعه في الـسوق، فسرق منه، فلما عاد قيل له: بكم بعت حمارك؟!!، فقال : بـرأس المـال"[٦] ، فقولـه

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أبو حيان التوحيدي،: الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص١٩٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) د. احمد الحوفي: الفكاهة والضحك في الأدب العربي، ص٧٤.

(٥) الجاحظ: البيان والتبين، ج٤، ص٦.

(٦) الأصبهاني: محاضرات الأدباء ج٢، ص١١١.

وبرأس المال، هو ما يضحك ، لأنه أراد أنه مثلما سرقهُ سُرِقَ منه، كناية عن سرقته له قال بأنه باعه بمثل ما اشتراه أي بلا شيء.

والتعريض : أحد الأساليب البلاغية التي استخدمت في الفكاهة في العصر العباسي، وتعني "أن ينطق المتكلم بكلام لا يريد به معناه الأصلي، وإنما يشير به إلى معنى بعيد يفهمه السامع، وليس بين المعنيين أية قرينة" ، فيما يروي في هذا الباب، " قال الأصمعي: ضفت أعرابياً فلما أكلنا ،قلت: يا جارية أطعمينا تيناً، فنسيتُه، فقلت للأعرابي بعد ساعة أتحسن شيئاً من القرآن؟ قال: نعم، فقلت : إقرأ فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم " والزيتون وطور سنين". فقلت : وأين التين؟ قال: نسيته أنت وجاريتك"[1] ، فالأعرابي أراد التين الذي نسيته الجارية والأصمعي أراد اللفظة (التين) التي في أول السورة.

---

(١) الاصبهاني: المرجع السابق، ص٣٩٣.

الفصل الثاني

الفكاهةُ والسخريةُ في القرنيين الرابع والخامس الهجريين من خلال الكتب المؤلفة

الفصل الثاني

١- دراسة عامة لأحوال العصر.

٢- دراسة الكُدية من خلال كتاب المقامات لبديع الزمان الهمذاني.

دراسة التطفيل من خلال الكتب المؤلفة.

٣- دراسة بعض كتب ابن الجوزي

أ- كتاب أخبار الأذكياء.

ب- كتاب الحمقى والمغفلين.

ج- كتاب الظراف والتماجين.

دراسة عامة لأحوال العصر:

شهدت الدولة العباسية حالة من الاضطراب، والفوضى السياسية نتيجة للسياسة الخاطئة التي اتبعها الخلفاء منذ قيام دولتهم، وحتى سقوطها سنة ٦٥٦هـ، تلك السياسة التي تمثلت باستعانة الخلفاء بغير العرب من الروم والفرس والديلم وغيرهم من الشعوب التي انضوت تحت لواء الدولة العباسية، والاعتماد عليهم في إدارة شؤون الحكم، وازدياد نفوذهم وتغلغلهم حتى أصبحوا يشكلون خطراً على الدولة، وما كان لهذا النفوذ أن يبلغ مداه، إلا بعد أن فسدت عصبية العباسيين، وضاعت هيبتهم ولم يتبقَّ "للخليفة من شارات الخلافة سوى الزعامة الدينية[١].

ويصف ابن الأثير حال الخلافة في ذلك العصر فيقول: "وازداد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبقَ لهم من الأمر شيءٌ البتة"[٢]، وأصبحت الخلافة صورية (شكلية) جميع سلطات الخلافة بأيدي الأعاجم، ووصل الأمر بأحد الخلفاء "أنه خرج لاستقبال أحد الأمراء من آل بويه عند قدومه إلى بغداد، ولم يكن هذا معروفاً فيما سبق"[٣]، وبلغ الضعف مداه، وامتدَّ ليشمل معظم أرجائها.

"عاش سوس الفساد في ذاك الجسم العظيم الذهبي، وتناثر عِقدُ البلاد العربية الإسلامية، وانتقصت من أطرافها، والأهواء مشتتة والنفوس شعاع متطاير في كبد السماء"[٤]، وانقسمت الدولة وتفتت جسدها، إلى دويلات وإمارات صغيرة يحكمها أمراء وولاة، انفردوا

---

(١) كارل بردكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ص٢٤٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص٥١٤.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج١٤، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٤) أبو حيان التوحيدي: رسائل أبي حيان التوحيدي، إبراهيم زيد الكيلاني، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق (د. ت)، ص ١٩-٢١. وأنظر محمد كرد علي: أمراء البيان، دار الأمانة، ط٣، بيروت ١٩٦٩م، ص٤٥٥.

في حكم ولاياتهم، وإماراتهم، واستقلوا عن الدولة – مركز الخلافة – لكنهم ظلوا "يعترفون بالسيادة للدولة ويقدّمون للخلفاء الدعاء في المساجد، ويرسلون إليهم الهدايا"(١).

كما ساهمت هذه الأوضاع، في خلخلة النظام الاجتماعي، والاقتصادي وساد في المجتمع العباسي، نظام إقطاعي سيء، الغلبة فيه لطبقة الخلفاء والأمراء، ومَن يتحلق حولهم من وزراء وقواد، وأصبح هؤلاء هم الطبقة الخاصة، التي تمتلك مقدرات الدولة في بغداد، وكانت ترد على خزينة الدولة في بغداد إيرادات ضخمة، حتى أنها كانت في إحدى السنين "سبعين مليوناً ومائة وخمسين ألف دينار"(٢).

وأخذ الخلفاء ينفقون الأموال، ويوزعونها كيفما يشاءون، يوفرون لأنفسهم حياة هانئة مليئة بالبذخ، والترف، واللهو، ويبنون القصور، ويقيمون الحدائق الجميلة، ويجلبون لأنفسهم ما لذّ وطاب من متاع ووسائل لهو وترويح عن النفس، أما الطبقة الأخرى فهي الطبقة العامة، التي تُمثل الأغلبية الساحقة في المجتمع أبناءها يرزحون تحت نير الفقر والجوع والعوز، واليأس الذي يملأ نفوسهم من دعوات الإصلاح التي كانوا يطلقونها على مسامع الخلفاء ورجالهم ولا يجدون آذاناً صاغية، "لأن الخلفاء ورجالهم مشغولون في عقد مجالس الغناء"(٣)، والطرب والشراب دون أيّ اهتمام، أو اكتراث بشؤون الأمة، حتى تباعدت بينهما المسافات، وعظمت الهوة فيما بين الطبقتين، وشاعت بين أبناء هذه الطبقة الرذيلة، واللصوصية، وقطع الطرق، واضطربت موازين القيم الاجتماعية والأخلاقية، وتبدلت أمام حاجتهم، وفقرهم، ويحثهم الدائم عمّا يقيمون به أودهم، وأصبح المال وجمعه، هدفاً يسعون لتحقيقه لا يهمهم إن كانت سبل جمعه مشروعة أم غير مشروعة، وهذا ما جعل بعضهم يمتهن بعض الحرفِ الحقيرةِ، كحرفة الكُدية، وسؤال الناس أعطوه أم منعوه، كما تطفل بعضهم على موائد الطعام عند الأغنياء، ليأكلوا فتات موائدهم.

---

(١) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن ٤هـ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة الخنجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٩٦٧م، ج١، ص٢٠.

(٢) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، طبع القاهرة، مصطفى محمد، بدون تاريخ، ص١٥١.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ج٤، ص٢٢٠-٢٢١.

وهذا ما يُفسر كثرة الثورات، وحركات التمرد، كثورتي الزنج، والقرامطة، وغيرهما، ونتيجة لكل هذا، ظهرت نزعة التكالب على المال، وجمعه فالمال هو الشيء المشترك الذي تبحث عنه هذه الطبقات، وخاصة طبقة التجار، التي برزت في هذا العصر، وقد لعبت دوراً هاماً في الحياة السياسية، "فحين كانت مصالحهم تصطدم بالخليفة كانوا إما أن يدفعوا مقداراً من المال، دفعاً للمصير الذي ينتظرهم، أو أن تُعرّض أموالهم للمصادرة"(١).

وهذا ما أدى ببعض العرب إلى الاقتتال ومحاربة العباسيين، ومجابهتهم، لانتزاع حقوقهم المسلوبة عُنوةً، كما ظهرت بعض الأصوات التي تحضُ العباسيين على اصطناع العرب، والاعتماد عليهم، فهذا أبو خالد يزيد بن المهبلي يفيض غضباً في هجاء الأتراك، فيقول معاتباً، وحاضّاً على التنبه والحذر حيث يقول:

لما اعتقدتم أُناساً لاحِفاظَ لهم	ضعتم وضيعتم مَنْ كان يعتقدُ
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكُم	حمتكم الذادة المنسوبة الحشدُ
قومٌ هم الأصل والأسماءِ تجمعكم	والدينُ والمجدُ والأرحامُ والبلدُ
أنَّ العبيد إذا أذللتم صَلُحوا	على الهوانِ وإن أكرمتهم فسدوا"(٢)

أما الحياة الفكرية والأدبية فلم تتأثر بضعف الإرادة السياسية للخلافة العباسية، بل شهدت إزهاراً، وتطوراً كبيراً لعدة أسباب لعل من أهمها:

١- تشجيع الخلفاء والأمراء والولاة للدراسات، والنشاطات العلمية، والأدبية، والفكرية في بغداد، وغيرها من مدن الحاضرة العباسية، واحتضانهم للعلماء، والفلاسفة، والمفكرين وإغداق الأموال عليهم، وتشجيعهم الدائم لحركة الترجمة والبحث والدراسة.

٢- ازدهار حلقات العلم، ومجالس الأدب، ومجالس الشراب والطرب وما يدور فيها من غناء وطرب وشرب، وخاصة تلك التي كانت تُعقد في قصور الخلفاء، والأمراء

---

(١) الحصري: زهر الأدب، ج١، طبعة البابي الحلبي، ص٢٨.

(٢) عبد الحكيم بلبع: أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٣، ص٩٤.

والوزراء، سواءً أكانت في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كحلقة الوزير المهبلي، وحلقة الوزير ابن سعدان، وحلقة سيف الدولة الحمداني في حلب، وحلقات ابن العميد، وعضد الدولة البويهي، والصاحب بن عباد في كل من أصفهان، والري وشيراز، وقد ضمت هذه الحلقات أهم الأدباء والشعراء في هذا العصر، وبرزت أهمية المنادمة، وحاجة الخلفاء لمن ينادمهم، ويسامرهم وقد "كان لكل خليفة ندماؤه من العلماء والمنجمين، ومن يوردون النوادر، والفكاهات، ومن يعرفون كيف يرضونه في ساعات صفوه"[1].

هذا هو الإطار العام للعصر العباسي الثاني، الذي انشغل أهله بالتناحر والتنافس العرقي والمذهبي، فالشعوب التي دخلت في الدين الإسلامي، وأصبحت تُشكل جزءً من المجتمع العباسي، لم تكن على وفاق مع بعضها، ولا مع العرب أيضاً، وما الشعوبية إلا إحدى أوْجُهِ هذا التناحر، الفرص يبغضون العرب، وينظرون إليهم نظرة ازدراء، واحتقار، وكذلك العرب كانوا يبادلونهم نظرات الحقد والكراهية.

مما أفسح المجال أمام أدب الفكاهة والسخرية لأن ينمو، ويتطور ويصبح أداةً فعالة، غايتها تعليم الأفراد، وتثقيفهم، ونقل بعض الجوانب السلبية السائدة في المجتمع العباسي، وتصويرها بأسلوب تهكمي ساخر، ونقدها نقداً لاذعاً، وانبرى عدد من الأدباء لتصوير بعض هذه الجوانب، ومنها ظاهرتي الفقر والجوع اللتين أصابتا بعض فئات المجتمع، واتخذت من الاستجداء والكدية والتطفل طرقاً للحصول على المال والطعام، وقد دونت كتب الأدب أخبار هؤلاء وقصصهم، وأصبحت نواة لأدب جديد هو أدب المقامات، خاصة مقامات بديع الزمان الهمذاني "٣٥٨هـ - ٣٩٨هـ"[2]، التي تصورّ قصص المكدين والمتطفلين الذين يتحايلون بالخداع والمكر والحيلة من أجل الحصول على المال والطعام، وجعل أبو الفتح الأسكندري

---

(1) **د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧٣، ص٧٦.**

(2) بديع الزمان الهمذاني هو أبو الفضل احمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد، وُلِدَ في همذان سنة "٣٥٨هـ" ولُقِبَ ببديع الزمان لذكائه وتقدّمه في الشعر والنثر، وتوفي سنة ٣٩٨هـ.

بطلاً لهذه المقامات، وعيسى بن هشام راوية لها. تُروى بقالب فكاهي ممتع، وتكشف عن براعة في اختيار الألفاظ الرشيقة، والمفردات الغريبة، وتبين قدرته على استخدام بعض الأساليب البلاغية من طباق وجناس ومقابلة وموازنة، والسجع أهم محسن بديعي نجده في المقامات.

والكدية والاستجداء ألفاظ أُطلقت على جماعة من عامة الشعب، ممن سحقها الفقر والجوع، والبطالة، وأجبرها على الخروج صوب الأغنياء، وعامة الشعب للاستجداء والكُدية، والاحتيال عليهم للحصول على المال، ونهبه من جيوب الأغنياء ولو عُنوة، وقد تفنن هؤلاء – المدين – بابتكار الأساليب التي يحتالون بها على الأغنياء وبأمور تعجر العقول عن ضبطها"[1]، وقد تطورت الكدية وأصبحت "حرفة أو صناعة، وصار للاستجداء أساليبه، وللكدية شروطها"[2]، وقد تفرعت عنها طوائف مختلفة "فكان منهم المقلدون، الذين يقفون في الشوارع والساحات، ويقلدون لغات الناس، ولهجات بعض الأقوام من أكراد وقرط، وزنج وسند وترك"[3]، وكثُرت القصص والنوادر التي تروي لنا حكايات احتيالهم، والمقامة فن أدبي مبتدع تعود جذوره للجاحظ الذي كتب عن خالد بن يزيد المكدي أو خالويه المُكدي، بعض النوادر والحكايات في كتابه البخلاء، وبهذا يكون الجاحظ "قد مهد لفن قصصي فريد من نوعه هو فن المقامات"[4]، غير أنَّ الهمذاني هو المخترع الحقيقي لهذا الفن ويعدُّها "نكتة أدبية ظريفة، أو نادرة لطيفة، أو إشارة لفظية خفيفة"[5].

تختلف الموضوعات في المقامات فمنها الأدبي والفكاهي واللغوي، والاجتماعي، وكلها تهدف إلى الفكاهة والإمتاع، أما تسمية المقامة، فقد وضعها بديع الزمان الهمذاني نفسه، فكان

---

(1) د. عبد الكريم اليافي: دراسات فنية في الأدب العربي مكتبة لبنان ناشرون بيروت، ط1، 1996، ص390.

(2) د. رياض قزيحة: الفكاهة والضحك، التراث العربي المشرقي، ص203.

(3) المسعودي: مروج الذهب، دار الأندلس، بيروت، 1983، ج4، ص163-166.

(4) د. فاروق سعد: مع بخلاء الجاحظ، دراسة تحليلية مقارنة، منشورات دار الآفاق الجديدة.

(5) بديع الزمان الهمذاني: المقامات تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، مج1.

يسميها باسم المجلس الذي وقعت أحداثها فيه، كالمقامة البغدادية والمقامة الدمشقية، وقد يسميها باسم الطرفة أو المُلحة التي ينطوي عليها الموضوع كالمقامة الحرزية والمقامة الدينارية، والأبليبسية والمضرية وغير ذلك.

أما عناصر المقامة التي تتشكل منها فهي:

١- **الموضوع:** وهو المُلحة، أو الحكاية التي تُنسج حولها المقامة.

٢- **البطل في المقامة:** أحد أهم عناصرها، تدور حوله القصة أو الحكاية، لا يخرج منها إلا وهو منتصراً، وقد حقق هدفه وغايته، يتصف بالذكاء الحاد، وقوة الملاحظة، ويتمتع بثقافة واسعة، وخاصة علوم اللغة العربية.

٣- **الرواية:** وهو الذي ينقل الأحداث عن المجلس الذي جرت فيه، الرواية في المقامات هو عيسى بن هشام حيث يبدأ مقاماته بقوله، وحدثنا عيسى بن هشام، أما بطله فهو أبو الفتح الاسكندري، مكدي يشبه الصعاليك فكل ما اجتمع لديه من صفات يؤهله لأن يكون مكدياً، فهو ذلق اللسان، قادر على تلفيق الحكايات، والقصص، وعلى استدرار عطف المستضعفين، بما يمتلك من ذكاءٍ وفطنةٍ وقدرة على إظهار نفسه مسكيناً فمما يُروى عنه في هذا المقام، المقامة الجرجانية والتي تتمحور حول الكُدية عن طريق الاستعطاف، والتي تدور أحداثها وكما هو واضحٌ من اسمها في جرجان.

والتي تدور أحداثها وكما هو واضح من اسمها في جرجان، وقد جاء يستعطفُ ويستجدي، غايته الحصول على المال، ويشكو لأهلها الفقرَ والحاجةَ وكثرة الأسفار، في البعد الأولاد والأهل.

ركز بديع الزمان الهمذاني وكما هو في كل مقاماته على الشخصيةِ دون الحدث، ليكشف عن جوانب هذه الشخصية وأبعادها الذاتية والاجتماعية ولتحقيق هذه الغاية فإننا نجده يكثر من استخدام العبارات والألفاظ الدالة على الفقر والعوز والحاجة، وهذا ما يدعوه للتكرار والإطالة والسجع، ليبث نغمة حزينة قد تؤثر في نفس مَنْ يستعطفه ويبث في نفسه مشاعر الشفقة والحزن، فيعطيه المال بل ويجزل له العطاء، وهذا ما يريده، نراه في هذه المقامة يكثر

من العبارات، والألفاظ الدالة على الكديه ليعبر عن حاله، وما أصابه من بؤس وفقر وحاجة، حتى شكله وهيئته، لا يتوانى عن اتخاذهما وسائل للاستجداء والطلب ولذا فإننا نراه في هـذه المقامة، يصوّر نفسه صورة بائسة كدّها التعب وكُثْرُ الترحالِ، حيث يقول: "إنّ الدهرَ يا قـومُ قلب لي من بينهم ظهر المجنّ، فاعتضتُ بالنَّومِ السَّهَر وبالإقامة السفر، تترامى بي المرامي، وتتهادى بي الموانئ، وقلعتني حوادث الزمن قَلعَ الصمغةِ، فأُصبحُ وأُمسي أنقى من الرَّاحـةِ وأعرى من صفحة الوليد، وأصبحت فارغ الغِناء، صِفَر الإناء مالي إلا كآبة الأسفار، ومعاقرةُ السُّفَارِ أعاني الفقر وأماني القفر، فراشي المدر ووسادي الحجرُ"[1]، حتى أطفاله يجعل مـنهم وسيلة يستجدي بهم الأغنياء للحصول على المال، فيصف أحوالهم البائسة، وما هم عليه مـن فقر وجوع وحرمان، ويشبّه أحد أطفاله بالزغلول "الذي يشبه في جماله وحسنه الدملج النفيس، لكنه ولتغيبه عنه، منصدع القلب مكسور الفؤاد، لا يجد من يرعاه، ويحنو عليـه، ويحوطـه بالعناية وطول النظر في شؤونه وتفقّد أحواله"[2].

لا شك أن بديع الزمان الهمذاني وكما ذكرت سابقاً يـشير إلـى تـردّي الأوضـاع الاقتصادية والاجتماعية، يحاول ومن خلال المقامات أن يعبّر عن الضعفاء غير المسموعين، الذين قهرتهم الحياة وتغلّبت عليهم بنوائبها، "فهو يسجع ويتنكر ويتصور التعثر ثم يتغلب عليه، يتحسس الطريق تحسس الخائف، ثم يفاجئك بأنه واثق"[3].

أما التطفّل فهو أن " يدخل الرجل الوليمة والمآدب وإن لم يـدعَ إليهـا، فهـو طفيلي،وقالوا:طفّل ورجل طفيلي، وهو منسوب إلى طفيلي الأعراس، وهو رجل يـأتي الولائم، دون أن يُدعى إليها والعرب تسمّي الطفيلـي: الـراش والـوارش، والواغـل

---

(1) بديع الزمان الهمذاني: شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميـد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، المقامة الجرجانية، ص٥٧-٥٨.

(2) **المرجع السابق، ص٥٩.**

(3) **د. مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة ٢١٨، المجلـس الـوطني للثقافـة والفنون والآداب، الكويت، فبراير – شباط ١٩٩٧، ص٢١٥.**

وقالوا: الواغل في الشراب والوارش في الطعام"[1] والتطفّل أو التطفيل من الظواهر الاجتماعية السلبية التي تكشف عن وجه مظلم للمجتمع، ارتبطت بتلك التطورات التي شهدتها الدولة العباسية، وانعكست آثارها على مختلف نواحي الحياة، وخاصة الاجتماعية منها والاقتصادية، " وكان لبروز طبقة التجّار الأثرياء التي تحب المال وتحرص على جمعه اثّر بالغٌ في نشوءِ ما يسمّى بالتفاوت الطبقي"[2] .

أما الأدب الذي قام حولهم، فزاخر بألوان الفكاهة التي تتضمن بعض الصور الهزلية لأشكال الناس وسلوكاتهم، وتصرفاتهم، التي لا تهتمُّ إلا بالأكل، وجمع المال لتسخر منها.

كما نجد أنَّ أخبارهم منثورةٌ في بعض كتب الأدب، ومن بينها كتاب يتيمة الدهر للثعالبي "أبو منصور عبد الملك محمد بن اسماعيل النيسابوري، ٣٥٠هـ-٤٢٩هـ"، أورد أخبارهم ونوادر تطفلهم، كما ألف الخطيب البغدادي "أحمد بن علي ت ٤٣٦هـ، كتاباً خاصاً بهم وبأخبارهم، ونوادرهم كما نجد لهم حضوراً في كتاب الأذكياء لابن الجوزي ٥٠٨هـ-٥٩٧هـ، إذ خصص لهم أحد أبواب كتابه وهو الفصل الثامن والعشرون وهو "في ذكر طُرف من فِطن المتطفلين، تتضمن طرفه بعض الأساليب التي يحتالون بها، لدخول الأعراس، ومن الأمثلة عليها النادرة التالية:

"قال محمد بن علي الجلاّب: جاء طفيلي إلى عُرس فمُنع من الدخول وكان يعلم أنَّ أخاً للعروس غائبٌ، فذهب، فأخذ ورقة قاعد، فطواها وختمها، وليس في بطنها شيء، وجعل في ظاهِرها: من الأخ إلى العروس، وجاء فقال: معي كتاب من أخي العروس فأُذِنَ له فدخل فدفع إليهم الكتاب، فقالوا: ما رأينا مثل هذا العنوان ليس عليه اسم احد، فقال: وأعجبُ من هذا

(١) ابن المنظور: اللسان، مادة طَفَلَ

(٢) د. رياض قزيحة: الفكاهة والضحك، ص ٣١٥

أنه ليس في بطن الكتاب ولا حرفٌ واحدٌ لأنه كان مستعجلاً، فضحكوا منه وعرفوا أنه احتال لدخوله فقبلوه"[١].

لقد تحايل هذا الطفيلي بأسلوب ضاحك، وطريف، واستطاع الدخول إلى العرس، وعندما سُئل عما فعل، أجاب إجابة تُضحك فقد شبّه الكتاب بنفسه، وأن الكتاب جائع، مثله، لم يدخل في بطنه أي شيء من الطعام، مما أضحك أصحاب العرس وسمحوا له بالدخول، تركز معظم النوادر التي تمثل هذا النوع على الشخصية والحدثِ معاً، تصف هيئتهُ وشكله الخارجي كما تصف معالم وجهه كيف يزبد ويُرغي وتجحظُ عيناهُ وربما يفقدُ عقله أثناء تناوله الطعام، وأعتقد أن مثل هذا النوع من النوادر يتناسب مع موضوع التطفل فهي تنقل مشاهد يومية أو لقطاتٍ حية من حياة المتطفل الذي يتحايل بكافة الأساليب ليصل إلى الطعام.

وفيما يُذكر أنَّ طفيل العرائس الذي يُنسبُ إليه الطفيليون، أوصى ابنه في علته التي مات فيها فيقول له: "إذا دخلت عرساً، فلا تلتفت تلفّت المريب، تخيّر المجالس، فإن كان العُرس كثير الزحام، فأمُرْ وانْه، ولا تنظر في عيون أهل المرأة، ولا في عيون أهل الرجل، ليظنَّ هؤلاء أنك من هؤلاء، فإن كان البوّابُ غليظاً وقاحاً فابدأ به ومُرهُ وانهَهُ من غيرِ أن تعنفَ وعليك بكلام بين النصيحة والإذلال"[٢].

إنَّ طفيل العرائس يوصي ولده إذا ما دخل إلى عرس، أن يدخل دون أن يتلفّت، وأن يتخيّر المجلس الذي سيجلس فيه، وأن يأمر وينهي إذا ما كان العرس مزدحماً، لكثرة الناس، وعدم معرفتهم لبعضهم بعضاً، إنَّ الأخلاق التي يدعو إليها طفيل العرائس، تتنافى مع المهنة التي يحترفها وعزة النفس التي يدعوا إليها - اقتحام موائد الأغنياء عُنوة - أنه يحاول أن يضع بعض القواعد الأخلاقية التي يجب على الطفيلي أن يتحلى بها، ولعله في هذا ينطلق من إحساسه بالدونية التي يشعر بها، ونظرات الاحتقار التي توجّه إليه من الأغنياء أصحاب الموائد.

---

(١) ابن الجوزي، كتاب أخبار الأذكياء، تحقيق محمد مرسي الخولي، ١٩٧٠، ص١٨٩.

(٢) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء، ص١٩٠.

وقد أشارت بعض كتب الفكاهة والأدب لنوادرهم وقصصهم، والتي تتأكد فيهـا بعض صفاتهم والتي تتمحور حول الذكاء والفطنة وسرعة البديهة والفراسة، وفوق هذا امتلاكهم للحس الفكاهي والقدرة على تخليص أنفسهم من المواقف المحرجـة إلاّ أنهـا تريق ماء وجهوهم ولا تحفظ كرامتهم.

أما الأدب الذي قام حولها فزاخر بألوان الفكاهة التي تتضمن بعـض الـصور الهزلية لأشكال الناس وسلوكاتهم وتصرفاتهم التي لا تهتم إلاّ بالأكل وجمع المـال "[1]، ومما يُروى في هذا الباب " انه قيل لطفيلي: أيُّ سورة تعجبك في القرآن؟ قال: المائـدة قيل: فأي آية؟ قال:" ذرهم يأكلوا ويتمتعوا"، قيل: ثم مـاذا؟ قـال: " ادخلوهـا بـسلام آمنين "[2] قيل: ثم ماذا؟ قال: " وما هم منها بمخرجين"[3] .

وجملة القول أن بروز أدب فكاهي يتمحور حول ظاهرتي الكُدية و التطفيل مما يجعلنا ندرك إنَّ الفكاهة قد أصبحت وسيلة يتكسبون بها من اجل الحصول على المال، أو الطعام، وكثيراً ما كان بعض هذا الأدب يعبّر عن نقد وتجريح لأوضـاع المجتمـع والسخرية منه، وذلك من اجل إصلاح هذا المجتمع ومساعدته للتخلص من عيوبـه أو أماكن الخلل فيه لإصلاحها.

لقد استمرت الفكاهة وهي على هذا النحو حتى القرن الخامس الهجري لتأخذ بعد ذلك إتجاهاً مغايراً للاتجاه الذي عبّر عنه الأدباء في معظم كتاباتهم عنها " فقد شـهدت تحولاً في التأليف، ليس في مجال الفكاهة والسخرية فحسب، بل في جميع ألوان التأليف

---

(١) د. رياض قزيحة: الفكاهة والضحك في التراث المشرقي، ص ٣١٦

(٢) الأبيشهي: المستطرف في كل من مستظرف، دار الفكر بيروت،ج ٢، ص ٢٤٦

(٣) **الآية ٤٨ من سورة الحجر**

وصوره "[1] وأظن أنّ لهذا الأمر علاقة بالجانب السياسي وحالة الضعف والانهيار والانقسام، والصراع المرير الذي دار على السلطة بين الخلفاء والسلاطين السلاجقة، وصراع السلاطين مع بعضهم بعضاً، كما شهد تعرّض مدنها لهجمات المغول المتكررة، ومن بعدها سقوط بغداد، وما شهدته من حرق وتدمير لحضارتها وتراثها، وإزاء هذا أحس علماء الأمة وأُدباؤها بضرورة جمع ما تبقى من تراث، وحفظه في مجلدات تضم مختلف أنواع العلوم والآداب والفلسفة وغير ذلك حتى أطلقوا على هذا العصر عصر الموسوعات.

إنّ إحساس الأمة بالفراغ السياسي قد خلق في المجتمع العباسي نوعاً من الركود العلمي والفراغ الفكري والأدبي " ولذلك خبا نور التجديد "[2] وخبت الروح المتوثبة للعلم والدراسة، وتأجج بدلاً منها إحساس ديني عميق، طغى على معظم ما أنتجه الأدباء والعلماء، وامتزج العلم بالدين وبالأدب، وتأثرت به أساليبهم الأدبية، واتجاهاتهم أيضاً، ولم يعد هناك ما يدفعهم إلى الإبتكار أو التجديد، وعندما اتجهوا إلى التأليف،لم يبتكروا موضوعات، بل أعادوا الكتابة فيما هو مكتوب، أعادوه بترتيب جديد وتبويب قد يختلف عن التبويب الذي وجدوها عليه، والفكاهة هي كبقية العلوم لم يعد هناك ما يحضّها أو يثيرها على الضحك أو السخرية، أو يمكن أن يُتشكّل لها موضوعاً جديداً، أو لوناً جديداً، لذا فقد أتجه الأدباء إلى انتقاء بعض الظواهر النفسية، التي شاعت في ذلك العصر، وأصبحت مطلباً إجتماعياً كظاهرة الحمق أو التحامق، والغفلة أو التغافل، سأتحدث عنها ضمن حديثي عن الطرق التي أتبعها المؤلفون الذين إتسمت بعض مؤلفاتهم بالموسوعية، وكانت الفكاهة ضمن محتوياتها فإذا ما عدنا لتلك المؤلفات فإننا نجد أنهم قد اعتمدوا في التأليف عدة طرق منها: أن ترد الفكاهة ضمن باب ،أو فصل

---

(١) د. عفيف عبد الرحمن: حدائق الأزاهر، المقدمة،ص ١٢

(٢) المرجع السابق: ص ١٢

محدد من الكتاب ومنها أيضاً: أن يقوم المؤلف على نشر الفكاهة في فصول الكتاب،وأخر هذه الطرق ،تلك التي يقصرُ المؤلف كتابه عليها .

وقد تجلت هذه الطرق في كثير من المؤلفات، لعلّ من أهمها كتاب "مروج الذهب" للمسعودي ت ٣٤٦هـ والذي يغلب عليه الطابع التاريخي ،إلا أنه قد أورد كثيراً من قصص الفكاهة التي تدور أحداثها في العصر الإسلامي الأول " وما شهده هذا العصر من خلاف شيعي أموي"[١] كما يسجل بعض "القصص التي جرت في قصور الأمراء الأمويين والعباسيين والتي تثير الضحك والمتعة"[٢] ،نثر المادة الفكاهية في فصول الكتاب وهذا يعني أن الفكاهة لديه إنما هي وسيلة للترويح عن النفس وطرد للملل والسأم عن القارئ ،لكن إيرادها لا يخلو من صيغة تاريخية توثيقية "يؤرخ لعام واحد ثم يستطرد إلى ما جرى فيه حوادث ونوادر"[٣].

والأبشيهي خير من يمثّل الطريقة الأولى، إذ جعل الفكاهة في باب مستقل يتضمن عدة فصول أورد فيها نوادر القضاة والأئمة والبخلاء ونوادر الأعراب وغيرهم، وذكر في مقدمة الكتاب الغاية من إيرادها، إذ جعلها مراحاً يستريح عنده القارئ فيبعد الملل والسأم عن نفسه ، بما تتضمنه من أجوبة مسكتة مفحمة أو دعابة مضحكة، أو سخرية لاذعة، أو خلاف ذلك.

أما الطريقة الثالثة فتقوم على تناول الفكاهة ،كموضوع مستقل يقصره المؤلف عليها ،إذ يتناول فيه الفكاهة ،أو أحد ألوانها ويذكر الدواعي التي دعته لتأليف هذا

---

(١) راجع المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر ،دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٣،ج٣، ص (١٩٩ ٢٠٩ – ٢٦٠،٢١٠-٢٦٣)

(٢) المصدر السابق

(٣) رياض قزيحة: ص٤٥.

الكتاب والفوائد التي يتوخاها من تأليفه، وابن الجوزي أحد الذين اتبعوا هـذه الطريقـة ،اتّبعها في تأليف ثلاثة من كتبه هي على التوالي:

الكتاب الأول: "أخبار الأذكياء"

الكتاب الثاني: "أخبار الحمقى والمغفلين"

الكتاب الثالث: "الظرّاف والمتماجنين"

وكلها في الفكاهة والسخرية ،تروى أخبار هؤلاء ونوادرهم، ولتحقيق ما يصبو إليه فقد حرص ابن الجوزي في هذه الكتب ،على انتقاء بعـض الأنمـاط الاجتماعيـة ،ليعرّيها بل ويحذّر من وجودها أو انتشارها في المجتمع . وليكشف حمقها ،وفـسادها ،وما يمكن أن تُلحقُه بهذا المجتمع من أضرار ، أو تقوده إلى الضياع والإنحلال.

والظواهر الاجتماعية التي يتحدث عنها، ويجعلها محوراً لكتبه الثلاث، ظواهر غير بعيدة عن هذا المجتمع –العباسي–به نبتت ومنه خرجت،أخرجهـا الفقـر البـؤس والقهر ،وسوء توزيع الثروات والفساد ،وانحلال الأخلاق وفسادها ،و اختلال الموازين وتغيّر المفاهيم والعادات والتقاليد وانحلالها ولعل " التجولات الاجتماعية والاقتـصادية والسياسية،ونمط الحياة وأخلاقيات أهلها النفعية وعلاقاتهم المادية والاستهلاكية"[1] هـي التي أفرزت مثل هؤلاء الحمقى والمغفلين والمجانين أو المتماجنين، ولا شـك أن ابـن الجوزي قد أجاد فيما كتب ونهج،لأنه بزّ غيره من المؤلفين في طريقة تناوله وعرضه هذه الظواهر، لم يسبقه إليها إلا النيسابوري في كتابه "عقلاء المجـانين" ، يقـيم ابـن الجوزي كتبه الثلاث على ثلاث فئات هي : الأذكياء، والحمقى والمغفلين، والظـرّاف والمتماجنين ، ويتناولها بكل أبعادها ويحللها تحليلاً نفسياً واجتماعياً وأدبيـاً ، فيعـرّف

---

(١) أحمد الحسين : مقالات في أدب الحمقى والمغفلين ، دار الحصاد للنشر والتوزيع دمشق ، ط١ ، ١٩٩١م ، ص ٢٢

بالمحور الرئيسي الذي تقوم عليه، ويمايز بينها، وتتفاضل بوجوده عن بعضها بعضاً، وهو العقل فلا تخلو مقدمات هذه الكتب من الإشارة إليه وبيان أهميته وفضله على الإنسان ، وأزعم أن ابن الجوزي يعدّه المعيار أو الميزان الذي يقيس به مكانة الإنسان وشخصيته ودرجة فاعليته في المجتمع، وأشارك من قال : أنه لا يعقل أن يفرد ابن الجوزي كتاباً مستقلاً بأخبار الأذكياء أو بأخبار الحمقى والمغفلين " وهو يقصد الانتقال بالقارئ من الجدّ إلى الهزل ترويحاً عنه"(١) دون أن تكون له مقاصد أخرى ، وهذا يقودني للحديث عن مقاصد أو أهداف : أولها هدف أدبي غايته تسجيل أدب هذه الفئة وحفظه من الضياع ، ليعبّر عن عصره خير تعبير.

ثانيها: هدف اجتماعي توجيهي "حرص الكتّاب من خلاله على الاستفادة من حكايات الحمقى والمغفلين لتكون معياراً لما ينبغي على العاقل أن يتجنبه ، ويتعظ به، ويحذّر من الوقوع فيه"(٢).

ثالثها : هدف ديني تحذيري، له ما يبرره لدى ابن الجوزي وهو رجل فقيه وعالم بالدين عُرف عنه التقوى ومخافة الله وهذا يحتّم عليه إذا ما رأى منكراً أن يغيّره ، ولهذا وانطلاقاً من هذه الرؤية فإنه يُكثر من استخدام الألفاظ التي يحذّر فيها من مصاحبة الحمقى والمغفلين، على سبيل المثال: " لا تؤاخِ الأحمق فإنه يشير عليك، ويجهد نفسه فيخطئ، وربما يريد أن ينفعك فيضرك"(٣) مصاحبته تجرّ عليه الضرر وتقوده إلى الخطأ.

---

(١) أحمد الحسين: مقالات في أدب الحمقى والمغفلين، ص ٦٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧

(٣) ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين تحقيق د. عزيزة فوال بابتي دار الكتاب العربي بيروت –لبنان، ط١، ١٩٩٤، ص٤٥

ومجمل القول أنّ ابن الجوزي يرى انه يعبّر عن مرحلة جديدة في نظرة المجتمع إلى الحماقة ، تلك النظرة " التي تقوم على إزدراء التحامق والتعالي على الحمقى ، وتُكرّس سلطة العقل على اللاعقل أو الجنون" [١]ولكي يحقق الفائدة المرجوة لديه قسّم ابن الجوزي كتبه الثلاثة تقسيماً منطقياً توضيحياً، يحدد فيه ما يحتاج إلى تعريف وتوضيح، ففي كتابه الأول أخبار الأذكياء . وفي مقدمته يُعرف العقل ويبين أهميته وفضله وأهمية الذكاء والفهم والفطنة –ويراه من أجلّ الأشياء التي تتم بواسطتها معرفة الإله....وبه يتمايز العقلاء عن غيرهم ، ويتباينون في تحصيل العلوم والتجارب،ومن أجل ذلك يقول أنه جمع أخبار "الأذكياء" وأصحاب العقول الفطنة ، يعقبها بذكر الأهداف التي دعته إلى تصنيف هذا الكتاب، بعدها يتحدث عن نوادرهم، والأخبار الفكاهية التي تُروى عن الأنبياء ،والرسل ، وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم ما جاء من أخبار ونوادر عن الخلفاء والوزراء ، والسلاطين، والأمراء والحجّاب والشرطة ، والقضاة وكبار علماء الأمة وفقهائها، وما جاء عن العبّاد والزهّاد، والعرب وعلماء العربية ، وفي الباب السادس عشر يذكر أخبار مّن احتال بذكائه لبلوغ غايته وفيمن احتال فانعكس عليه مقصوده وختمه يذكر أخبار النساء المتفطنات، وفيما يُذكر عن الحيوان البهيم مما يشبه ذكاء الآدميين، وما ضربته العرب والحكماء من أمثلة على ألسنة الحيوان.

أما كتابه الثاني "كتاب الحمقى والمغفلين". يذكر فيه ابن الجوزي أولئك الذين وهبهم الله، نعمة العقل والفهم، وما أنعمه الله عليهم به، مقابل الحمقى والمغفلين الذين حُرموا من هذه النعمة ، ليحرصوا على ما وهبهم الله من نعم،.وأما كتابه الثالث والذي أطلق عليه اسم كتاب "الظرّاف والمتماجنين" فقد استهلّه بمقدمة بيّن فيها حاجة الإنسان للضحك والمزاح الذي يقصد به صاحبه الترويح عن النفس والإضحاك للتسلية،

---

(١) أحمد الحسين : مقالات في أدب الحمقى والمغفلين ، ص ٦٨

وتعرّض لبعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تحضّ على المزاح وموقف الرسول الكريم من هذا النوع من المزاح. أعقبها بفصل حدد فيه المعنى اللغوي والإصطلاحي للظُرف ، ثم قسّم الكتاب إلى ثلاثة أبواب تضمنت:

الباب الأول وفيه ما يُروى عن الرجال من فكاهات ، وجاءت في خمسة أقسام هي:

١-ما يُروى من فكاهات عن الأنبياء عليهم السلام.

٢-ما يُروى عن الصحابة.

٣-ما يُروى عن العلماء الحكماء.

٤-ما يُروى عن العرب.

٥-ما يُروى عن العوام.

انتقل بعدها ليذكر بعض فكاهات النساء وما إلى ذلك ، وختم كتابه بباب أخير ذكر فيه بعض الفكاهات التي تُروى عن الصبيان. ومما هو جدير بالذكر أن ابن الجوزي -واعظ وفقيه ورجل دين، ولا بد لهذا من أن يؤثر في كتابته، وأن تطغى عليها روح الواعظ والفقيه فتصبغها بالتوجيه والتحذير والعظة، وهذا ما نلمسه في كتبه الثلاثة- والتي تتضمن بعض التوجيهات لقرائه للاعتبار من الحمقى والمغفلين بما حرموه من نعمة العقل. لم تكن الفكاهة لدى ابن الجوزي وسيلة يقصد بها التسلية والترويح عن النفس والإضحاك ، بقدر ما كانت وسيلة توجيهية تحذيرية، اتخذ من كل الفئات التي روى عنها الأخبار والنوادر وسائل فنية أراد أن يحقق من خلالها أهدافه وغاياته وكشف معاناته ومعاناة أبناء الشعب وعظم المأساة التي يعيشونها في ظل التسلط السلجوقي، حيث الفساد والصراع الدائر ما بين الخلفاء أنفسهم وسلاطين السلاجقة، إضافة لما آلت إليه بعض المهن الرفيعة من انحطاط ، بسبب جهل القائمين عليها ، كمهنة القضاة ، والمؤذنين والفقهاء وغيرهم، وما اتصفوا به من ميل للكسب غير المشروع والذي يتمثل بقبولهم الرشاوى والأموال مقابل أن يُصدروا أحكامهم وفق

مصالحهم الذاتية، لا وفق أحكام الشريعة الإسلامية الحنيفة.وثمة أمر لا بدّ من الإشارة إليه، ويتمثل بالسؤال التالي عمن كتب ابن الجوزي؟ ومن هي الفئة التي يتوجه إليها في كتبه الثلاثة؟

وللحقيقة أقول إنّ ابن الجوزي رجل وقور واسع العلم متبحّر في كثير من العلوم الدينية واللغوية والتاريخية والاجتماعية يمتلك حسّاً تحليلياً ، قادراً على تحليل النفوس ، عالماً بها وبما تكنّه في دواخلها، مدركاً لما يدور حوله من أحداث وصراعات ، مقدراً خطورة الوضع السياسي والاجتماعي المتردي، لم يكن يهمه أن يتوجه لفئة خاصة فيما يكتب لأنه أراد إيصال رسالة تحذيرية لكل من يقرأ من الخاصة والعامة على حدٍ سواء ليحثهم على التيقّظ والوعي والإدراك، لما يدور حولهم وما يحيق بهم من مخاطر جسام، خاطب الجميع بلغة واحدة لأنهم وحسب رؤيته الذاتية متساوون فيما هم فيه من حمق وغفلة أو تحامق أو تغافل ، ولأنها أصبحت حرفة ووسيلة كسب ومصدر رزق،اتجه إليها الشعراء والأدباء، وبعض الأشراف والنبلاء–نتيجة دوافع اقتصادية واجتماعية–إلى الانخراط في سلك الحماقة، والرقاعة متحامقين ومتجانين ، وما دامت الفئات التي تمتلك الثروة وبيدها المال تُعجب بالتحامق أكثر مما تعجب بالعقل، وتُقبل على المجالس التهريج، أكثر من إقبالها على حلقات العلم والمعرفة"[1].

---

(١) أحمد الحسين : مقالات في أدب الحمقى والمغفلين، ص٢٢

الفصل الثالث

الفكاهة والسخرية في الكتب المؤلفة بعد القرن الخامس الهجري

١- محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء والشعراء (للراغب الأصفهاني)، ت. ٥٠٢هـ.

٢- حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي (٧٦٠هـ-٨٢٩هـ).

٣- كتاب المستطرف : المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، ٧٩٠هـ - ٨٥٢هـ.

٤-كتاب المخلاة: مؤلفه بهاء الدين العاملي، ٩٥٣هـ - ١٠٣١هـ.

٥-الكشكـــــول: مؤلفه بهاء الدين العاملي.

١- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء:

ومؤلفه أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني "ت ٥٠٢هـ"، وأحد أدباء أصفهان، سكن بغداد، واشتهر من كتبه محاضرات الأدباء، وله أيضاً "المفردات في غريب القرآن" وكتاب "أفانين البلاغة"[١].

ألف الراغب الأصفهاني كتابه هذا، إيجاباً لرغبة سيّده الذي أحبَّ أن يختار "مما صنّف من نكت الأخبار، وعيون الأشعار، ومن غيرهما من الكتب، فصولاً في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، والبلغاء، وما يجعله صيقل الفهم، ومادة العلم، وقد ضمّن ذلك كله طرفاً من الأبيات الرائقة، والأخبار الشائعة"[٢].

"وأورد فيه ما إذا قيس بمعناه:

يكون منه مكان الروح من الجسد والبدر من فلك، والنجم من قطب"[٣]

يصف أبو القاسم كتابه محاضرات الأدباء ... فيقول:

أنه ظرف مليء ظرفاً، ووعاء حُشي جداً وسخفاً، من شاء وجد منه ناسكاً يعظه، ويبكيه، ومن شاء صادف منه فاتكاً يُضحكه ويلهيه:

فالجدُّ والهزل في توشيح لحمتها والبغل والسخف والأشجان والطرب

وهذا يكشف عن هدف الراغب الأصفهاني من تأليف الكتاب، ويبين رغبته في إطراف القارئ، وتسليته، وإضحاكه.

عمد أبو القاسم، عند تأليفه هذا الكتاب إلى إتباع منهج الاختصار والاقتصار، وأعطى الكتاب من الإكثار والإهزار لئلا تعاف ممارسته ومدارسته، وفيما يتصل بتقسيم الكتاب فإننا نراه قد قسّم كتابه هذا إلى مجلدين، وجعل في كل مجلد حدوداً وفصولاً، وأبواب، كما ويذكر جملة

---

(١) الأعلام: دار العلم للملايين، بيروت، لا. ت، مج٢، ٢٥٥.

(٢) الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، مقدمة الكتاب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٧.

(٣) المصدر السابق.

الحدود في مقدمة الكتاب ليسهل على القارئ مطالعته، ويرى أنّ أحق الناس بمطالعتــه "مــن تحلى بطرف من الآداب، فيصيد به طليق اللسان، زليق البيان"[1].

الحد الأول: وهو في العقل والعلم والجهل، وما يتعلق بها، الحد الثــاني: وهــو فــي السيادة، وذويها وأتباعها، الحد الثالث: في الإنصاف والظلم والحلم والعفو والعقاب والعــدواة والحسد والتواضع والتكبر، الحد الرابع: في النصرة والأخلاق والمــزح والحيــاء والأمانــة والخيانة والرفعة والنذالة، الحد الخامس: في ذكر الأبوة والنبوة ومدحهما وذمهما، والأقارب، الحد السادس: في الشكر والمدح والذم والاغتياب والأدعية والتهنئة والهدية، الحد السابع: في الهم والجد والآمال، الحد الثامن: في الصناعات والمكاسب والتقلب والغنــى والفقــر، الحــد التاسع: في العطاء والاستعطاء، الحد العاشر: في الأطعمة والأكلة والقِرى وأوصاف الطعام، الحد الحادي عشر: في الأخوانيات، الحد الثالث عشر: في الغزل ومتعلقاته، الحد الرابع عشر في الشجاعة وما يتعلق بها، الحد الخامس عشر: في التــزوج والإزدواج والطــلاق والعفــة والتدين، الحد السادس عشر: في المجونات والسخف، الحد السابع عشر: فــي خُلــق النــاس وأسماؤهم، الحد الثامن عشر: في الملابس والفرش، الحد التاسع عشر: في ذم الدنيا وانكشاف النوب الشدائد، الحد العشرون: في الديانات والعبادات، الحد الحادي والعشرون: في المــوت وأحواله، الحد الثاني والعشرون: في الأسماء والأزمنة والأمكنة والمياه والأشجار والنيــران، الحد الثالث والعشرون: في الملائكة والجن، الحد الرابع والعشرون: في الحيوانــات، الحــد الخامس والعشرون: في فنون مختلفة وهو آخر الحدود.

مصادر الكتاب:

لم يعمد المؤلف إلى ذكر المصادر التي اعتمد عليها، ونقل منها عنــد تأليفــه لهــذا الكتاب، بل كان يكتفي بذكرها في المتن، ومما يبدو أنه قد أكثر من هذه المــصادر، وذلــك لينسجم مع كثرة حدود الكتاب وفصوله وأبوابه، وتعدد موضوعاته، بل وكثرتها فــي بعــض الحدود، لم يترك جانباً من جوانب هذه الحدود إلا وتحدّث عنها بإسهاب، وكان في كل ذلــك

---

(1) مقدمة الكتاب، ص ٧-٨.

بليغاً فصيحاً في انتقاء الألفاظ، ولديه قدرة على التأليف بين الموضوعات، وما يتفرع عنها من عناوين.

أما مصادره فقد تراوحت ما بين الدينية والتاريخية والأدبية، الشعرية منها والنثرية، ومن هذه المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- الأحاديث النبوية الشريفة.

٣- أحاديث بعض الأنبياء كسيدنا عيسى عليه السلام.

٤- ومنها ما ورد عن بعض الخلفاء وأخبارهم، ومنها: ما ورد عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبي سفيان وهشام بن عبد الملك، والمأمون وغيرهم.

٥- ونقل عن الشعراء كثيراً من أشعارهم، ومن بين هؤلاء الشعراء: أبو العتاهية، وأبو تمام والبحتري وابن الرومي ودعبل، والأحنف بن قيس، والمتنبي، والراوندي وغيرهم.

٦- كما نقل بعض أقوال الأدباء وأخبارهم: كابن المقفع والجاحظ والصولي وغيرهم.

٧- ونقل عن بعض الكتب التي تُرجمت إلى اللغة العربية مثل كتاب كليلة ودمنة.

٨- كما نقل من أقوال بعض الحكماء كأفلاطون، وسقراط، ولقمان الحكيم وكثيراً ما كان ينقل عن بعض الحكماء دون ذكر اسمائهم كأن يقول: "قال بعض الحكماء" أو "وقال حكيم".

والمتمعن لهذه المصادر يلحظ ما يلي:

١- أنه لم يقتصر على عصر واحد، بل إننا نقرأ أخباراً عن عصر ما قبل الميلاد، كأخبار أفلاطون وسقراط، كما نقرأ أخباراً عن لقمان الحكيم، والعصر الجاهلي، والاسلامي، وعصر بني أمية والعصر العباسي.

٢- تضمّن كتابه كثيراً من الأشعار، التي يستشهد بها عند الحاجة إليها، وكان لا يذكر هذه الأشعار إلا ويذكر قائلها ...، وأغلب هؤلاء الشعراء اتصفوا بالحكمة والقدرة على قول الشعر وتمكنهم من هذا الفن الرفيع.

أما فيما يتعلق بتسمية الكتاب "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء"، فإننا نرى أنّ الراغب الأصفهاني، قد وفق ما بين العنوان ومضمون الكتاب ومواده، وإن لم يكن موفقاً في تسمية أبواب الكتاب باسم "الحدود"، وما توحيه هذه الكلمة في نفس المتلقي من إحساس ديني وما ينتابه من شعور بالخوف من القِصاص والعقاب إذا ما تعدّى حدود الله.

كيف تناول الراغب الأصبهاني موضوع الفكاهة؟ وما هي نظرته إليها؟ وهل جاءت من تأليفه وإبداعه الذاتي؟ وللإجابة على هذه التساؤلات أقول:

إنّ كتاب "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" ليس كتاباً في الفكاهة، وإن جاء مشتملاً عليها، بل هو كتاب في الأدب والعلم، والأخلاق، والاجتماع، والصناعات، والغنى والفقر، والشجاعة والفقه، والمجون، والسخف، وغير ذلك من الموضوعات التي تناولها الراغب الأصبهاني، لم يقتصره على موضوع واحد، بل نوّع في موضوعاته وجعلها تشتمل على كثير من الأمور التي تتعلق بشخصية الإنسان، وحاجاته النفسية والعقلية، ولذا فقد شبّه كتابه بالظرف الذي مُليء ظرفاً، والظرف كما جاء باللسان: "الوعاء والظّرف الثانية هي حُسنُ العبارة والبليغ الجيد من الكلام"[1]، وهذا يعني أنّ كتابه يشبه الوعاء الذي مُليء كلاماً جيداً وبليغاً، عباراته حسنة، تسرُّ النفس وبهجها، كما شبهه بالوعاء الذي حُشي جِداً وسخفاً، وفي كلا المعنيين، نجد في الكتاب ما يلبي حاجة القارئ والدارس ويكفي حاجته، إنْ كان يبحث عن المتعة والتسلية والترفيه عن النفس، أو أنه يبحث عن العلم والمعرفة، والراغب في كل هذا يعبّر عن رؤيته للفكاهة كما يُعبّر عن حاجة القُراء لمثل هذه الفكاهات ويرى أنها تساعد على طرد الملل والكآبة من نفوسهم وتجدد نشاطهم، ليُقبلوا على القراءة برغبة ونشاط وسرور، أما مصدر النوادر والحكايات، فهو بطون كتب الأدب، والتاريخ، جمعها منها

(١) اللسان: مادة ظَرَفَ.

وانتقاها بدقة وعناية للتوائم مع الحدود والفصول التي رخصها للكتاب ولا فضل لـه إلا في جمعها وتأليفها في كتاب.

لا تختلف نوادر الكتاب عن تلك التي نجدها في معظم الكتب الأدبية التي تتسم بالموسوعية سواء من حيث الموضوع أو الحجم، فأغلبها يدور حول التندر والسخرية والتهكم بفئات اجتماعية محددة كالمعلمين والقضاة والأعراب والطفيليين، وأصحاب المهن الوضيعة وغيرهم، لفساد أخلاق بعضهم، وخاصة القضاة، وعدم تمسكهم بإقامة العدل وانحرافهم عن الطريق القويم، كما تدلل على جهل بعضهم بالأحكام الشرعية وفيما يختص بطولها، فإنّ حجمها يتراوح ما بين القصيرة والمتوسطة الطول فمنها النوادر القصيرة ومنها الحكايات المتوسطة الطول.

٢- حدائق الأزاهر، لابن عاصم الغرناطي الأندلسي ، ٧٦٠هـ - ٨٢٩هـ، أبو بكر، محمد بن محمد، بن عاصم الأندلسي الغرناطي،قاضي الجماعة، الرئيس أبو بكر من فقهاء المالكية بالأندلس، "وُلد بغرناطة في عام ٧٦٠هـ، وتوفي فيها عام ٨٢٩هـ"[١]، ففي صباه عمل في تجليد الكتب، ثُمَّ عُيِّنَ قاضياً للجماعة في غرناطة، نشأ في بيت كان محباً للعلم، "تتلمذ على يدي جماعة من العلماء، والفقهاء، وهم: أبو سعيد بن لب، وأبو اسحق الشاطبي"[٢]، كما تتلمذ على أيدي اثنين من أخواله هم: أبو بكر بن القاسم بن جزي، وأبو محمد بن القاسم بن جزي، لابن عاصم مؤلفات عديدة أوردها المغربي في كتابه: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وقد وصفها بقوله: أما كتبه فالدرُّ النفيس، والياقوت الثمين والروض الآنف، والزهر النضير، نصاعة لفظ، وأصالة عرض، وسهولة تركيب، ومتانة أسلوب، ومن بين هذه المؤلفات[٣]:-

١- الأرجوزة المسماة بـ "تحفة الحكّام في علم القضاء".
٢- الأرجوزة المسماة بـ "مُهيع الوصول في علم الأصول" وهو في أصول الفقه.
٣- الأرجوزة المسماة بـ "نيل المنى في اختصار الموافقات".
٤- الأرجوزة الصغرى المسماة بـ "مرتقى الوصول للأصول" وهو في الفقه أيضاً.
٥- القصيدة المسماة بـ "الأمل المرقوب في قراءة يعقوب".
٦- القصيدة المسماة بـ "كنز المقاوض في علم الفرائض".

(١) المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج٥، ص٢١.

(٢) التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المنشور بهامش الديباج المذهّب تأليف برهان الدين بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المدني المالكي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ص ٣٠٨.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج٥، ص٢١.

المستطرف في كل فن مستظرف: ومؤلفه شهاب الدين محمد بن احمد بن منصور بن احمد بن عيسى البهاء، أبو الفتح الشهاب، آبي العباس المحلّي الشافعي "[1] ولد سنة تسعين وسبعمائة بأبشويه من قرى الغربية بمصر وأقام في المحلّة الكبرى ونشأ فيها، وحفظ القرآن، واطلّع على بعض الكتب التي وقعت يده عليها، ودرس النحو والصرف والفقه على يد جماعة في بلده "[2] ثم غادر غلى القاهرة لإتمام علوم وفيها تلقّى علوم العربية والمعاني والبيان والبديع على يد جلال الدين المحلّي أحد مفسري القرآن، المعروف بتفسير الجلالين مع جلال الدين السيوطي، التقى بعض الشخصيات المشهورة في عصره كالبلقيني والمناوي، واتصل بالأمير تمراز أحد الأمراء الشراكسة المقدمين عند المماليك، وتردد عليه لخدمته ،وتقديراً له، عيّنه في تدريس الفقه الشافعي بمدرسة الشيخونية، ثم انتقل للتدريس في بعض المدارس في القاهرة ودرّس فيها الحديث، ومن تصانيفه عدا المستطرف " أطواف الأزهار على صدور الأنهار " وهو كتاب في الوعظ ويقع في مجلدين، وله كتاب آخر هو " تذكرة العارفين وتبصرة المستبصرين " وكتاب المستطرف اثر من آثار الأدب العربي الذي ضم مسائل عديدة في القرآن والحديث والفقه، وجمع فيه كثيراً من الأخبار والطرائف والنوادر الأدبية.

قسّم الأبشيهي كتابه إلى جزأين، جعل في الجزء الأول اثنين وأربعسين باباً، ومثلها في الجزء الثاني، والكتاب الذي بين أيدينا " طُبِعَ بمطبعة الاستقامة الكائنة

---

(1) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن الخامس، دار مكتبة الحياة – بيروت، ج٧، ص١٠٩

(2) المصدر السابق.

بمصر، لصاحبها الشيخ مصطفى حسين أحمد وشركاه، سنة ١٣٧٩هـ "[١] وأعادت دار الفكر في بيروت نشره وتوزيعه ، دون الإشارة إلى السنة التي أتمت بها ذلك.

أما الطريقة التي اتبعها الأبشيهي في تأليف الكتاب ، والمنهج الذي سار عليه في سرد مضامينه ،فإنه لم يلتزم نهجاً محدداً بل كان ينتقل من موضوع إلى موضوع دون أن يكون بينهما أيُّ تناسب ، فالباب الأول كان في مباني الإسلام ، والباب الثاني كان في العقل والذكاء والحمق والذم، والباب الثالث في القرآن العظيم وفضله وحرمته، وكذا الباب الرابع الذي كان في العلم والأدب وفضل العالِم والمتعلم . وكذا هو في بقية الأبواب فالكتاب موسوعي شامل يضم فنوناً معرفية وحكاياتٍ ونوادر وحِكم وأمثال، وغير ذلك من المعارف ولذا فإنه يفتقر إلى الوحدة الموضوعية والترتيب المنطقي.

جمع الأبشيهي وكما يقرّ في مقدمة كتابه مسائله وموضوعاته، من مؤلفات كثيرة سبقه إلى التأليف فيها مؤلفون كثيرون . انتقى منها ما لَطُفَ وتفرّدَ بفوائد لم تكن في غيره من الكتب ، وجمع جموعها، هذا المجموع اللطيف وعقد العزم على أن يكون كتابه مشتملاً عليها جميعاً.

وقد صوّر ذلك بقوله : " فجعلته مشتملاً على كل فن ظريف واستدللت بآيات كثيرة من القرآن العظيم، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبي الكريم ، وطرّزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار"[٢] ، فقد أودع كتابه كثيراً مما ألفه الزمخشري في كتابه "ربيع الأبرار"[٣]ونقل كثيراً من كتاب ابن عبد ربه "العقد الفريد"[١] كما نقل عن كتاب الجاحظ "البخلاء"[٢] كثيراً من الحكايات والنوادر.

---

(١)انظر الصفحة الأخيرة من كتاب المستطرف.

(٢) مقدمة كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي.

(٣) المرجع السابق.

وتحرّى المؤلف أن يجد مُطالعه فيه كل ما يقصد ويريد ومن أجل ذلك جعله مشتملاً على اللطائف والطرائف التي انتخبها من الكتب النفيسة، والأمثال الشعرية، والألفاظ اللغوية، والحكايات الجديّة والنوادر الهزليةّ، والغرائب والدقائق والأشعار الرقائق وجعل لكل ما انتهى واختار عنواناً لطيفاً ، ظريفاً هو " المستطرف في كل فن مستظرف".

قدّم الأبشيهي وصفاً دقيقاً لمضمون كتابه، ويشير إلى أنّ هناك من سبقه إلى التأليف في هذا الفن، ولذلك فإنه قد عقد العزم على أن يؤلف كتاباً يشتمل على ما جاء في تلك المؤلفات وإنتقاء اللطيف والظريف منها ففيها " كل ما تنشف بذكره الأسماع وتقرُ برؤيته العيون، وينتشر بمطالعته كل قلب محزون "[٣].

فهو يريد أن يُمتّع قارئيه ويطربهم بما انتقى واختار ليبعد الملل والضجر عنهم، ويُدخل الفرح والسرور إلى قلوبهم، فيتخلّصوا من كل همٍ وحزنْ.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف تناول الأبشيهي الفكاهة؟ وكيف عبّر عنها؟ وهل جاءت من تأليفه وإبداعه الذاتي؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة أقول:-

إن الكتاب " المستطرف في كل فن مستظرف، ليس كتاباً في الفكاهة وإن جاء مشتملاً عليها، وليس بكتاب أدب، بل هو كتاب موسوعي شامل، جامع لكثير من المعارف في عصره، يعكس طبيعة العصر الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية وإمتاع القارئ وتسليته، وإدخال الفرح إلى قلبه إحدى هذه الغايات، ولذا فقد ضمّن كتابه بعض مواد الفكاهة ونثرها على أجزاء الكتاب، إذ جعل الأجوبة المسكتة

---

(١) المرجع السابق.

(٢)انظر كتاب البخلاء للجاحظ.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع،ج ٧، ص ١٠٧.

التي تقترن بالذكاء والفطنة في الثلث الأول من الكتاب، كما جعل نوادر القرّاء والأعراب والنحاة وغيرهم في منتصف الكتاب، وجعل في الجزء الأخير من الكتاب باب النوادر والتي تدور حول الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة، كما أراد أن يقدم لكل من يقرأ كتابه النصيحة والعظة والعبرة لاستنهاض الهمم للوقوف أمام الضعف والتمزق الذي تعاني منه الأمة آنذاك، لم يختص بنصيحته فئة محددة من الناس بل كانت موجهة للفئة الحاكمة التي تعاني الضعف وفقدان الإرادة، كما أنها موجهة للأمة المغلوبة على أمرها لتصحو وتتنبه وتستيقظ من سباتها العميق الذي تغرق فيه، كما ساق عبراً ومواعظ من أخبار الأمم السالفة، وأخبار الأولين في احسن القصص، وابلغ الأمثال من اجل الوعظ وإسداء النصيحة للتأدب بمعناه الأخلاقي ،ولا ينسى أن يعرّج على أحوال زمانه ، وما يهم الناس من أمور الدولة والحكم ، ويحثهم على طاعة أولي الأمر منهم وربما يقصد السلطان المملوكي ومن يساعده في إدارة شئون الدولة.

قسّم الأبشيهي الحكايات والنوادر وصنّفها إلى العناوين التالية:

١-حكايات الفصحاء ، ونوادر البلغاء.

٢-في الأجوبة المسكتة.

٣-حكايات البخل والشحّ.

٤-ذكر فصحاء النساء وحكاياتهنّ.

٥-نوادر في الطعام وآدابه، وآداب الضيافة.

٦-حكايات في المُزاح والنهي عنه.

أما النوادر التي تتعلق بفئات لها مهن محددة فقد قسّمها وجعلها في تسع فصول هي على التوالي:

الفصل الأول: نوادر العرب(الأعراب)

الفصل الثاني: نوادر القراء والفقهاء.

الفصل الثالث: نوادر القضاة

الفصل الرابع: نوادر المعلمين

الفصل الخامس: نوادر المتنبئين

الفصل السادس: نوادر السؤّال

الفصل السابع: نوادر المؤذنين

الفصل الثامن: نوادر النواتيه

الفصل التاسع: نوادر جامعة.

وسأتحدث بداية عن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء.

ففي ظل الدولة العباسية ، وما شهدته من حياة باذخة مترفة، وما نعمت به من استقرار ورخاء، واطمئنان ، نشأت في قصور الخلفاء مجالس للسمر واللهو والضحك، وكان لكل خليفة ندماء من العلماء والأدباء والقصّاص، الذين يقصّون عليه النوادر والحكايات المضحكة في ساعات الصفاء والهدوء ويتجنبونه في ساعات سخطه وانشغال باله بأمر من أمور الخلافة.

تُشكل هذه المجالس قسماً من مادة المستطرف، وجعلها الأبشيهي إطاراً مكانياً لتلك النوادر والحكايات ، وحكاية الخليفة عبد الملك بن مروان مع سويد بن غفلة تدلل على الحس الفكه الذي يتمتع به الخليفة والذوق الفني والذكاء المتوقد الذي يسعفه في الجواب السريع المسكت في الوقت المناسب ، كما تدلل الحكاية على ذكاء أحدُ مسامريه والذي يتمثل في هذه الحكاية بشخص سويد بن غفلة، وفطنته أيضاً في رده على الخليفة.

فعندما سأل الخليفة "عبد الملك بن مروان" أهل خاصته ومسامريه، أن يأتيه أحدهم بحروف المعجم في يديه ، لم يقم أحد من بينهم إلا سويد ،" وقال : يا أمير المؤمنين ، قال: هاتِ ، فقال:نعم يا أمير المؤمنين : أنف، بطن، ساق، شفه، صدر، ضلع، طحال، ظهر، عين، غبب، فم، قفا، كف، ...الخ وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين ، فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين ، أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك، وقال لسويد: أسمعت ما قال؟؟!! قال: أصلح الله الأمير، أنا أقولها ثلاثاً، فقال: هاتِ، ولك ما تتمناه، فابتدأ يقول : أنف ، أسنان، أذن، بطن، بنصر،...ترقوة، إلى أن قال ...زند..زردقة... فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ...ثم نهض مسرعاً فقبّل الأرض بين يدي أمير المؤمنين، قال : فعندها ضحك "أمير المؤمنين" عبد الملك وقال: والله ما تزيّدنا عليها شيئاً ،أعطوه ما يتمناه، ثم أجازه وأنعَم عليه وبالغَ في الإحسان إليه" [١].

تدلل هذه الحكاية على أن الخليفة كان يبحث عما يضحكه ويسليه هو وجلسائه ، فلم يجدوا حكاية إلا جسد الإنسان ، يتفكهون به، ويعددون أعضاءه حسب حروف الهجاء ، ويبدو أن جلساء الخليفة لم يكن يعجزهم مثل هذا الأمر ، بل ربما كانوا يخجلون من ذكر تلك الأعضاء-لأن اسم بعضها يُعيب ويخدش الحياء وما يزيد في ذلك، ذكره في مجلس الخليفة وبين يديه أيضاً، إلا أن فطنة سويد وذكائه وسرعة بديهته ساعدته وأعانته على فهم هذا الأمر ، وجعلته يقدم على تعداد أعضاء جسم الإنسان متجاوزاً عن أي عيب أو حياء يمكن أن يواجههما عند ذكر تلك الأعضاء -في سبيل ما يطمح في الوصول إليه من مال أو مكافأة من الخليفة ، وقد تحقق له ما أراد وأضحك الخليفة وأعطاه ما تمناه ، بل وبالغ في الإحسان إليه.

---

(١) الأبشيهي: المستطرف، ص ٥٠.

وفي الحكاية إشارة لقضية الحسد أو الوشاية والتي كانت سائدة في المجتمع العباسي وخاصة في مجالس الخلفاء، وتنم عن ضعف في بعض القيم الأخلاقية، فوجود الحسد يعني عدم حب الخير للآخرين وقد تبيّن ذلك من قول أحد أصحاب عبد الملك بن مروان ورغبته في قول حروف الهجاء من بدنه مرتين بدل المرة التي قالها سويد.

وللحجاج حكاية تكشف وتدلل على بعض الجوانب الإيجابية في شخصيته، تبيّنها رقيقة تتمتع بحس مرهف وفطنة وسرعة بديهة وذكاء ، تقول الحكاية: " كان الحجاج من الفصحاء ، وكان على عتوه وإسرافه جواداً، وكان يطعم على ألف خوان، ويطوف على الموائد ويقول: يا أهل الشام ، مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانياً، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال ، وذلك في كل يوم وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامي فقيل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يُدعوا ، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم ، الشمس إذا طلعت، وعند المساء إذا غربت" [١].

تقدّم هذه الحكاية ، بل وتسجل بعض جوانب الحياة في العراق إبّان الحكم الأموي عندما كان الحجاج والياً عليها، إذ كانت تقدّم الموائد-موائد الطعام-لإطعام الفقراء والمحتاجين وإرضاء للناس الذين يكرهون هذا الحكم، فبدت شخصية الحجاج وكأنها شخصية رقيقة محبة للخير وتحرص على فعله، لكنها ما تلبث حتى تنكشف على حقيقتها ويعود لقسوته وغلظته المعروفة عنه يتجلى ذلك في قوله : "قد جعلت رسولي إليهم كل يوم ، الشمس إذا طلعت ، وعند المساء إذا غربت "[٢] فعندما رأى الناس لا يأتون لتناول طعامه ، وسأل عن السبب الذي يمنعهم من الحضور قيل له بأنهم ربما يرغبون بتوجيه الدعوة لهم ، عندها تحولت رقة الحجاج إلى تهكم وسخرية وقال قولته

---

(١) المستطرف : ص٥٠.

(٢)- المستطرف، ج١ ، ص٥٠.

تلك قد جعلت رسولي إليهم- أي أن رسوله سيدعوهم كل صباح وكل مساء لتناول الطعام، لقد استخدم المقابلة بين الصباح والمساء ليحقق غرضه من السخرية والتهكم.

ب. النوادر.

تداول العرب النوادر منذ العصر الجاهلي وحتى العصر العباسي ، مروراً بالعصر الإسلامي والأموي ، مع ما طرأ عليها من تطور في الشكل والمضمون والدلالة ، فما أن وصلت إلى العصر العباسي حتى وجدت بيئة خصبة ساعدت على تطورها ونضوجها وبلوغها درجة من التقدم والازدهار في الشكل والمضمون.

والنوادر كأحد أنواع القصص الفكاهي لا تختلف كثيراً عن الحكايات والطرائف، إلا في تطور الحدث ، وتعدد الشخوص والوظيفة التي يمكن أن يؤديها كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة.

النادرة أو الحكاية ، أو الطرفة ، تتكفل النادرة بوظيفة هي على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للإنسان لأنها تساعده على التخلص من أحزانه " وفي القضاء على أدران الهم والقلق واليأس والتشاؤم والإحباط"(١) كما أنها " تلقي ضوءاً على خفايا الأمور، أو نفسية البشر، وإن تميزت بالطرافة والتسلية"(٢) .

وأشار الجاحظ إلى وجوب التفريق بين النادرة الحارة والباردة ، والفاترة، ويرى أنّ " أثر النادرة البادرة جداً ، قد يكون أطيب من النادرة الحارة جداً"(٣).

---

(١) د.عبد العزيز شرف: أدبيات الأدب الفكاهي، ص (هـ) المقدمة.

(٢) د. عبد الله أبو هيف: القصة العربية الحديثة والغرب ، منشورات اتحاد الكتّاب والأدباء العرب، دمشق، ١٩٩٤، ص ٤٦.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط٤، بيروت (د.ت) ج١، ص (١٤٥-١٤٦)

أما عن المؤلفات في النوادر والحكايات ، فنلقاها كثيرة في التراث العربي القديم ، بعضها لا يخلو من باب أو فصل وبعضها الآخر اقتصر عليها، ومن بين هذه المؤلفات نجد بعض كتب الجاحظ كالبخلاء ، والبيان والتبيين ورسالة التربيع والتدوير وكتاب الأغاني أبي الفرج الأصفهاني ت "٣٥٦هـ" وفي العقد الفريد لابن عبد ربه كما نجدها في بعض مؤلفات ابن الجوزي "٥٩٧هـ" مثل كتابه- الظراف والمتماجنين- وكتاب " الأذكياء" وأخبار الحمقى والمغفلين وغير ذلك من المؤلفات والمؤلفين .

تحدث الأبشيهي في كتابه " المستطرف" عن النوادر وخاصة تلك النوادر التي تختص بطبقة معيّنة من الناس ممن لها مهنة محددة، كطبقة المعلمين ، أو القضاة ، وتدور أحداث تلك النوادر حول هذه الطبقات وغيرها ، وسأتحدث عن نوادر كل طبقة من هذه الطبقات.

نوادر الأعراب:

الأعراب من أبرز الفئات التي دارت حولها النوادر والحكايات ، وتحفل بها كتب الأدب ومؤلفاته ، وتعددت أنواعها وألوانها تبعاً للمواقف التي تعرّض لها الأعراب في باديتهم أو في الحاضرة والبادية ، والتي تكشف وتدلل على الفارق الحضاري والمادي بينهم وبين سكان تلك المناطق ، كما تدلل على ضعف بعض القيم الأخلاقية والدينية لديهم، ومع هذا فإنّ الأعرابي يتصف -رغم سذاجته- بأنه حاضر البديهة، ذكي صريح في التعبير عن ذاته، وبسبب تلك الصراحة فإنه كثيراً ما تعرّض لبعض المواقف المحرجة، ومن تلك النوادر ، النادرة التالية: "خرج المهدي يتصيّد ، فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي ، فقال: يا أعرابي هل من قرىً؟ فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيذ في ركوة ، فسقاه، فلما شرب قال: أتدري من أنا؟ قال: لا، قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة.

قال: بارك الله لك في موضعك ، ثم سقاه مرة أخرى فشرب، فقال: يا أعرابــي أتدري من أنا؟!! قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: لا أنا من قواد أمير المؤمنين.

قال: رحَبتْ بلادك وطاب مرادك.

ثم سقاه الثالثة، فلما فرغ قال: يا أعرابي أتدري من أنا؟!! قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال: فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها وقال: إليك عني، فــو الله لــو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله ، فضحك المهدي حتى غشي عليه ثم أحاطت به الخيل ، ونزلت إليه الجنود والأشراف فطار قلب الأعرابي ، فقال له : لا بأس عليــك ولا خوف ثم أمر له بكسوة ومال جزيل"[1].

تبدو شخصية الأعرابي في هذه النادرة الطويلة ، شخصية ذكية تتمتع بقدر من الحس الفكه والبديهة الحاضرة ، وموضع الفكاهة في هذه النادرة يتجلى بقول الأعرابي الذي ردّ به على الخليفة المهدي فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله" ، كما يتجلّى بخوفه وفزعه مما قاله أمام الخليفة وبطانته عندما أحاطوا بالخليفة وعلم أن هذا الشخص حقاً هو الخليفة، فهذا ما أضحك الخليفة حتى أغشي عليه وألقى به على ظهره.

ومن النوادر التي رُويت عن الأعراب " ما قيل لأعرابي أنّ شهر رمضان قدِم، فقال: والله لأبددن شمله بالأسفار" ومنها أيضاً أنّ أعرابياً قد سمع قارئاً للقــرآن يقــرأ، حتى أتى على قوله تعالى: " الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً" ، فقال: لقد هجانا ثم بعد ذلــك سمعه يقرأ " ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر" فقال: لا بأس هجا ومدح، هذا كما قال الشاعر:

هجوتُ زهيراً ثمّ أني مدحته وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح

---

(١) المستطرف ج٢/ ص ٢٣٣-٢٣٤

في هاتين النادرتين تبدو شخصية الأعرابي، رقيقة الدين ضعيفة الإيمان، بهـا غفلة وتحامق لكنها تصطنعه اصطناعاً لكي تضفي على هذه النادرة خفة ظل، فيضحك السامع أو المتلقي.

ففي النادرة الأولى موضع الفكاهة والضحك يتجلّى بقوله:" والله لأبددن شـمله بالأسفار"[1] لقد جعل من هذا الشهر الكريم كائناً حياً له شمل، وأقسم بالله بأنـه سـيبدد شمل هذا الكائن الذي هو شهر رمضان بالإكثار من الأسفار والترحال، لقد قصد هـذا الأعرابي المداعبة والتفكّه وذلك لإضحاك الآخرين وجلب السرور لهم.

أما موضع الفكاهة في النادرة الثانية فيتجلّى في هذا التغافـل الـذي يـصطنعه اصطناعاً، الغاية منه المداعبة والتحبب وإضحاك الآخرين، فعندما سمع قول الله عـزّ وجلّ " الأعراب أشدّ كفراً" قال: لقد هجانا. وفي المرة الثانية عندما سمع قوله تعـالى" ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر" وقال: لا بأس هجا ومدح اتخذ من المعنـى في النص القرآني الأول موضعاً للمداعبة والتفكه ، خاصة عندما قابله بالمعنى المضاد له في النص القرآني الثاني، فالأعرابي لم يتوانَ عن استعمال معاني القرآن الكريم في مداعباته وضحكه ما دامت بريئة تخلو من أهداف أخرى وربما من أجل التنويـع فـي الفكاهة.

٢-نوادر القرّاء والفقهاء:

١-القراء: القراء، وتقع عليهم مسؤولية عظيمة في إيصال القرآن الكريم لفئات كثيـرة في المجتمع ممن لا تجيد القراءة والكتابة، وكذلك لفئة أخرى أغوتها الضلالة ، وعميت عيونها عن الهداية ، وقارئ القرآن إن كان يجيد مهمته ، فإنه يساعد على تليين القلوب الجاهلة ، الضالّة التي لا تعرف المعاني السامية التي يدعو إليها القرآن.

---

(١) المستطرف ج٢ ص ٢٣٤.

أما في العصر العباسي فقد برزت فئة من القراء ممن لا تجيد قراءته وتلاوته، ولا تعرف أحكام التجويد ، فلا تقدر على إبراز مواطن الروعة والجمال في ألفاظه ومعانيه ، ولذا فقد أخذ الناس بالتندر على تلك الفئة ، وتعرية جهلها بأحكام التلاوة والتجويد ، ومما يُروى عنها من نوادر ما قيل: " عن محمد بن عبد الله أنه قال: "ن والقلم " في أيّ سورة؟ "[1] وفيما يُروى أيضاً عنهم " أنه مرّ بعضهم بقارئ يقرأ: ألم غُلبت الترك في أدنى الأرض" فقال له : الروم، فقال له كلهم أعداؤنا قاتلهم الله"[2].

النادرتان لطيفتان ، تدلل كل منهما على قدرة القارئ فيهما على الاستفادة من جهلهما وعدم معرفتهما بألفاظ القرآن، وتحويلها إلى مواضع للضحك والتفكه، والتندر، وذلك لتغطية عيوبهما وإبدال التهمة بالضحك والفكاهة، إنّ جهلهما بأمور القراءة والتلاوة لا يمنع من أن يمتلكا الحس الفكه والروح الضاحكة المستبشرة والذكاء والبديهة الحاضرة، وبهذه الصفات استطاع هذان القارآن تحويل الموقف الساخر، إلى موقف ضحك وسرور.

٢- الفقهاء:

وفيما يرويه الأبشيهي عن الفقهاء يؤكد على امتلاكهم للحس الفكه والذكاء المتوقد ، والإجابة المفحمة المسكتة والفقهاء ليسوا كالقرّاء توجّه إليهم الاتهامات بالجهل وعدم الإجادة والإتقان لعملهم ، بل إن النوادر التي تُروى عنهم تدلل على ذكائهم وحضور بديهتهم، ومما يروى عنهم أنه جاء رجل إلى فقيه فقال: أفطرتُ يوماً في رمضان ، فقال: اقضِ يوماً آخر مكانه، قال: قضيت وأتيتُ أهلي وقد عملوا مأمونية فسبقتني يدي إليها فأكلت منها ، فقال: اقضِ يوماً آخر مكانه، قال: قضيتُ وأتيتُ أهلي،

---

(١) المستطرف : ج٢، ص ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٧.

وقد عملوا هريسة فسبقتني يدي إليها. فقال : أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك!!![1].

ومما يروى أيضاً " أنه وقع بين الأعمش وامرأته وحشةٌ فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها وقال: إنّ أبا محمد شيخٌ كبيرٌ فلا يُزهدنكِ فيه عمشُ عينيه، ودقةُ ساقيه ، وضعفُ ركبتيه، ونتنُ إبطيه بخرُ فيه من الفم وجمود كفيّه، فقال له الأعمش: قُم قَبَّحَكَ الله ، فقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه"[2].

الفقيه في النادرة الأولى يتمتع بذكاء وفطنة وبديهة حاضرة أسعفته على إعطاء الجواب المفحم المسكت للرجل الذي لا يقدر على المحافظة على صومه، ومنع نفسه من الطيبات من الطعام، وموضع الفكاهة يتجلى في قول الفقيه: أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك، استعان ببعض ألفاظ القرآن "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط " واستخدمها في إجابته التي ردّ بها على الرجل.

أما الفقيه في النادرة الثانية فكان على درجة من الذكاء والفطنة والبديهة الحاضرة ، لكنه استخدمها بما يتنافى مع عمله كفقيه، وخدع الرجل الذي استأمنه على نفسه ، وعلى زوجته لإصلاح ما فسد بينهما من علاقة ، لإعادة المحبة والرضى بينهما، لكنه بدل ذلك قام بكشف العيوب والنقائص التي يتصف بها الرجل وأراها لزوجته وبدل أن يصلح ، أفسد وأساء ما بينهما من علاقة وأراها من عيوبه ما لم تكن تعرفه.

٣- نوادر القضاة:

---

(١) المستطرف: ج٢، ص ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٨.

يحاول الأبشيهي في هذا النوع من النوادر ، أن يؤكد على فساد القـضاء، وأن يفضح سلوكياتهم ، وفساد أحكامهم ، أمام مغريات الحياة ومباهجها، وهذا ما يشير إليه الأبشيهي في إحدى نوادره ، ليدلل على ضعف الوازع الديني لديهم ، وجهلهم بالأحكام الشرعية والعلوم الفقهية، وانحرافهم عن جادة الطريق القويم وعدم إقامـة العـدل فـي أحكامهم.

فمما يُروى في هذا الباب " أنّ رجلاً قد ادّعى عند قاضٍ على امـرأة حـسناء بدينٍ، فجعل القاضي يميل إليها في الحكم.

فقال الرجل: أصلَح اللهُ القاضي ، حجتي أوضح من النهار فقال لـه القاضـي: اسكتْ يا عدوّ الله ، فإنّ الشمس أوضحُ من النهار ، قُم لا حقّ لك عليها ، فقالت المرأة: جزاكَ الله عن ضعفي خيراً فقد قوّيته.

فقال الرجل: لا جزاكَ الله عن قوتي خيراً ، فقد أوهيتها"(١)

تبيّن هذه النادرة فساد القضاة وفساد أحكامهم ، كما وتفضح انحـراف أخلاقهـم عن السلوك السوي ، فالقاضي أمام جمال هذه المرأة قد ضَعُفَ ووهَنَتْ إرادته، فحكـم بما أملى عليه هواه وفساد خلقه، ولم يحكم بما أنزله الله تعالى، وحكم للمرأة ومال معها بما أملى عليه ضميره الفاسد.

يتجلى موضع الفكاهة في هذه النادرة بقول الرجل الذي ردّ به على القاضـي، فعندما شكرته المرأة على أنه قد قوّى ضعفها بحكمه لها ، ردّ الرجل رداً مماثلاً لـذلك الرد، إلا أنه تضمّن معنى يفيد النفي والتهكم معاً، وبيان ذلك أن الحكم الذي حكـم بـه القاضي ،كان جائراً لا يمكن أن يقوّي ضعف الإنسان ، رجلا كان أو امرأة، بل إنـه

---

(١) المستطرف: ج٢ ص ٢٤٠.

يُضعفُ العزيمةَ والقَوة، فعندما قالت المرأة: جزاكَ اللهُ خيراً عن ضعفي فقد قويتَه ، أجاب الرجل وبسرعة بديهة وفطنة: لا جزاكَ الله عن قوتي خيراً ، فقد أوهنتها.

فقد أضاف حرف النفي "لا" في أول الكلام " لا جزاك الله " وأتى بمعنى مضاد للمعنى الذي عبّرت عنه " قويّتَ ضعفي" وقال: " أوهنت قوتي" – ليصبح التضاد هنا معنى محدداً يفيد التهكم والسخرية وينفي العدل عنه (عن القاضي)

٤-نوادر المعلمين:

نوادر المعلمين في كتاب الأبشيهي منتقاة من كتب الجاحظ، كما أنها تعكس في مجملها نظرة الجاحظ أولاً والمجتمع العباسي ثانياً، وخاصة معلمي الصبيان ، تقوم هذه النظرة على احتقار هذه الفئة ، والسخرية منها " وقد يكون ذلك نتيجة رواسب ذلك العهد الذي كان فيه المعلمون عبيداً أو يهوداً أو نتيجة سوء مسلك بعضهم حقارة نفوسهم "[١] ، إضافة لذلك "أن التعليم حرفة، والعرب في قديم أيامهم كانوا يحتقرون أصحاب الأعمال والحرف ، فلم يتولونها إنما كانوا يتركونها لغيرهم من الأقوام غير العربية" [٢] ومن هنا جاءت نظرة الاحتقار والسخرية ، كما قالت العرب في أمثالها "أحمق من معلم كتّاب"[٣] ومما يقال أيضاً: " الحمق في الحاكة والمعلمين والغزّالين"[٤]. فمما رُوي عنهم ما قاله الجاحظ في النادرة التالية ، والتي يصوّر فيها غفلة المعلمين ، وسخرية الأولاد منهم، وصراعهم الدائم معهم.

---

(١) جميل جبر: الجاحظ ومجتمع عصره المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨ ص ٥٠.

(٢) قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري دار المسيرة بيروت ، ص ١١٨.

(٣) **الجاحظ : البيان والتبيين ج١، ص ٢٤٨.**

(٤)الأبشيهي: المستطرف ، ج٢، ص ٢٤١.

يقول الجاحظ: مررت بمعلم صبيان ، وعنده عصا طويلة ، وعصا قصيرة وصولجان ، وكرة، وطبل وبوق، فقلت : ما هذه؟؟!! فقال: عندي صغار أوباش ، فأقول لأحدهم: إقرأ لوحك فيصفّر لي بضراطه، فأضربه بالعصا القصيرة ، فيتأخر ، فأضربه بالعصا الطويلة، فيفرّ من بين يدي ، فأضع الكرة في الصولجان ، وأضربه فأشجعه، فتقوم إليّ الصغار كلهم بالألواح ، فأجعل الطبل في عنقي ، والبوق في فمي، وأضرب الطبل، وأنفخ في البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك ، فيسارعون ويخلّصوني منهم"(١) .

فالمشهد الذي يصوّره الجاحظ في هذه النادرة وبما يتضمنه من حوار وسؤال وجواب، مفعم بالحركة والحيوية ، يوحي بالصراع الدائر ما بين المعلم والصبيان الذين يعلمهم والعلاقة الضدية ما بين الطرفين. وهذا ما يضحك في هذه النادرة ، فالمعلم ينحدر إلى مستويات هابطة يتعامل معهم وفق عقولهم الصغيرة وعدم إدراكهم لما يتوجب عليهم من احترام وتقدير لمعلميهم وللجهد الذي يبذلونه في تعليمهم وتدريسهم ، فرغم مشقة عملهم إلا أن الجاحظ والمجتمع ، يرونها مهنة حقيرة لا طموح لدى أصحابها، ولا شعور لديهم بالكرامة ، وينعت أصحابها بالحمق ، ويعزي نعته هذا لضعف علمها وقلة عقلها.

٥-نوادر النحاة:

كان النحاة عُرضةً للتفكه والتندر عليهم، بسبب تقعرهم في الكلام وحذلقتهم في اختيار المفردات الغريبة التي ماتت ، واندثرت ،ولا استعمال لها ، وتضمنت كتب النحو والأدب- الكثير من نوادرهم وقلما نجد كتاباً من تلك المصنفات إلا ويتضمّن نوادر عن النحاة ، واعتقد أن لهذا التفكه (بالنحاة) علاقة بقصور فهم الناس ، وعدم قدرتهم على

---

(١) المصدر السابق.

فهم تلك الكلمات ، أو إدراك معانيها، ويرى هؤلاء أن النحاة يقولون ملا يفهم، قصداً وبفوقية ولا يراعون أفهِمَ الناسُ أم لم يفهموا ؟ وقد أثار هذا الأمر اشمئزاز الناس وغيضهم وتشكّل لديهم ردّة فعل عنيفة، وهذا ما دعاهم للرد عليهم ، بل والهجوم عليهم في بعض الأحيان ، وأسلوب التفكه بهم ، والتندر عليهم فيه شيء من القسوة والعنف أحياناً ومما يقال في هذا الباب النادرة التالية: " أنه وقف نحوي على بياع يبيع أرزاً بعسل، وبقلاً بخل، فقال: بكم الأرز بالأعسل، والأخلل بالأبقل؟؟ فقال: بالأصفع في الأرؤس، والأضرط في الأذقن"[1].

لقد سخر هذا البائع من تقعّر النحوي وتحذلقه في السؤال الذي يستوضح فيه عن ثمن طبق الأرز بالعسل ، وطبق البقل بالخل وأجابه إجابةً تتضمن معنى السخرية والتهكم ، لقد تحذلق وتفنن وتقعر فيما قال (بالأصفع في الأرؤس والأضرط في الأذقن)

وفي نادرة أخرى " أنه وقع نحوي في كنيف ، فجاء كناس ليخرجه فصاح به الكناس ليعلم أهو حي أم لا ، فقال له النحوي: اطلب لي حبلاً دقيقاً، وشدني شداً وثيقاً ، واجذبني جذباً رقيقاً. فقال الكناس: وأنا طالق إن أخرجتك منه، ثم تركه وانصرف"[2] .

النحوي في هذه النادرة أغضب الكناس ، عندما تحذلق في استخدام الكلمات التي ردّ بها على الكناس ، وأثار نقمته عليه وموضع التفكه يكمن في هذا الرد الذي يتضمن معنى الغضب والنقمة والتهكم به ، لأنه مكانٍ قذر لا يسمح لمن وقع فيه من أن يتقعر أو يتّحذلق أو يُظهِرَ براعةً فيما يقول، مما دعاه لأن يتركه وينصرف عنه دون أن يساعده على الخروج منه.

٦- نوادر المتنبئين

---

(١) المستطرف : ج٢، ص٢٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠.

حرص الأبشيهي على أن يذكر نوادر المتنبئين في كتابه هذا وهؤلاء هم الذين يدّعون النبوة لا لشيء إلا للتسلية والتفكه وإضحاك الآخرين وخاصة في مجالس الخلفاء، بعيداً عن هموم الخلافة ومتاعب الحكم ، تنعقد هذه المجالس لتسلية الخلفاء والترويح عنهم ، والنوادر التي يرويها الأبشيهي عن المتنبئين تجسّد الحس الفكه الذي يتمتعون به ، كما تدل على ذكائهم وفطنتهم والبديهة الحاضرة التي يمتلكونها" ومما يُروى في هذا الباب " ما حُكي عن المأمون أنه أتى برجل ادّعى النبوّة، فقال له: ألك علامة على علامتي؟ إني أعلم ما في نفسك. قال: وما في نفسي؟ قال: في نفسك أني كاذب، قال: صدقت فقال : هل أوحي إليك بشيء؟!! قال: لا ، قال: ولِمَ؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الحبوس، فضحك منه وخلّى سبيله"[1] .

يتجلّى موضع الفكاهة في هذه النادرة بقول المتنبئ أن الملائكة لا تدخل الحبوس، وردّه هذا يدلّ على حضور بديهته وذكائه وقدرته على إعطاء الجواب المسكت في الوقت المناسب.

ولا يقتصر حديث الأبشيهي على نوادر الرجال، بل يورد بعض نوادر النساء، والمرأة كالرجل بقدرتها على إعطاء الجواب المسكت، هذا إلى جانب ذكائها وحضور بديهتها ومن هذه النوادر ما قيل أنه "أتي بامرأة تنبأت في أيام المتوكل، فقال لها: أنتِ نبيّه؟!

قالت: نعم

قال:أتؤمنين بمحمد؟

قال: فإنه صلى الله عليه وسلّم لا نبي بعدي.

قالت: فهل قال لا نبيّة بعدي؟؟؟

---

(١) المستطرف : ج٢، ص٢٤٤.

فضحك المتوكل وأطلقها"[1]

وموضع الفكاهة في هذه النادرة يتجلّى في قولها " فهل قال لا نبيّة بعدي" وذلك يدل على ذكائها وفطنتها أنها استطاعت أن تتخلص من مأزقها مع الخليفة بهذا القول.

ومن النوادر التي تروى عن المتنبئين الرجال" ما قيل عن رجل أنه ادّعى النبوة في أيام الرشيد ، فلما مَثَلَ بين يديه قال له: ما الذي يقال عنك؟ قال: أني نبي كريم.

قال : سل ما شئت.

قال: أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وقال: كيف يحلّ أن أجعل هؤلاء المردْ بلحى وأغيّر هذه الصورة الحسنة، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مُرداً في لحظة واحدة فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة"[2].

لقد طلب الخليفة الرشيد من هذا الرجل الذي يدّعي النبوّة أمراً معجزاً ليكشف كذبه وادعائه الباطل، وقد تمثل هذا الطلب بأن يجعل لحىً للمماليك المرد مع أن الخليفة يدرك أن مثل هذا الأمر مستحيلاً لا يمكن تحقيقه ،إلا أن الرجل كان أكثر ذكاءً وفطنة وحسن تدبّر من الخليفة ، عندما قال له بأن يجعل أصحاب هذه اللحى – ويقصد الخليفة ومن يجلس في مجلسه- مُرداً في لحظة واحدة أي أن يحلق لهم لحاهم فيصبحوا مُرداً، لم يهتم صاحب النبوءة بأن يراعي المقام الذي يجلس عليه في تهكمه ، وقد تجلّى ذلك عندما تمنّى أن يحلق لحية الخليفة ومن يجلس في مجلسه، ويجعلهم مُرداً، فيتساوون بالمماليك المرد، وهنا مكمن الفكاهة والضحك وهو ما أضحك الخليفة أيضاً وأدخل السرور إلى قلبه، الأمر الذي جعله يعفو عنه ، لا بل ويأمر له بصلة وعطايا.

---

(١) المستطرف ج٢، ص٢٤٤.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٣.

٧-نوادر السوّال:

والسوّال هم المكدون الذين يلحون بالسؤال ، ويلحون في الطلب ، ويريقون ماء وجوههم ، وهذه الطبقة لا تبتعد كثيراً عن طبقة الطفيليين الذين يُزاحمون على موائد الطعام، ونوادرهم كثيرة ومبثوثة في بطون أمهات الكتب ، ومن نوادرهم ما قاله أبو عثمان الجاحظ أنه " وقف سائل على باب ، فقالوا : يفتح الله لك .

فقال: كسرة.

فقالوا: ما نقدر عليها. قال: فقليل من برٍ أو فول أو شعير.

قالوا: لا نقدر عليه.

قال: فقطعة من دهن أو قليل من زيت أو لبن.

قالوا: لا نجده ، قال: فشربة ماء، قالوا: وليس عندنا ماء.

قال: فما جلوسكم ههنا؟ قوموا فاسألوا ، فأنتم أحقّ مني بالسؤال"[١]

في هذه النادرة نجد أن السائل ثقيل في الظل ، لحوح في الطلب، وقح لم يخجل من أن يطلب ممن يسألهم الصدقة، بأن يخرجوا للشحاذة والسؤال لأنهم لا يجدون ما يتصدقون به، فهو يرى في هذه المهنة عملاً سهلاً يمكن أن يعيش مما يتصدّق به الناس عليه ويكسب رزقه منها بل وربما شعر باللذة فيه.

ومن نوادر السوّال أيضاً أنه " وقف أعرابي بباب يسأل ، فقال له صغير من باب الدار، بورك فيك، فقال: قبّح الله هذا الفم لقد تعلّمت الشر صغيراً"[٢].

يتجلّى موضع الفكاهة في هذه النادرة بجواب الأعرابي الذي يسأل بحثاً عن الصدقة أبدله بكلمة قبيحة " قبّح الله هذا الفم" وعدّ تلك الكلمة "بورك فيك" كلمة شرّ

---

(١) المستطرف ج٢، ص ٢٤٥.

(٢) المستطرف : ج٢، ص ٢٤٤.

تعلّمها وهو لا يزال صغيراً في السن، لقد قابل كلمة الخير بكلمة الشر وأخطأ بحق هذا الصغير وأساء له بالدعاء عليه بالشر.

إنّ ما نلمحه في نوادر السوّال ، فساد أخلاقهم وعدم تمسكهم بـالقيم الأخلاقيـة والاجتماعية التي تعيب مثل هذه الحرف وتعدها سبة وعـاراً بحـق الأفـراد الـذين يمارسونها . وبحق المجتمع الذي تبرز فيه، لكنها في مجتمع كالمجتمع العباسـي ومـا طرأ عليه من تردٍ في الأوضاع السياسية والاقتصادية ، لم تعد كما كانت فـي سـابق عهدها سبة وعاراً، بل أصبحت مهنة وحرفة لكثير من الفقـراء والمحتـاجين والـذين يفدون من أطراف الدولة ، لبغداد وبعض المدن الكبرى مثل البصرة والكوفة وغيرهما، حتى أصبحت ظاهرة اجتماعية لها قواعد وشروط يجب أن تنطبق على المنتسبين إليها.

٨-نوادر المؤذنين:

والنوادر التي تروى عنهم تدل على تغافلهم وتحامقهم وجهلهم للتندر والتفكـه " قيل لمؤذن: ما نسمع آذانك، فلو رفعت صوتك، فقال:إني أسمع صـوتي مـن مـسيرة ميل"(١) .

وقال بعضهم : "أرأيت مؤذناً أذّن ثم غدا يهرول، فقلت:إلى أين؟

فقال: أحبّ أن أسمع آذاني أين بلغ"(٢).

ومما يروى عنهم أيضاً أنه " شوهد مؤذن يؤذن من رقعة فقيل له: مـا تحفـظ الأذان؟

فقال: سلوا القاضي، فأتوه فقالوا: السلام عليكم فأخرج دفتراً، وتصفحه، وقال: وعلـيكم فعذروا المؤذن"(١).

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٥.

تكشف هذه النادرة جهل المؤذن وجهل القاضي وعدم قدرتهما على حفظ الأذان، فعندما قيل للمؤذن "ما تحفظ الأذان؟" قال: سلوا القاضي، وقد سألوه، وسؤالهم له كشف عن عدم حفظه للأذان وعدم معرفته ردّ التحية ، ولما قالوا له: السلام عليكم نظر في دفتر له، وتصفحه ، وبعدها ردّ عليهم السلام بقوله : وعليكم. لقد وقع كل من المؤذن والقاضي بالإحراج بسبب جهلهما بأمور دينية يفترض منهما معرفتها بحكم المهنة التي يتولاّها كل منهما: المؤذن، والقاضي، وأصبحا عرضة للتهكم والسخرية، بسبب هذا الجهل لدى كل منهما.

---

(١) المستطرف : ج٢، ص ٢٤٥.

الفكاهة والسخرية في كتاب المخلاة
لبهاء الدين العاملي

المؤلف وحياته:

"هو محمد بن حسين بن عبد الصمد، الملقّب ببهاء الدين بن عزّ الدين العاملي، الحارثي، الهمذاني ولد في بعلبك سنة ثلاث وخمسين وتسعماية، انتقل به أبوه إلى بلاد العجم، وعمره لم يتجاوز سبع سنين"[1].

تلقّى العاملي علوم العربية، والفقه، والحديث والتفسير على يدي والده، وأحد جهابذة العلم، العلاّمة عبد الله بن حسين اليزدي، ثم انتقل إلى هراة-مركز الدولة الصفوية، حيث يُقيم والده. و ذلك ليواصل دراسته وتعليمه .وظل في هراة إلى أن تولّى مشيخة الإسلام فيها.

إلا أن طموحه وإعراضه عن الدنيا وزهده في مباهجها قد دفعه إلى أن يسوح في بلاد الله الواسعة ليبحث عن العلم والمعرفة. بدأها بالحج لبيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وأثناء سياحته والتي استمرت ثلاثين عاماً زار مصر، وفيها التقى، بأحد أساتذتها هو محمد بن أبي الحسن البكري وكان من أشد المعجبين به وبعلمه، بل كان يبالغ في تعظيمه، حتى قال له: " أنا درويش فقير وكيف تعظّمني هذا التعظيم، فأجابه: أنا شممت منك رائحة الفضل"

فامتدحه العاملي بقصيدة طويلة مطلعها:

يا مصر سُقياً لك من جنة   قطوفها يانعة دانية

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، دار صادر بيروت ج٣، ص ٤٤٠-٤٤١

بعد مصر زار القدس الشريف ، ونزل بفناء المسجد الأقصى ، وكان يتـــوارى عن عيوب أهلها، حتّى تمكّن أحدهم من التعرّف إليه والتقرّب منه هو الرضى بن أبـــي اللطف المقدسي وقد امتدحه هو الآخر بقوله: " هو من يُرحل إليه للأخذ عنه، وتشدّ إليه الرحال للرواية عنه".

وفي طريق عودته إلى بلاد العجم ، زار دمشق ونزل بمحلة الخراب عند بعض تجارها الكبار، واجتمع إلى الحافظ الكربلائي القزويني الذي استنشده شيئاً من شعره.

وأثناء إقامته بدمشق التقى بحسن البوريني الذي سمع به ، لكنه لا يعرف شكله ، فلم يعبأ به ، أو يلتفت إليه ، حتى شرع في بثّ أحاديثه ومعارفه فتعلقت به الأبـــصار، فنهض البوريني إليه وهو يقول : " إن كان ولا بدّ فأنت البهائي الحارثي، إذ لا أجد في هذه المثابة إلا ذاك ، وتعانقا وأخذا بعد ذلك في إيراد أنفسِ ما يحفظان"[1].

لم تطل إقامته في دمشق ، ليغادرها بعد ذلك متوجهاً إلى حلب ، مغيّراً هيئته ، بهيئة رجلٍ درويش ، رثّ الثياب وفيها ، حضر حلقة للشيخ عمـــر العرضــــي ، ودار بينهما نقاش حول مسألة ، أبدى العاملي فيها رأياً خالف فيه رأي مَن حضر فـــي هـــذه الحلقة، من العوام وغيرهم، تعرّض بعدها للسب والشتم واتهم بالتشيّع وانتهى به المقام في هراة ، حيث عاد ليقيم فيها، إلا أنّ الشاه عباس الصفوي، علم بعودته " فذهب إليـــه بشخصه تجلةً واحتراماً ، واستدناه من بلاطه ، حيث صـــار صـــاحب المقـــام الأول، والكلمة النافذة"[2].

توفي بهاء الدين العاملي في أصفهان سنة ١٠٣١هـــ ونقل إلى طوس، ودفن في داره القريبة من حضرة الإمام الرضا عملاً بوصيته.

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر ، ج٣، ص ٤٤٣.

(٢) العاملي: المخلاة ، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٥، مقدمة المنسق ص ١١.

ترك العاملي مؤلفات كثيرة ، تعرّض فيها لكثير من القضايا العلمية في الحساب والهندسة، وقضايا في الفكر والفلسفة والمنطق، ومؤلفات في الفقه والحديث والتصوّف ، وأخرى في الأدب والنقد والبلاغة . ومن هذه المؤلفات: خلاصة الحساب، تشريح الأفلاك ، الفراسة عند العرب ، الحبل المتين، الزبدة في أصول الفقه، الفوائد الصمدية ، تهذيب البيان، أسرار البلاغة، المخلاة، الكشكول، وله بعض المؤلفات التي لا تزال محفوظة.

تعكس مؤلفات العاملي طبيعة العصر -عهد الدولة الصفوية- وتجسد الكثير من القضايا الفكرية والفلسفية التي كانت تواجه العقلية العربية في ظل الدولة الصفوية الفارسية؟ كما تدوّن لاهتمامات العلماء والأدباء ، واتجاهاتهم العلمية والفكرية والفلسفية، النزعات العقلية التي تطغى عليهم والمخلاة والكشكول . محورا البحث – يجدان لبعض هذه القضايا والمسائل، كما يعكسان ثقافة العصر واتجاهات التأليف وأشكاله، وطرق البحث والتأليف، وتسهيلاً للبحث سأتناول كلاً منهما.

أما المخلاة : فقد ألّفه العاملي وهو لا يزال في ريعان شبابه بعد رحيله إلى مصر، والمخلاة كتاب موسوعي" حوى من كل شئ أحسنه وأعلاه وضمّنه ما تشتهي الأنفس ، وتَلذُ الأعين من جواهر التفسير ، وزواهر التأويل ، وعيون الأخبار ، ومحاسن الآثار وبدائع حكم يستضاء بنورها ، وجوامع كلم. يُهتدى ببدرها، ونفحات قدسية تعطّر مشآم الأرواح، وأبيات تشرب في الكؤوس ، لسلاستها وحكايات شائعة تمزج بالنفوس لنفاستها ، ومباحثات مديدة سنحت للخاطر الفاتر، حال فراغ البال، مع ترتيب أنيق لم أُسبق إليه وتهذيب رشيقٍ لم أُزاحَم عليه" [1].

---

(١) العاملي: الكشكول -تنسيق وترتيب الطاهر احمد الزاوي دار إحياء الكتب العربية، ج١، ص٣.

يقع كتاب المخلاة في جزأين كبيرين ، رتبهما ترتيباً حسناً كما يصفه العاملي " ترتيباً لم أسبق إليه وتهذيباً رشيقاً لم أزاحم عليه"[1] والمقصود بهذا الترتيب هو تقسيم موضوعات الكتاب وأبوابه إلى جولات، متّبعاً ومقلداً من سبقه إلى مثل هذا التقسيم كابن عاصم في كتابه حدائق الأزاهر الذي أطلق على أبوابه اسم حدائق ، أما اسم الكتاب فيعني الكيس الذي يعلقه المتسول في رقبته ليضع فيه ما يجود به المحسنون عليه.

مصادر الكتاب

لم يذكر العاملي المصادر التي أخذ عنها ، بل كان يورد بعض الإشارات الصريحة من خلال بعض الأحاديث والأخبار، والأقوال، للمصادر التي اعتمد عليها ونقل منها بعض موضوعاته ، والقارئ المتمعن لأسماء الأعلام، وموضوعات الكتاب لا بدّ إلا أن يلحظ عدة أمور منها:

١-غلبة أحاديث الوعظ على نسبة لا يستهان بها من الكتاب وأظنّ أن هذا أمر لا يمكن تجاهله لأنه يصور شخصية العاملي وثقافته.

٢-يتعرض لبعض المسائل الفقهية، ليبيّن الحكم الشرعي منها.

٣-يتعرّض لبعض القضايا النحوية وأوجه الإعراب خاصة لبعض آيات القرآن الكريم.

٤-إنّ نسبة النوادر والقصص الفكاهية قليلة إذا ما قيست بغيرها من الموضوعات، حتى ليمكنني القول أن الجزء الثاني من المخلاة يكاد يفتقر إليها، لولا تلك النتف التي تتناثر هنا وهناك.

٥-لم تقف أخباره لتقف عند حدود العرب ، بل هناك ذكر لأخبار عن اليونان ، واليهود والنصارى وغيرهم.

٦-يذكر العاملي بعض الألفاظ والنوادر الدالة على الجنس وذكرها قد يسبب الإحراج.

---

(١) المصدر السابق.

٧-الجولات الأخيرة من الجزء الثاني تخلو تماماً من النثر إذ يركز فيها على قصائد شعرية.

والسؤال الذي يجب أن نطرحه هو كيف تناول العاملي الفكاهة في كتابه المخلاة؟ وهل كان تناوله لها مقصوداً ، أم أنه حشاها في كتابه أسوة بغيره من مؤلفي هذا العصر، واتباعاً لسنة تطلبتها ظروف العصر، وما يحيق بالأدب والتراث العربي والإسلامي من مخاطر وما يتهدده من كوارث؟

وللإجابة عن هذا السؤال ، بل عن هذه الأسئلة أزعم بداية أنّ الفكاهة في المخلاة، لم تحظَ باهتمام المؤلف وعنايته بل إن اهتمامه بها جاء كاهتمامه بأي موضوع من موضوعات الكتاب كالفقه أو الحديث أو الحكم ، أو الأمثال، وأظن أن لهذا الأمر ما يبرره خاصة إذا ما تعلق الأمر بثقافة العاملي ودراساته التي كانت ترتكز على علوم القرآن والفقه وعلوم الحديث وما انبثق عنها من مسائل وقضايا ودراسات، إضافة لنزوعه نحو التصوف ، وميله إلى الزهد عن الدنيا وما يؤدي إليها ، ولكل هذه القرائن أقول: جاءت الفكاهة في المخلاة تقليداً لغيره من مؤلفي هذا العصر واتباعاً لسنّة أصبحت من متطلبات العصر ومقتضياته والظروف الصعبة التي تحيط بالمسلمين ودولهم ، وإدراجها ضمن موضوعات الكتاب لا يخلو من بعض الفوائد ، كتوجيه نصيحة أو عظة أو توجيه نقد لغاية الإصلاح أو التعليم، ولأنها رغم قلّتها – النوادر الفكاهية. لا يمكن إلا أن تضطلع بالدور المنوط بها بالنسبة للفرد وللجماعة على حد سواء وهذا ما سنقرأه في الصفحة القادمة.

الأنواع الفكاهية التي وردت في كتاب المخلاة.

لقد ذكرت قبل قليل أنّ الحضور الفكاهي للنوادر في كتاب المخلاة، اتسم بأنه **قليل سواء في وفرة الأنواع أو الدلالات إلا أن بعض هذه الأنواع كان يحمل معنى** جميلاً ولطيفاً أضاف بما قدّم للفكاهة رونقاً، وحلاوة ، ولمعانيها دلالة وقوة.

لم تعد الفكاهة كما كانت في سابق عهدها للتسلية أو الترويح عن النفس وحسب، بل أصبح لها دور أكثر إيجابية خاصة في العصور التي تشهد الفوضى والاضطراب والحروب لا بد للفكاهة من أن تنهض لتقوم بأدوارها خير قيام، فالهزل "دواء للنفس وطرد لجاثم الكرب[1] والفكاهة أداة يمكن أن تلقي "ضوءاً على خفايا الأمور أو نفسية البشر -حتى- وإن تميزت بالطرافة والتسلية"

وقد تمثلت هذه الأنواع بالنوادر التالية:

١-نوادر الخلفاء

٢-نوادر الأعراب

٣-نوادر البخلاء والسؤال

٤-نوادر الطفيلين.

٥-نوادر القضاة

ولإيضاحها ، سأتناول هذه النوادر كلاً على حدة

١-نوادر الخلفاء

كان الخلفاء على مر عصور الخلافة الإسلامية، هدفاً للتندر حيناً والسخرية حيناً آخر، باحثين عن عيوبهم وسقطاتهم وأخطائهم للنيل من شخوصهم وقدرهم ومكانتهم ، والتركيز على تلك العيوب والأخطاء وتضخيمها ، والمبالغة فيها لكشفها وتعريتهم قد لا يكون هذا بدافع إيجابي الغاية منه الإصلاح والتهذيب والتقويم ، وقد يكون خلاف ذلك كالإنتقام أو الحسد.

ومن هذه النوادر ، النادرة التالية:

---

(١) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي ،دار صادر، ط١ ، بيروت(د.ت) ج٢، ص ٢٢٧.

"وروي عن سيدي عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه لقى حذيفة بن اليمان ، فقال له السيد عمر: كيف أصبحت يا حذيفة؟

فقال: أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق ، وأصلّي بغير وضوء ، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء ، فغضب عمر غضباً شديداً ، فدخل علي بن أبي طالب على عمر، فقال له: يا أمير المؤمنين على وجهك أثر الغضب، فقال عمر: على حذيفة بن اليمان ، قلت له: كيف أصبحت؟ قال: أحب الفتنة ، وأكره الحق وأصلي بغير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء!!

فقال له: صدق يا عمر يحب الفتنة يعني المال والبنون، لأن الله تعالى قال" إنما أموالكم وأولادكم فتنة" ، ويكره الحق يعني الموت، ويصلّي بغير وضوء، يعني أنه يصلّي على النبي صلى الله عليه وسلّم، وله في الأرض ما ليس لله في السماء يعني له زوجة وولد، وليس لله زوجة ولا ولد ، فقال عمر: أصبت وأحسنت به يا أبا الحسن ، لقد أزلت ما في قلبي على حذيفة بن اليمان"[1].

يتجلّى موضع الفكاهة في هذه النادرة بتلاعب حذيفة بن اليمان ، بمعاني هذه الألفاظ ، من خلال استخدامه لأسلوب التورية، ليداعب بها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ما عُرف عنه من الوقار والحزم والقوة ، ولإظهار قدرته على التحذلق واللعب بالألفاظ والمعاني ، فعندما سأله الخليفة عمر بن الخطاب كيف أصبحت؟ ردّ عليه هذا الردّ المبهم والغامض-الذي يحمل معنيين أحدهما قريب، والآخر بعيد ، والسامع لا يتبادر إلى ذهنه إلا المعنى القريب، والذي يحمل الدلالة السيئة- فيصاب بالتصلّب والذهول ، ويتفاجأ أيضاً لأنه لا يتوقع مثل هذا الجواب، وهذا لا يمكن

---

(١) العاملي: المخلاة -نسقه وفهرسه ووضع هوامشه محمد خليل الباشا عالم الكتب ، ط١، بيروت، ١٩٨٥، ج١/ص ٤٨.

أن يكون ،لأن حذيفة ، لا يخاطب شخصاً عادياً، بل إنه يخاطب خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، لكن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه مع ما عُرف عنه من قوة البيان وفصاحة اللسان وبلاغته، استطاع أن يفهم ويدرك المعنى البعيد الذي رمى إليه حذيفة بن اليمان وهذا ما أضحك –وأزال غضب الخليفة وحنقه على حذيفة.

إن مكمن الفكاهة ، هو هذا الموقف الذي حدث بين عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان وأسلوب التورية الذي أعان حذيفة بن اليمان على مداعبة الخليفة وممازحته له للتعبير عن حبه له. ومما يروى في هذا الباب أيضاً، النادرة التالية:

"وقال أحمد بن عمرو بن المقداد الرازي: وقع الذباب على المنصور فذبّه عنه، فعاد ، فذبّه حتى أضجره، فدخل جعفر بن محمد فقال له المنصور : يا أبا عبد الله لِمَ خلق الله الذباب؟

قال: ليُذِلّ به الجبابرة "

تكمن الفكاهة في هذه النادرة بقول جعفر بن محمد ، وردّه على الخليفة المنصور " ليُذِلّ به الجبابرة " فبالرغم من أن جوابه يندرج تحت الجواب المسكت المفحم، إلا أنه أيضاً يتضمّن سخرية لاذعة للخليفة المنصور، فيرجع عن ظلمه إن كان قد فعل ، ويَصلُحُ حاله.

٢ – نوادر الأعراب

تضمّن كتاب المخلاة عدداً من النوادر التي تُروى عن الأعراب ، وقلما نجد كتاباً من كتب الأدب العربي الكثيرة إلا وتضمن نوادر عن الأعراب ، لتدلل على ذكائهم، وفطنتهم وسرعة بديهتهم ، وفي كتاب العاملي "المخلاة" جاءت لترفّه عن

النفوس وتروّح عنها متاعبها وأحزانها، وقد عبّر العاملي عن ذلك بقوله: "نوادر تتحرك لها الطباع وتهش لها الأسماع"[1].

ما روى في هذا الباب النادرة التالية:

"قال بعض الولاة لأعرابي : قُل الحقَ وإلا أوجعتك ضرباً ، فقال: وأنت فاعمل به ، فما توعدّك الله أشدّ ما توعدني به"[2]

كان ردّ الأعرابي رداً مسكتاً مفحماً يتضمّن أيضاً سخرية لاذعة وتهكماً بهذا الوالي وغيره من الولاة لانحرافهم عن الحق -لتذكيرهم بعذاب الله وعقابه أن ظلموا منحرفين عن جادة الحق ، ليتبعوا طريق الضلال.

ومن نوادرهم أيضاً ما قيل: " أنّ أعرابياً كان قائماً يصلّي فأخذ قومٌ يمدحونه بالصلاح والدين، فقطع صلاته، والتفت إليهم وقال: أنا مع ذلك صائم"[3].

أن أسلوب المدح قد يغضب إذا كان في غير وقته ومن يجريه أيضاً (من يمدح) – وهو كذلك في هذه النادرة ، هذا هو المدح الذي في هذه النادرة ، فالرجل الأعرابي الذي كان يصلي كان يدرك أنَّ مدحهم له ما هو إلا نفاق أو رياء وكذب، ولفطنته وذكائه ردّ عليهم بقوله لهم: أنا مع ذلك صائم، فهو بمثابة سخرية لاذعة لهم بأنه يفهم أن مدحهم نفاق.

---

(١) العاملي : الكشكول ، ج١، ص ٣.

(٢) العاملي: المخلاة ، ج١، ص١٢٤.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص ٥٥٦.

٣- نوادر البخلاء والسّوال:

الكرم من الصفات المحمودة التي يعتزّ بها العربي ويفتخر بها ويحرص عليها مثلما يحرص على أهله وعرضه، أما البخل فإنه من أبغض الصفات وأرذلها، تجلب لصاحبها المذمَّة والعار والبخلاء وقصصهم كانت دائماً موضعاً للتندر والتهكم والسخرية حتى أصبحت أحاديثهم ونوادرهم عادة يتناقلها الرواة في مجالس السمر واللهو ، وكتب الأدب تحفل بمثل تلك النوادر، وقد ألف الجاحظ كتاباً يتضمن أخبارهم سماه " البخلاء" وتبعه الخطيب البغدادي ت "٤٦٣ هـ " صاحب تاريخ بغداد ، بتأليف كتاب عنهم سماه أيضاً" البخلاء"[١] .

ومن نوادرهم التي يتضمنها كتاب العاملي " المخلاة" ، ما قيل عن " أعرابي انه حضر سفرة هشام بن عبد الملك ، فبينما هو يأكل إذ تعلقت شعرة بلقمة الأعرابي ، فقال له هشام : يا أعرابي نحِ الشعرة عن لقمتك ، قال: وإنك تلاحظني ملاحظة من يرى الشعرة في اللقمة، والله لا أكلت عندك أبداً"[٢] .

يكمن موضع الفكاهة والضحك في التهكم الصريح ، والسخرية اللاذعة التي توجه بها الأعرابي من بخل الخليفة هشام بن عبد الملك وحرصه على الطعام، لقد استخدم الأعرابي سلاحاً ماضياً ولاذعاً هو التهكم ، والتهكم من الأساليب التي استخدمتها الفكاهة ضد بعض صفات الإنسان كالبخل مثلاً.

أما السؤّال فهم الذين يسألون الناس بل ويُلحون بالسؤال ويضيعون من أجل ذلك ماء الوجه، وهم صنف يقترب من البخلاء والطفيليين، وقد أفردت لهم كتب الأدب العربي صفحات لنوادرهم ومن نوادر السؤّال النادرة التالية: " انتقل بعض البخلاء إلى

---

(١) الخطيب البغدادي: البخلاء تحقيق محمد إبراهيم مكتبة ابن سينا – القاهرة ، ١٩٩٠.

(٢) العاملي: المخلاة ج٢، ص ٣٥١.

دار، فلما نزلها ، وقف به سائل فقال له: "صنع الله لك" ثم أتاه ثانٍ ، فقال مثل ذلك ، ثم أتاه ثالث، فقال له كذلك ، فالتفت إلى ابنته وقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان ؟ فقالت له: يا أبتِ ، ما تمسكت لهم بهذه الكلمة ، فلا تبالي كثروا أم قلّوا "[1].

أما موضع الفكاهة فيتجلى بذلك الرد اللطيف الذي ردت به الفتاة على أبيها البخيل، الذي احتجّ واستنكر كثْرة مَنْ طرَقَ عليه الباب من أجل أن يعطي ، ما تجود به نفسه عليه.فقولها له لا تخف يا أبتِ ما دمت متمسكاً بكلماتك التي تردهم بها وتعابير وجهك التي ترافقها فهي كفيلة بأن لا يعودوا إليك أبداً.

٤- نوادر الطفيليين:

والطفيليون فئة فقيرة من أدنى طبقات المجتمع خرجت لتبحث عن الطعام وموائد الموسرين والأغنياء، لتحصل على بعض الطعام ، أو ما يقيها من الجوع ، وقد استخدم هؤلاء كثيراً من أساليب الحيل والخداع من أجل الحصول على الطعام ، تضمّن كتاب العاملي المخلاة، بعض نوادرهم ومنها النادرة التالية:

"قيل لطفيلي: كم اثنان في اثنين؟

قال: أربعة أرغفة!!"[2]

يكمن موضع الفكاهة والضحك في إجابة الطفيلي أربعة أرغفة كردٍ على سؤاله له عن حاصل ضرب اثنان في اثنين، حيث تقوم هذه الإجابة على التوهم-توهم الطفيلي وتخيّل أن المطلوب من السؤال هو حاصل ضرب رغيفين برغيفين، ولذلك فإنه أجابه هذه الإجابة ، فأسلوب التوهم والتخيّل هو ما يضحك وهو أحد أساليب الفكاهة الذي يقوم

---

(١) المصدر السابق ، ص٣٥٠.

(٢) العاملي: المخلاة ، ج١، ص ٢٢٣.

على جواب. لا يتوقعه وربما بعيد عن السؤال كما هو الحال في هذه النادرة السؤال عن الحساب -والجواب عن الخبز.

"كما قيل لبعضهم: أيّ طعام أطيب؟

قال: الجوع أعلم"(١)

جواب الطفيلي، جواب ذكي ، رغم أنه مختصر إلا أنه غني الدلالة فخير الكلام ما قلّ ودلّ ، فالإنسان الجائع لا يفرّق بين الطعام الطيب أو غيره، حتى ولا يتذوقه أيضاً ،لأن ما يهمه هو سد هذا الجوع. أظنّ أن هذا الإيجاز وما به من بيان وفصاحة يمكن أن نعدّه أحد الأساليب التي تؤدي إلى الضحك والفكاهة.

٦- نوادر القضاة:

لقد تطرّق العاملي في كتابه المخلاة لهذه الفئة من الناس وذكر بعض النوادر التي دارت حول صنف محدد منهم، ممن أغرتهم الحياة الدنيا بمباهجها سلكوا طرق الاحتيال والنصب والخداع من أجل الحصول على المال، والنوادر التي كانت تدور حولهم نالت من هيبتهم ووقارهم وأخلاقهم ونزاهتهم .

فما يروى في هذا الباب النادرة التالية: " قال الثعالبي: دخل عليَّ بعض الظرفاء الفقهاء ، فطاولني الحديث ، ثم قال: يا سيدي ما قبل قوله تعالى: " لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً"

فقلت: " ءَاتنا غداءنا " فاعمل عليه، فتعجبْتُ منه وقدّمتُ ما حضر"(٢).

(١) المصدر السابق، ص٢٢٣ .

(٢) العاملي : المخلاة - ج١، ص ٢١٦.

استخدم الفقيه " الظريف" ، النص القرآني استخداما جميلاً لطيفاً استطاع من خلاله تنبيه الثعالبي- بضرورة تقديم الطعام وهذا أسلوب جميل لطيف من الأساليب التي تولد الفكاهة والضحك رغم ما به من وقاحة.

ومن النوادر التي دارت حولهم أيضاً النادرة التالي: " قال أبو موسى المكفوف لنخّاس إذ قال : " أطلب لي حماراً ليس بالصغير المحتقر ، ولا بالكبير المشتهر، إن خلا الطريق تدفق ، وإن كثر الزحام ترفّق ، لايصدُّ بي السواري ، ولا يدخلني تحت الهواري، إنْ أكثرتُ علفه شكر ، وإن أقللتُه صبر، إن ركبته هام ، وإن ركبه غيري نام.

فقال النخّاس: اصبر-أعزك الله - حتى يُمسخُ القاضي حماراً فتصيبه حاجتك"[١]

فالنخّاس في هذه النادرة وبعد سماعه للشروط التعجيزية- أو المستحيلة- والتي يجب أن تتوافر في الحمار الذي يود شراؤه يحاول أن يُطمئن الرجل بأنه سيعثر على طلّبه لكن إذا ما مسخ الله القاضي إلى حمار . وهنا تكمن الفكاهة.

---

(١) العاملي: المخلاة. ج٢،ص٥١٦.

الفكاهة والسخرية في كتاب الكشكول للعاملي

الكشكول كتاب موسوعي شامل، جامع لموضوعات كثيرة ، ومتنوعة يحوي من كل فن لون، ومن كل علم باب ، ليس بكتاب أدب أو نحو ، أو بلاغة ، أو نثر، أو فلسفة أو منطق أو هندسة بل هو كتاب لكل هذه العلوم والمعارف ، ألّف بينها ليكون الكشكول روضة مونقة جميلة، تنشرح لها الصدور، وتغتني بها العقول، وتزينها بفائدة ، أو سانحة ، أو عظة، أو عبرة، أو علم ينتفع به، وكل هذه العلوم جمعها من مؤلفات ومصادر كثيرة اضطلع عليها أثناء سياحته بين كافة الأقطار العربية والأعجمية .

وبداية لا بدّ من إضاءة تساعد على جلاء وكشف الأسباب والدواعي التي دعته لتأليف هذا الكتاب، وتتمثل هذه الإضاءة بقول العاملي نفسه، ففي مقدمته التي استهل بها الكتاب يقول: " وبعد فإني لما فرغت من كتابي المسمى بالمخلاة.............. عثرت على نوادر تتحرك لها الطباع، تهشّ لها الأسماع، وطرائف تسرّ المحزون ، وتزري بالدرّ المخزون ، ولطائف أصفى من رائق الشراب، وأبهى من أيام الشباب وأشعار أعذب من الماء الزلال ، وألطف من السحر الحلال ومواعظ لو قرأت على الحجارة لتفجرت، أو الكواكب لانتثرت.... فاستخرت الله تعالى ، ولفقت كتاباً يحذو حذو ذلك الكتاب الفاخر"(١).

لقد كانت هذه العلوم هي الدافع لتأليف هذا الكتاب بجدها وهزلها ، وغثّها وسمينها، انتقى منها أرقها وألطفها، وجمعها وألّف بينها بكتاب..هو الكشكول يحفظها من الضياع ويكون عظيم الفائدة غزير العلم لكل باحث عنه ، كما يكون للقارئ سميراً

---

(١) العاملي : الكشكول: دار الكتاب البناني ، مكتبة المدرسة ، ط١، ١٩٨٣، ص ٨.

ومؤنساً ،بهزله تنشرح الصدور تتجلي الصدور" وتُمحي أدران الهم والقلق واليأس والحقد والتشاؤم والإحباط" [(١)].

منهج التأليف:

لا يعتمد العاملي منهجاً محدداً في ترتيب الكتاب وتبويبه بل بعثه وكما يقول : " كسقطِ مختلط رخيصهِ بغاليه، أو عقدِ انفَصم سلكه فتناثرت لآليه "[(٢)] ذلك لضيق الوقت وعدم اتساع المجال لترتيب موضوعاته ، أو تبويبها في أبواب وفصول، فبعثه وركسم موضوعاته بعضها فوق بعض ، وهذا ما حدا بالطاهر أحمد الزاوي أن يقول في مقدمته التي استهلّ بها الكتاب أنه وجد الكشكول مندمجاً بعضه فوق بعض ، لا فرق بين أول الكلام وآخره ، ولا بين بداية الموضوع أو نهايته"[(٣)] قام بفصل الموضوعات عن بعضها بعضاً ، وقسمه إلى فقرات ، وأجزاء ، ووضع لها العناوين ، كما وضع فهرساً للمواضيع ، ليسهّل على القارئ والباحث.

مصادر المؤلف.

لم يذكر المؤلف ، المصادر التي اعتمد عليها واستفاد منها بمقدمة الكتاب ، بل كان يذكر بعضها في متن الكتاب ويشير لمؤلفها. ومن بينها:

١-ربيع الأبرار للزمخشري

٢-الأذكار للنووي

٣-البداية والنهاية لابن كثير

---

(١) د. عبد العزيز شرف: أدبيات الأدب الفكاهي، مكتبة لبنان ، ط١، مصر ١٩٩٢- ص(هـ) المقدمة.

(٢) العاملي: الكشكول: دار الكتاب البناني ، ص٨

(٣) العاملي: الكشكول: دار إحياء الكتب ، ١٩٨٣ ، ج١، ص(ط) المقدمة

٤- صفوة الصفوة لابن الجوزي

٥- يتيمة الدهر للثعالبي

٦- الملل والنحل للشهرستاني

٧- العوارف للسهروردي

٨- وفيات الأعيان لابن حلكان

٩- لغاية في الفقه القاضي البيضاوي

١٠- السر المكتوم للرازي وغير هؤلاء

مكانة الفكاهة في كتاب الكشكول

حظيت الفكاهة والسخرية في كتاب الكشكول بمكانة ربما أفضل مما كانت عليه في كتاب المخلاة، ويبدو أن العاملي وحينما صنّف كتاب المخلاة ، كان يخشى أن يضمّنه مثل هذا النوع من الأدب ، مراعياً بذلك تلك النظرة الرافضة والتي تستند على بعض الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والتي تحذر من المزاح والهزل والضحك، إضافة لخشيته من أن يتعارض هذا مع ما عُرِفَ عنه من وقار وهيبة وأنه رجل دين وفقيه ومتصوّف وما يمكن أن يُسبّب له ذلك من مواقف معادية ومعارضة ، ولهذا فقد أورد في كتابه المخلاة نسبة قليلة من النوادر والقصص الفكاهية، ونثرها في معظم كتابه ، مختلطة مع غيرها من الموضوعات.

أما في الكشكول وكما قلت أن العاملي قد أولاها اهتماماً وعناية أفضل وذلك لسببين :

أولهما : قدومه إلى مصر وإقامته فيها أثناء تأليفه الكشكول.

وثانيهما: أنّ إقامته بمصر قد أتاحت له الفرصة للإطلاع على كثير من المصنفات التي لم يتسنَّ له في السابق الاطلاع عليها لإقامته الدائمة في البلاد الأعجمية ، ولهذا فإننا

نرى أنّ حضورها في كتاب الكشكول لا بأس به ، وخاصة في المجلدات الثلاثة الأولى من الكشكول ، وما يؤخذ عليه أنه لم يتبع منهجاً محدداً في توزيع هذه النوادر، بل نثرها على أجزاء الكتاب وموضوعاته دون ترتيب أو تنسيق كما هو في المخلاة.

والسؤال الذي يجب أن يُسأل ، يتعلق بتلك النماذج من النوادر والحكايات الفكاهية ، التي اختارها العاملي ، وهل كانت شاملة تغطي كل أنواع الفكاهة ودلالاتها أم لا؟؟؟ أسئلة كثيرة لا بدّ من الإجابة عنها.

وبداية أقول أنّ العاملي لم يكن دقيقاً عند انتقائه واختياره لتلك النماذج من النوادر، يبدو وكأنه اختارها على عجلة من أمره ، أو لضيق في وقته، ولهذا جاء اختياره لها عشوائياً ، رغم أنها تتوافر بنسبة لا بأس بها إلا أنها لا تغطي أنواع الفكاهة ودلالاتها، وأظن أنه كان أسيراً لثقافته الدينية عند اختياره لتلك النماذج أو أسيراً لتلك النظرة الاجتماعية وحتى ليمكننا القول أنه اختارها على استحياء وخجل ، ولذلك كان يبحث عن النوادر التي يغلب عليها الطابع الديني الذي يتضمن الصيغ التحذيرية أو الإرشادية ، ولذلك فإن نماذجه في أغلبها باهتة وإن توفرت بها بعض عناصر الإضحاك، إلا أنها لا تعبر بقوة عن أنواع الفكاهة ودلالاتها كما في المخلاة، وهذا ما يجعلني أقول أنه قد أساء الاختيار ، ولو تمهّل في ذلك ، لاختار نماذج أفضل وأكثر تنويعاً ، لكننا لا نستطيع أن نقول إلا أن تجربته في اختيار النماذج وإن كانت متواضعة إلا أنها بذرة طيبة حفظت ما دونت من الضياع، ولن أنسى قدرة العاملي في اختيار الألفاظ الملائمة وقدرته على إدارة الحديث رغم تشعبه وكثرة المعاني التي يحاول أن يعبّر عنها إضافة لبيانه وفصاحته التي منحت الألفاظ جزالة وقوة وقدرة على التعبير.

بعض نماذج النوادر في كتاب الكشكول.

لقد تفاوتت النماذج التي اختارها العاملي وانتقاها ليضمنها لكتابه الكشكول ، وذلك كمثل لأنواع الفكاهة والسخرية واختلفت ويبدو أنه لم يدقق كثيراً في اختياره لتلك

النماذج، بخلاف نماذجه التي تضمنها كتاب المخلاة والتي لا يخلو بعضها من بعض النفحات أو اللمسات الفكاهية اللطيفة والجميلة ، والنوادر كثرت أو قلّت ، فإنما هي خلاصة لتجارب الأمم والأفراد تتنوع تبعاً لتعدد خبراتها وتجاربها ، وأظن أنّ مثل هذا الأمر قد يساعدها في تحديد أدوارها أو الوظائف التي يمكن أن تقوم بها تجاه المجتمع أو الأفراد ، ولهذا فإننا كثيراً ما نراها وهي تضطلع بدور إيجابي تجاه المجتمع ، دور الناقد الذي يواجه بعض الظواهر السلبية الاجتماعية للعمل على تغييرها لغاية الاصطلاح أو التهذيب أو التقويم ، وقد تأخذ دوراً فاعلاً تجاه الأفراد لتصبح أداة فاعلة تساعدهم "للتهرب من مشاغل الحياة ومتاعبها"[١] أو في "القضاء على أدران الهم والقلق واليأس والحقد والتشاؤم والإحباط"[٢] وذلك بقراءة بعض النوادر المضحكه أو متابعة بعض المشاهد الضاحكة، ضم كتاب الكشكول نوادر مختلفة مثل نوادر الجواب المسكت مع الخلفاء ، أو مع الأعراب ،أو مع الوزراء ، أو مع الفقهاء وسأتحدث عن تلك النوادر في الصفحات القادمة.

ومن الأنماط التي برزت في الكشكول – و لو بشكل قليل- المُلحةُ وهي شكل من أشكال القص الأدبي ، الذي يقوم على السرد و يحمل الطابع الحكائي و يتسم بالقصر والإيجاز إلا أنها تدل على الذكاء و الفطنة و الجواب الحاضر الذي يتضمن معنى الغرابة و عدم التوقع .

ومن الأمثلة عليها ما يلي :_

" قيل لسقراط : أي السباع احسن

---

(١) د. عبد العزيز شرف: أدبيات الأدب الفكاهي، مكتبة لبنان ، ط١، مصر ١٩٩٢، ص ٢٠

(٢) المرجع السابق : ص (هـ) المقدمة.

فقال : المرأة " [1]

فالذي سأل سقراط لم يتوقع إجابة كهذه _ لعدم تماثلها أو تشابهها مع جنس السؤال ، فعندما قال سقراط : المرأة آثار دهشة السائل و استغرابه إضافة إلى انه أضحكه .

ومن الأمثلة عليها أيضا " أن أحد الحكماء قد كتب على باب داره لا يدخل داري شر ، فقال له بعض الحكماء : فمن أين تدخل امرأتك ؟[2] و هذا الجواب أيضا يثير الاستغراب و السخرية من هذا الحكيم الذي يعتبر المرأة شرا ، كما انه يثير في النفس ضحكا ممزوجا بسخرية و هزئ .

" و قيل أيضا : قيل لابن المبارك : إلى متى تكتب ؟

فقال : لعل الكلمة التي تنفعني لم اكتبها بعد "[3]

الجواب في الملحة و أن كان لا يخلو من المداعبة إلا انه يوحي بالدهشة و الاستغراب في الكلمة التي تنفع صاحبها ومتى تأتي ليكتبها .

ومنها ما ورد أيضا :

" قيل للأعمش : لما عمشت عيناك ؟

فقال : من النظر إلى الثقلاء "[4].

---

(١) العاملي: الكشكول _ دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ط١ ١٩٨٣ ص ١٥٦

(٢) المصدر السابق . ص ١٥٦

(٣) المصدر السابق . ص ٣٢

(٤) العاملي : الكشكول ، دار إحياء الكتب العربية ج ، ص ١٠

جواب الأعمش جواب ذكي يدل على تذمره من مجالسة الثقلاء لطول ما يجلسون ، فعندما سئل عن سبب عمش عينيه قال من النظر إلى الثقلاء _ لجلوسهم الطويل و ثِقلِ ظلهمِ عمشت عيناه

و العمش : هو خفة حدة البصر ، فلا يعود الشخص- الأعمش يرى إلا قليلا ، و ربما خيالات .

و السؤال الذي يجب أن نسأله هو _ لماذا اكثر العاملي من هذا النوع من الفكاهة سواء في الكشكول أو المخلاء ؟

و للإجابة على هذا التساؤل أقول ، أن العاملي رجل فقيه و عالم بالنحو وعارف بأساليب البلاغة _ و الإيجاز أحد هذه الأساليب البلاغية الذي يبين قدرة الألفاظ على إبراز معانيها بألفاظ قليلة و معان كثيرة و أظن أن العاملي يحاول أن يظهر مهارته وفطنته في استخدام تلك الأساليب ، وما يجب ذكره أن اللغة في الكتابين لغة جميلة و راقية ، جزلةُ تكسب المعاني حلاوة و تشدُ القارئ إليهما رغم وعورة بعض الموضوعات .

نوادر الخلفاء واللعب بالألفاظ والمعاني

" حدّث عمرو بن سعيد قال: كنت في نوبتي في الحرس في أربعة آلاف، إذ رأيت المأمون قد خرج ومعه غلمان صغارٌ، وشموعٌ فلم يعرفني،فقال: من أنت؟فقلت: عمرو عمرك الله،ابن سعيد أسعدك الله، ابن مسلم سلّمك الله، فقال: أنت تكلؤنا منذ الليلة، فقلت: يكلؤك الله يا أمير المؤمنين، وهو خير حافظ وهو ارحم الراحمين، فتبسم من مقالي "[1].

(١) العاملي: الكشكول ، ج١،ص ١٤

لقد اظهر الحارس عمرو بن سعيد قدرة ومهارة على استخدام اسمه ومعانيها- إستخداماً ظريفاً- واستطاع من خلال المداعبة أن يحقق مكانة حسنة عند الخليفة وان ينال رضاه وسروره فيقربه منه ويجعله من الحرس الخاص الذي يحرسه .

وما رواه العاملي في كشكوله عن الخلفاء والتحذلق النادرة التالية:

حكى المسعودي في شرح المقامات، أن المهدي لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية وهو صبي، وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة، وإياس يقدمهم، فقال المهدي: أما كان منهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث؟ ثم أن المهدي التفت إليه وقال: كم سنُك يا فتى؟ فقال: سنّي- أطال الله بقاؤك- سنُ أسامة بن زيد بن حارثة لمّا ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم أبو بكر وعمر، فقال له تقدم بارك الله فيك".[1]

لقد عمد الفتى إياس بن معاوية أن يرد نظرة الإزدراء التي رآها بعيني الخليفة المهدي، عندما رآه على رأس جيش تعداده أربعمائة جندي، وأعطاه الخليفة المهدي الفرصة المناسبة للرد عليه عندما سأله عن سنه، لم يرد عله رداً مباشراً عن سنه بل أراد أن يظهر ذكاؤه وحذقه وفطنته واعتداده بنفسه ليرد على الخليفة بأن سنه كسن أسامة بن زيد عندما ولاّه الرسول صلى الله عليه وسلم جيشاً منهم أبو بكر وعمر، وبعد فان هذه الإجابة هي التي أراحت الخليفة المهدي وطمأنته وأدخلت السرور إلى نفسه.

ومما يروى في هذا الباب- النادرة التالية:

قال معاوية رضي الله عنه، لإبن عباس رضي الله عنهما، بعد أن كُفّ بصره ما لكم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم؟! فقال: كما أنكم يا بني أمية تصابون في بصائركم؟

---

(١) العاملي: الكشكول، ج ٢، ص ٣٨٥

أن التساؤل الذي وجهه معاوية لإبن عباس يتضمن معنى السخرية والتهكم لكن ابن عباس وبما يمتلك من ذكاء وسرعة بديهة وبيان استطاع أن يرد عليه ردا مسكتا يتضمن معنى السخرية أيضا، ولتحقيق هذه السخرية استعان بأحد الأساليب البلاغية وهو الجناس فقابل بين الأبصار – والبصائر وهذا موضع الفكاهة والضحك.

نوادر الجواب المسكت

يقترن الجواب المسكت عادة بالذكاء والفطنة وسرعة البديهة هذه أدوات قد يحتاج إليها الإنسان إذا ما تعرّض وبشكل مفاجئ لموقف فيه إحراج، كأن يسخر منه أحد أو يتهكم به أي شخص لعيب فيه، أو لخطأ ما ارتكبه، فإن كان هذا الشخص ممن يمتلكون الذكاء وسرعة البديهة والجواب الحاضر فإنه ولا بد أن يرد رداً سريعا ومناسبا ومسكتا، وردّه هذا هو ما يدعو على الضحك والتفكه لأنه ردا مفاجئا وغير متوقع.

ومن هذا النوع الفكه ما جرى بين الحجاج وأعرابي لقيه " لقي الحجاج أعرابيا فقال له: ما بيدك؟ فقال: عصاي أركزها لصلاتي واعدها لعداتي وأسوق بها دابتي وأقوى بها على سفري واعتمد عليها في مشيتي لتتسع خطوتي واثب بها على النهر وتؤمنني العثر والقي عليها كسائي فيقيني الحر ويجنبني الفقر وتدني إلى ما بَعُدَ عني وهي محمل سفرتي وعلاّقة أدواتي اقرعُ بها الأبوابَ والقَيَ بها عقور الكلاب وتنوب عن الرمح في الطعان وعن السيف عند منازلة الأقران ورثتها عن آبي سأورثها ابني من بعدي وأهشُ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى فبهت الحجاج وانصرف".[١]

---

(١) العاملي: الكشكول

نوادر الوزراء والأدباء

سأل بعض الأدباء من بعض الوزراء جملاً فأرسل إليه جملاً ضعيفا نحيفا فكتب الأديب إليه: حضر الجمل فرأيته متقادم الميلاد كأنه من نتاج قومِ عادٍ قد أفنته الدهور وتعاقبته العصور، فظننته أحُد الزوجين اللذين جعلهما الله تعالى لنوح في سفينته وحفظ بهما جنس الجمال لذريته ناحلا ضئيلا باليا هزيلا، يعْجَبُ العاقلُ من طول الحياة بـه وتأنِّي الحركة به، لأنه عظم مجلد وصوف ملبّد لو القي إلى السبع لأباه ولو طرح للذئب لعافه وقلاه قد طال للكلأ فقده وبَعُدَ بالمرعى عهده لم يرَ العلف إلا نائما ولا يعرف الشعير إلا حالماً.

لقد رد الأدباء على الوزراء ردا قاسيا مليئا بالسخرية والتهكم وان ما أعطوه الوزراء أو حسبوا انهم أعطوه فإنما هو عطاء ممسوخا لا يدل إلا على بخلهم وحرصهم، وقد استخدم الأدباء مهاراتهم وفذلكتهم في سبيل تأكيد صفات البخل والطمع والحرص المتأصل في نفوسهم لم يتركوا صفة سيئة للجمل إلا وجاءوا لها بما يشبهها من الموروث القديم فصفة الهرم التي في الجمل استحضروا لها من الموروث الديني سفينة نوح والجمل الذي حمله نوح عليها خشيةً عليه من الغرق والصور الكثيرة التي رسموها للجمل لا تؤكد إلا على بخل الوزراء بل بخلهم الشديد وهذا النوع من التهكم الساخر هو اشد أنواع الفكاهة إثارة للضحك والهزء.

نوادر المجانين

المجانين هم هؤلاء الذين تشير أفعالهم إلى عدم إتزانهم سواء في القول أو العمل وهذا يدلُّ على ما هم فيه من مرض وعي.

ومن نوادرهم: ما ذكره صاحب كتاب الأغاني في أخبار علوية المجنون انه دخل يوما على المأمون وهو يرقص ويصفق بيديه ويغني بهذين البيتين:

عذيري من الإنسان لا أن جفوتُه صَفاً لي، ولا أن صرتُ طوعَ يديه

وإني لمشتاق إلى ظلِ صاحبِ يروقُ ويصفُو لي أن كدرتُ عليه

فسمع المأمون وجميع من حضر المجلس من المغنيين وغيرهم ما لـم يعرفـوا واستظرفه المأمون وقال: ادن يا علوية وردها، فرددها سبع مرات فقال المأمون: يـا علوية خذ الخلافة واعطني هذا الصاحب "

يقول المثل العامي: خذ الحكمة من أفواه المجانين وما يقوله علوية المجنون هو حكمة نادرة لأنه هو الآخر يفتقد إلى الصديق الذي يروق ويصفو له ويتحمله إذا ما قسا عليه.

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

كتاب حدائق الأزاهر

التعريف بالكتاب ومنهجه:

يُعدُّ كتاب حدائق الأزاهر، أحدُ أهم مؤلفات ابن عاصم الغرناطي الأندلسي، وهو كتاب متخصص بأدب الفكاهة والسخرية، ألفه ابن عاصم ليُقدّم لأمير المؤمنين مادة طريفة تجمع ما بين تسلية النفوس، وترويح الأرواح، واستجلاب المسرّة والأفراح، وراحة الخاطر، وأُنسُ المجالسِ والمسامر وتحصيل الفائدة، لقارئه وسامعه، ولتحقيق هذه الغاية انطلق المؤلف باتباع منهجية محددة بدأها بانتقاء المادة التي سيحويها الكتاب، وبذل جهده، لتكون مادته من "طُرَف الأخبار، ورائق الأشعار، ومستحسن الجواب، ومضحكات المولدين والأعراب، ونوادر الحِكَم والأمثالِ، والآداب ما يُستحسن ويُستطرف، ويُستملح، ويُستطرف، من كل نادرة غريبة، أو نكتة عجيبة، أو حكاية بارعة، أو حكمة نافعة، مع ما يُستفاد في ذلك من الوقوف على مناقب الملوك ومآثرها، ومحامدها، ومكارم أخلاقها، وشيمها، ومعرفة سنن مَنْ تقدم من الولاة والأمراء والكُتاب، والشعراء، والأئمة، والخطباء، والمؤذنين، والفقهاء، والوعّاظ، والحكماء، والأعراب، والغرباء، والمجان، والظرفاء، والمجنونين، والعقلاء، والطفيليين، والبخلاء، وحذّاق الجواري والنساء، وأهل التصنّع والرياء، والزّهاد والأولياء"[1].

هذه هي المادة التي احتواها الكتاب، يتضح منها أن ابن عاصم أراد أن يُقدّم لأمير المؤمنين، مادة منتقاة، تعبّر وبصدق، عن التشكيل الحقيقي لمجتمعه، بما فيه من تناقض وتضاد، بدءً من أعلى الطبقات وهم الملوك، وانتهاءً بأدنى طبقات المجتمع، لم يترك أيَّ فئةٍ من فئات المجتمع إلا وتحدّث عنها، الخيّرة منها والشريرة، الحسنة والسيئة، الجميلة والقبيحة، أراد "أن يرسم الوجهين المتقابلين للسلوك الإنساني فينصح بالحسن"[2]، ويُحذّر من القبيح، ويدعو للابتعاد عنه بل وتجنبه أيضاً.

---

(1) **ابن عاصم: حدائق الأزاهر، المقدمة، ص١٣.**

(2) المصدر السابق، ص٣١.

مادة الكتاب وتبويبها:

حدائق الأزاهر أحد كتب الأدب العربي الأندلسي، وهو في شتّى من الآداب والحكايات[1]، والنوادر، والأمثال التي عُرفت في الأندلس، حدد ابن عاصم موضوع الكتاب، واختصه بالنوادر والحكايات المرحة، والطويلة، الشعرية منها والنثرية، وجمعها في حدائق، ووضع لكل حديقة عنواناً محدداً، ربما لتسهيل الأمر وجمعها في حدائق، ووضع لكل حديقة عنواناً محدداً، ربما لتسهيل الأمر على القارئ، وربما لنهج جديد في ترتيب الكتاب وتنسيقه وتنميقه ليبدو أنيقاً وجميلاً، استوحى ابن عاصم تقسيماته – الحدائق – من طبيعة الأندلس الجميلة ذات الحدائق والبساتين بما فيها من طبيعة الأندلس الجميلة ذات الحدائق والبساتين بما فيها من رياحين وأزهار وما تبثه من روائح وعطور زكية تملأ النفس بهجة وسروراً، كيف لا وهو "ربيب هذه البيئة"[2]، وساكنها أما "ثقافته فهي نتاج الحضارتين العربية والإسبانية"[3]، أضفت على كتابه كثيراً من ميزات الثقافتين.

قسّم ابن عاصم كتابه إلى ست حدائق، وكل حديقة قسّمها إلى أبواب، وكل باب لفرع من هذا اللون، وهذه الحدائق هي:

١- **الحديقة الأولى:** وهي في المجاوبة البديهية، والمخاطبة المُرضية وفيها ثلاثمائة وثمانية وسبعين خبراً، وفيها ثلاثة أبواب هي:

الباب الأول: وهو في مسكت الجواب، ومفحم الخطاب، وفيه خمسون خبراً.

الباب الثاني: وهو في مستحسن الأجوبة التي هي عن ذكاء قائلها معربة وفيه مئتان وأربعة وتسعون نادرة.

---

(١) المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، مج٥، دار صادر – بيروت، ١٩٦٨، ص ٢١.

(٢) د. عفيف عبد الرحمن: أدب الفكاهة عند العرب، مجلة أوراق، المعهد الأسباني العربي للثقافة، ع٤، ١٩٨١، ص٣١.

(٣) المرجع السابق.

الباب الثالث: وهو في أبيات شعر وقعت جواباً، واستعملت خطاباً، وفيه أربعة وثلاثون نادرة.

الحديقة الثانية: وهي في مداعبته ما يجلب السرور، وضحكات تميل إليها النفوس، وتنشرح بها الصدور، وفيها خمسة أبواب:

الباب الأول: في ترويح الأرواح بمستحسن المُزاح، وفيه ستٌّ وعشرون نادرة.

الباب الثاني: وهو في المضحكات المستحسنة الخفيفة على الألسنة، وفيه مئة وخمسون نادرة.

الباب الثالث: وهو في المضحكات المستملحة، وإن كانت ألفاظها مستقبحة، وفيه سبعٌ وستون نادرة.

الباب الرابع: وهو في المضحكات الشعرية، وفيه ستٌّ وثلاثون نادرة.

الباب الخامس: وهو في المضحكات المطولات، وفيه ثمانية عشرة نادرة.

الحديقة الثالثة: وهو في نوادر أولي العقول والألباب، وحكايات المستخفين، والمغفلين، من المولدين والأعراب، ومنها أربعمائة وثلاثة عشرة نادرة، وثلاثة أبواب:

الباب الأول: في النوادر المستغربة، والنكت المستعذبة، وفيه مئة وأربعون نادرة.

الباب الثاني: في أخبار الأعراب، والمتنبئين، ونوادر المُجّان والمستخفين، وفيه خمس وتسعون نادرة.

الباب الثالث: وهو في أخبار المغفلين وأهل البله، وما يُحكى عن المجنونين، ومن لا عقل لهم وفيه مئة وخمسون نادرة.

الحديقة الرابعة: وهي في الوصايا والحكم وفيها باب واحد، وفيه مئة وتسع عشرة وصية أو حكمة.

الحديقة الخامسة: وهي في أمثال العامية، وحكمها وفيها باب واحدٌ مرتبٌ على حروف المعجم.

الحديقة السادسة: وهي في الحكايات الغريبة، والأخبار العجيبة وفيها ثلاثة أبواب:

الباب الأول: وهو في الحكايات المستطرفة، والأخبار المستظرفة وفيه ست وأربعون نادرة.

الباب الثاني: وهو في الحكايات والأخبار ذوات الأشعار وفيه ثمان وسبعون نادرة.

الباب الثالث: وفيه يتحدث عن حكايات الأولياء، والعبّاد والصلحاء والزهاد، كما يتحدّث عن أخبار بعض الأولياء وأموالهم، وكرامات بعضهم، وما يترتب عن حسن الظن بالله من الكرامة، وما غفر به لأبي نواس، وحقيقة رابعة العدوية وغير ذلك.

زمن التأليف:

ألف ابن عاصم كتابه "حدائق الأزاهر" لأحد الأمراء في الأندلس هو أبو عبد الله بن أبي الحجاج بن أبي الوليد بن نصر "وأبو عبدالله هذا هو ابن السلطان يوسف أبي الحجاج الذي حكم ما بين عامي ٧٩٣هـ-٧٩٧هـ، ومات مسموماً إثر مكيدة دبرها سلطان المغرب أبو العباس المريني، وخلفه في الحكم ابنه محمد بعد أن دبّر أمره مع زعماء الدولة، ورجالها، لإقصاء أخيه عن العرش"[1]، وكان له ما أراد، واستولى على العرش وبقي في الحكم حتى سنة "٨١١هـ" حيث تُوفي وخلفه أخوه يوسف وهكذا يمكننا القول أنّ ابن عاصم قد ألف كتابه هذا فيما بين عامي "٧٩٧هـ -٨١١هـ".

مصادر الكتاب:

يبين المؤلف أن الهدف من تأليف الكتاب أن يُقدم لأمير المؤمنين "مادة طريفة تجمع ما بين تسلية النفوس وترويح الأرواح إضافة لتحصيل وتحقيق الفائدة لقارئه وسامعه"[2]، ولتحقيق هذا الهدف اتبّع منهجية محددة قائمة على انتقاء المادة بكل حرص وعناية، وكانت جُلّها من طرف الأخبار، ورائق الأشعار، ومضحكات المولدين والأعراب، ونوادر الحكم والأمثال وغير ذلك.

---

(1) ابن عاصم، حدائق الأزاهر، ص١٣.

(2) المصدر السابق.

انتقى ابن عاصم مادة، تضمنت أنواعاً متعددة من صنوف الأدب والأخبار والفكاهات، انتقاها من بطون المصادر التراثية العربية: الأدبية والتاريخية، فكانت نتاجاً لعصر، اختلطت فيه الموضوعات الدينية، والأدبية، والتاريخية، وطغى عليها الاهتمام بالاتجاه الديني ربما لطبيعة العصر، والظروف التي كانت تحيط بالمؤلف، ولهذا نرى أن ثقافة الأدباء، في هذا العصر ترتكز على علوم شتى أبرزها علوم القرآن والحديث، إلى جانب الأدب، واللغة، والنحو، ولهذا فإننا نرى أن الأساليب الأدبية، قد تأثرت بهذا الاتجاه، وطغى على بعضها فلا غرابة أن نجد بعض الأخبار في كتاب حدائق الأزاهر مأخوذة من:

١- من مصادر سبقته، سواء من كتب الأدب العامة، أو الكتب التي تخصصت بهذا اللون، واقتصرت عليه.

٢- كما نجد أنَّ بعض الأخبار والنوادر، قد نُقلت عن بعض الكتب السماوية والرسل، والأنبياء والصالحين.

٣- كما نقل عن بعض الكتب المترجمة من اللغات الأخرى، كالفارسية والهندية، إلى اللغة العربية.

٤- لم يقتصر ابن عاصم على عصر معين، أو فترة زمنية محددة، بل توسّع ليشمل عصوراً كثيرة منها: العصر الجاهلي، وعصر التدوين، وحتى ما قبل عصر المؤلف، نستدل على ذلك من أسماء الأعلام التي ورد ذكرهم، في كثير من الأخبار والنوادر مثل: الأصمعي، الجاحظ، العتبي، المبرد، الزبير بن بكار المدائني، أبو عمرو الشيباني وغيرهم.

٥- كما توسع ابن عاصم، بل وتجاوز أخبار العرب ونوادرهم ليروي، أخباراً عن الفرس والهنود، والأقباط، وغيرهم.

٦- روى بعض الأخبار والنوادر التي وردت على ألسنة الحيوان.

٧- خصص حديقة من حدائق كتابه للأمثال العامية الشائعة في الأندلس، وبلغت ثمانمائة وواحداً وخمسين مثلاً.

المكونات الشكلية لكتاب حدائق الأزاهر

يسير كتاب حدائق الأزاهر، وفق نظام خاص يطّردُ في أجزاء الكتاب كلها، وأول عناصر هذا التنظيم:

١- **العنوان:** وهو الصيغة التي يؤطر بها كل حديقة، وكل باب، لقد وضع ابن عاصم عنواناً عاماً للكتاب، ثم وضع عنواناً آخر لكل حديقة، ثم وضع عناوين فرعية لكل باب من أبواب الحدائق.

والمتتبّع لمسار المؤلف في تنظيم الكتاب، يلحظُ أنَّ ابن عاصم قد التزم بهذا التنظيم في كل الحدائق، عدا الحديقتين الرابعة والخامسة، إذ جعلهما للحِكَم والوصايا، والأمثال العامية السائدة في الأندلس، حتى ليمكننا القول أن هذا الترتيب قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من هيكل الكتاب، ولا يكتمل إلا بوجوده وهنا لا بد أن نشير لغاية ابن عاصم من هذا الترتيب وهي تهيئة ذهن القارئ لمعرفة مضمون كل حديقة وكل باب، وكذلك "ليَسْهلَ النظرُ فيه على مطالعه، وتحصيل الفائدة لقارئه وسامعه"[١].

تضمُّ أبواب الكتاب نصوصاً حكائية، تتراوح أشكالها ما بين النادرة، والمُلحة، والحكاية، وكل نوع منها يُعدُّ نمطاً من أنماط القص الفكاهي بل إنها "أهم فنونه التي تعبّر عن وظائفه"[٢].

تتشابه النادرة والمُلحة والحكاية، باعتماد كل منها على الحدث والشخصية، لكنها تختلف الشخصيات، وتطوّر الحدث، وكل نوع منها يُعنى بجانب محدد، فالمُلحة تقتصر على حدث بسيط ولا تهتم إلا "بأحوال النفس الإنسانية وما تنطوي عليها من جوانب خفيّة، وطباع غامضة"[٣]، وكذلك النادرة فإنها ممعنة في القصر، وتدور حول الحياة اليومية، وخالية من

---

(١) ابن عاصم، حدائق الأزاهر، ص٤٣.

(٢) د. عبد العزيز شرف، الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط١، ١٩٩٢م، ص ١٠١.

(٣) د. خولة شخاترة، بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ، دار الينابيع للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م، ص٨٠.

التقصير، "وتغلب عليها المفارقات في أغلب الأحيان، وتنزعُ نحو شخصية واحدة، أو مجموعة محددة من الناس"[1].

أما الحكاية: فهي أكثر تطوراً من المُلحة والنادرة، سواء من حيث شريطة أن "تنقلها دون زيادة أو نقصان، وأن تتوخى الدقة والغبط في عملية النقل، لتبدو بصورة متكاملة، غير مفككة كالعقدة المقتولة"[2]، وليس شرطاً أن تبرع في رسم الشخصيات أو الكشف عمّا يجول في خاطرها، المهم "هو السرد المنسوب إلى راوٍ ولو أُخذ من التاريخ، أو الواقع مباشرة بإسناد"[3]، وهذا يعني أن يقوم راوٍ بسرد أحداث واقعية بدقة وحرفية دون زيادة أو نقصان، دون الإخلال بوحدتها، وبهذا يقاس نجاح أي حكاية، بغض النظر عن طولها أو حجمها.

٢- الإسناد والراوي:

ترتبط هذه الثنائية ببعضها ارتباطاً وثيقاً، فطالما كان هناك إسناد، فلا بدَّ إلا وأن يكون لها راوٍ.

التزم ابن عاصم بقضية الإسناد، والتي "أصبحت مظهراً من مظاهر الحياة الثقافية تفرض العادة وتقاليد الراوية وجوده"[4]، وأسند نواديه وحكاياته ومُلحة – لرواة نقل عنهم ابن عاصم، من عصور وأزمنة مختلفة، كما التزم ابن عاصم بتقديم الراوي الفعلي للنادرة أو الحكاية، والذي يروي ما شاهده أو سمعه بنفسه أو يروي عن غيره، أي أن ابن عاصم هو السارد الحقيقي المفارق لمرويه، الذي يتكفل بتقديم الراوي الفعلي للنادرة أو الحكاية، كقوله عن "الأصمعي أنه قال: كُنّا بطريق مكة في بعض المنازل، إذ وقعت علينا أعرابية.

---

(١) انظر د. عبد الحميد يونس، الحكاية الشعبية، دار الكاتب العربي، المكتبة الثقافية، العدد ٢٠٠، القاهرة، يونيو ١٩٦٨، ص٧٤-٧٥.

(٢) د. بشرى الخطيب، القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي، ط١، ١٩٩٠م، بغداد، ص٢٤.

(٣) د. عبد الله أبو هتف، القصة العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م ص٤٥.

(٤) د. عبد الله أبو هتف، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٤٤، ١٤٨، ١٧٧.

فقالت: أطعمونا أطعمكم الله: فناولها بعض القوم شيئاً، فقالت: كتب الله لك كل عدو إلا نفسك"[1].

أما صيغ الإسناد فكثيرة، وكلها أفعال في الزمن الماضي مثل:

قال: وقد وردت هذه الصيغة بشكل كبير في معظم النوادر والحكايات وكذلك صيغة كان، وحكى وسأل.

أما الرواة الذين نقل عنهم ابن عاصم، فهم كثيرون منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وهشام بن عبد الملك، والمأمون، والجاحظ، والأصمعي وغيرهم، وهؤلاء شخصيات معروفة لدى القارئ، كما روا عن شخصيات نكرة، لا نعرفها كأن يقول: نظر رجل إلى ؟؟؟ عالية فقال لها ..." وبذا يمكن أن نعرف الأزمنة والعصور التي نقل عنها نوادره وحكاياته.

٣- البناء الشكلي للحكايات والنوادر:

يعتمد البناء الشكلي للحكايات بصفتها شكلاً قصصياً على عنصرين هما: الشخصية والحدث، إذ تصطنع الشخصية الرئيسية في الحكاية مجموعة من الأحداث، أو الأخبار "تتصل أجزاؤها مع بعضها بعضاً، بحيث يكون لمجموعها أثر أو معنى كلي"[2]، شرط أن يتسم هذا الحديث بالإيجاز والبساطة وعدم التعقيد، تُظهر جملة بعض معالم الشخصية كما تحدد ملامح المكان والزمان الذي تقع فيه هذه الأحداث، وقد يظهر في هذا الحديث السردي نوعاً من التحاور بين الشخصيات من خلال طرح الأسئلة والإجابة عليها، مما يزيد في حيوية السرد، ويُبعد الملل عن القارئ ويزيد في تشويقه.

---

(١) ابن عاصم، حدائق الأزاهر، ص٢٩٤.

(٢) رشاد رشدي: فن القصة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٧٠م، ص ١١، ١٤.

٤- المكان والزمان:

تتضمن معظم النوادر والحكايات بعض الإشارات التي تدل على أمكنة محددة، وأزمنة محددة، ويكون لها في أغلب الأحيان علاقة، وارتباطاً بالبناء الشكلي للحكايات، تتحرك فيها الشخصيات، ومن الأمثلة على ذلك النادرة التالية:

"قال الأصمعي: رأيتُ أعرابياً بالبادية، قد بسط كساء للشمس، وهو يفتلي، فجعلتُ أنظرُ إليه، فكان يأخذ البراغيث ويدع القمل، فقلت له: في ذلك، فقال: ابدأ بالفرسان وأرجع للرجالة"(١).

تتضمن هذه النادرة إشارات تدل على الخبرين: المكاني والزماني، الخبر المكاني: الذي تتحرك فيها هاتين الشخصيتين والأصمعي والأعرابي" وهو البادية، أما الخبر الزماني: فيشير إلى وقت الظهيرة، وقت سطوع الشمس، لأن عملية التفلي تحتاج إلى ضوء، وكما هو في النادرة، يفتلي ليخرج البراغيث والقمل، كما تتضمن النوادر أزمنة أخرى هي زمن الحكاية وهو سابق على زمن التلقي، تلقي السارد للحكاية، وزمن الرواية، أي زمن رواية السارد بروايته وتقديمها للقراء.

٥- الشخصية:

الشخصية إحدى المكونات الرئيسية في النوادر والحكايات الواردة في كتاب ابن عاصم وحدائق الأزاهر، والمتتبع لتلك الحكايات والنوادر يلحظ أن بعضها يتجنب الكشف عن توازع الشخصيات وميولها الداخلية، وتكتفي بالإشارة إلى اسم الشخصية أو مهنتها، أو أية صفة أخرى تتميز بها، وقد لا تذكر اسم هذه الشخصية وتكتفي بقولها رجل، امرأة أو شيخ، أو عجوز أو غير ذلك من التسميات.

ومن النوادر التي تُمثل هذا الأمر، النادرة التالية:

"قالت امرأة للحصين بن المنذر: كيف سُدت وأنت قبيح نحيل؟ فقال: لأنني سديد الرأي، شديد الإقدام!" (١).

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص٦١.

تتضمن هذه النادرة بعض صفات الحصين السلبية، وبعض صفاته الإيجابية، فقولها له: بخيل قبيح، صفات سلبية خاطبته بها مباشرة، وقوله سديد الرأي شجاع صفات إيجابية ردَّ بها الحصين على المرأة التي وصفته بالقبح والبخل.

وتقدمُ بعض النوادر نماذج الشخصيات ذات مكانة رفيعة كشخصيات الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد: كشخصية عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان والمأمون والمهدي والحجاج وغيرهم، كما تُقدّمُ شخصيات عُرفت بالجنون والحمق والغباء كشخصية أبي العيناء وجحا.

كما وصفت شخصيات ذات مرجعية أدبية كشخصية الجاحظ والأصمعي، وأبي نواس وغيرهم.

لكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو مدى تأثر النوادر والحكايات الواردة في كتاب حدائق الأزاهر وانعكاس هذه العناصر على هذه الحكايات سواء من حيث طولها أو قصرها، شخصياتها والأمكنة والأزمنة التي تشير إليها، ولذا سأتناول كل حديقة على حدة، لأبين مدى تأثرها بهذه الأمور.

ضمَّ الكتاب بين طياته ست حدائق، وقسّم ابن عاصم كل حديقة منها للون، وكل باب لفرع من هذا اللون، ودراسة هذه الحدائق تقتضي إيضاح هذه الأقسام أولاً، لتتمكن الدراسة من دراسة لحكاياتها ونوادرها ثانياً، من حيث:

١- عددها.

٢- حجمها: أهي قصيرة أم طويلة؟

٣- هل تحتوي على بذاءة وفُحش في ألفاظها؟

٤- أُصولها مشرقية أم أندلسية؟

٥- هل تتضمن الشعر؟

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص٦٢.

ولتسهيل الأمر، تتجه الدراسة، لدراسة هذه الموضوعات مباشرة أي بعد ذكر أقسام كل حديقة، وذلك منعاً للتكرار، أو الإطالة والملل، أما الحدائق فهي:

١- **الحديقة الأولى:** وهي في المجاوبة البديهية، والمخاطبة المُرضية وفيها ثلاثمائة، وثمانية، وسبعين نادرة، تشتمل هذه الحديقة على ثلاثة أبواب هي:

الباب الأول: وهو في مسكت الجواب، ومفحم الخطاب

توزعت النوادر في هذا الباب إلى ما يقارب الخمسين نادرة، ما نلحظه عليها تفاوت طولها، وتراوحه ما بين القصيرة والمتوسطة الطول، وأعتقد أن لهذا علاقة بالنوع الأدبي الذي تنتمي إليه، فهي تتراوح ما بين المُلحة والنادرة، فرغم تشابههما واعتماد كل منهما على الشخصية والحدث، إلا أنهما تختلفان في تطور الفعل أو الحدث، وتعدد شخصياته، فرغم أن المُلحة قصيرة وموجزة، وتُعنى بالسمات السلبية وتبحث عنها في الجوانب الخفية للنفس الإنسانية، لإدانتها والسخرية، إلا أنها لا تغوص في أعماق هذه السمة، بل تبقى على سطحها، تلامسها ملامسة سطحية وغير عميقة، لتتمكن من تحقيق هدفها وغرضها من الفكاهة والضحك، وهذا ما يجعلها قصيرة وموجزة ومكثفة وأكثر إيحاءاً وأقدر على الإضحاك والتسلية والترفيه.

ومن الأمثلة عليها المُلحة التالية:

"قال عقبة بن أبي معيط لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أو بضرب عنقه يوم بدر: مَنْ للصبية يا محمد؟

قال: النار!!" [1].

فجواب الرسول الكريم يدل على الذكاء، وسرعة والبديهة والجواب المسكت، المفحم، وما يدل على الضحك في هذه المُلحة، هذا النمط من الإجابة التي تخلو من الشفقة، إذ لو دخلها شيء من الشفقة أو العاطفة، لا نتفت الفكاهة، وفقدت قدرتها على الإضحاك إضافة

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص٤٧.

لحالة التصلب والاندهاش التي أصابت عفية، بعد سماعه لتلك الإجابة التي لم يكن يتوقعها من الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فرغم إيجازها إلا أنها تحمل معانٍ ودلالات كثيرة.

وهذه مُلحة أُخرى، قصيرة وموجزة، لكنها مليئة بالدلالات والإيحاءات، بالإضافة لألفاظ البذاءة التي تحتويها تقول المُلحة:

"قال رجل لجارية أبيه: يا زانية! فقالت: لو كنت كذلك لأتيت بآخر مثلك!!" [1].

فجوابها يدل على ذكائها وفطنتها وسرعة بديهتها، التي أسعفتها بمثل هذه الإجابة المفحمة، المسكتة التي تخلو من الشفقة، ولا مكان للأحاسيس والانفعالات أو المجاملات، "فليس من عدو للضحك سوى الانفعال"[2]. أو الشفقة، فإنها تميت الإحساس بالفكاهة، وتقتل الرغبة بالضحك.

أما النوادر فإنها تُشكلُ نسبة عالية في هذا الباب إذا ما قيست بالمُلح، التي لا تُشكل إلا نسبة ضئيلة فيه، والنوادر وإن اتسمت بالقصر والإيجاز، إلا أنها تتميز عن المُلحة بتطور حخدثها وتعدد شخصياتها، خاصة وأنها تدور حول الحياة اليومية تستقي من موضوعاتها وأحداثها التي "تخلو من التعقيد، وتغلب عليها المفارقات في أغلب الأحيان"[3].

ومن الأمثلة عليها النادرة التالية:

"قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال له ابن عباس: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم"[4].

بداية لا بدَّ من الإشارة إلى أن هذه النادرة تحملُ مضموناً سياسياً، يتعلق بالخلاف الذي نشب بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وانتهى بمقتل علي وقيام الدولة الأموية ففي هذه النادرة، يحاول معاوية أن ينال من ابن عباس وهو الصحابي الجليل

---

(1) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٥٦.

(2) هنري برغسون: الضحك، ترجمة علي مقلد، ص١١.

(3) انظر د. عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية، دار الكاتب العربي، المكتبة الثقافية، العدد ٢٠٠، القاهرة، يونيو ١٩٨٦، ص٧٤-٧٥.

(4) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص٤٧.

عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي، الذي روى عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الأحاديث الصحيحة (ت. ٨٦هـ) وكان قد أُصيب بالعمى، لا بل وأن ينال من الهاشميين كلهم ويسخر منهم ومنه بعد أن أُصيب بالعمى، وقد تمثل ذلك بقوله: أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، فالعمى ليس عاراً يلحق بمن أصيب به، إلا أن ابن عباس وما عُرِف عنه من حذاقة وذكاء وفطنة، وبديهة حاضرة، ردَّ عليه رداً يماثل الرد الذي قاله له معاوية، وقد تمثل هذا الرد بقوله: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم، وهذا يعني عدم قدرتهم على الفهم أو الإدراك، ولتحقيق هذا الأمر استعان بالجناس وقابل بين أبصاركم وبصائركم، هنا موضع الفكاهة ومكمن الضحك.

إنَّ الطابع المهيمن على السرد في هذه النادرة هو التناوب بين السرد والحوار، وهذا يتناسب مع طبيعة الموضوع الذي طرحه معاوية، والذي يتضمن تهكماً وسخرية من ابن عباس، كما يتناسب مع طبيعة الجواب الذي تلقاه معاوية من ابن عباس، هذه المحاورة القائمة على السؤال والجواب، تخلق نوعاً من التوتر والتنامي الحواري، كما تخلق رغبة في التفكير بالمضمون الذي تطرحه هذه المحاورة.

وتتسم ألفاظه بالوضوح وعدم الغموض أو التعقيد، لكنَّ معانيه تحتاج إلى التفكر لإدراك مغزاها، وفيما يتعلق بأصول هذه المُلح والنوادر فإنها تعود لأصول مشرقية.

الباب الثاني:

وهو في مستحسن الأجوبة، التي هي عن ذكاء قائلها معربة وفيه مئتان وأربعة وتسعون نادرة ومُلحة، تتراوح ما بين القصيرة والمتوسطة الطول، يتصف قائلوها بالذكاء، والفطنة، وسرعة الفهم، والبديهة الحاضرة، ومن الأمثلة على مُلح هذا الباب المُلحة التالية:

"قيل لأبي الأسود الدؤلي: أشهدَ معاوية بدراً؟

قال: نعم من تلك الناحية!" [1].

ومنها أيضاً:

---

(1) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص٥٩.

"كان بالبصرة مجنون يأكل التمر بنواه، فقيل له بنواه تأكل التمر؟ قال: كـذا وزنـوه علي!" (1).

يتسم البناء في هاتين المُلحتين بالبساطة وعدم التعقيد، وسـهولة الألفـاظ، ويكـشف الحوار في المُلحة الأولى عن شخصية بسيطة وغير معقدة، تصطنع لنفسها الغفلة والـسذاجة ربما لأجل التسلية والترفية أما الحوار في المُلحة الثانية فيكشف عن شخصية غبية وسـاذجة أخبر عنها جوابها الذي ردّت به على من سألها عن أكلها التمر بنواه.د

أما النوادر في هذا الباب فهي الغالبة عليه، وموضوعاتها متعددة ومن الأمثلة عليهـا النادرة التالية:

"وضع المأمون طعاماً، وكان عنده أعرابي، فقال: يا أعرابي هلّم، قال: إني صـائم، فاختلفت الألوان، فرأى جدياً مشوياً فغسل يده، فقال له المأمون: ألم تقل إنك صائم؟!

قال: اقدر على صيام يوم آخر، ولا أقدر على إعادة جدي مثل هذا"(2).

يعتمد البناء في هذه النادرة على السرد، فهو السمة الغالبة عليه وأن تناوبه الحـوار، لكنه كان قليلاً، والحدث فيها يتناول قضية حياتية يومية، تتمثل بحب الناس للطعام ورغبـتهم في تناول اللحم، وخاصة المشوي منه.

فالأعرابي استطاع أن يُخلص نفسه من هذا الموقف الحرج والمباغـت الـذي تمثـل بوضع جدي مشوي أمامه، فبعد أن اعتذر عن تناول الطعام بحجة أنه صائم، قام وغسل يديه ليأكل، فلما رآه المأمون تعجب منه وسأله عن قيامه لتناول الطعام، فوجد ما يخلصه من مأزقه بطريقة ظريفة تدعو على الضحك وذلك عندما قال للمأمون بعد أن وَضعَ الجدي أمامه، أقدر على صيام يوم آخر، ولا أقدر على إعادة جدي مشوي مثل هذا، فبفضل ذكائه، وحسنُ تدبره استطاع إيجاد مخرج مناسب يُضحكُ المأمون، ويأكل الطعام.

---

(1) المصدر السابق، ص61.

(2) المصدر السابق.

تضمن هذا الباب بعض النوادر التي ضمت إليها بعض الأبيات الشعرية، وقد بلغ عددها سبعة نوادر، ومن الأمثلة عليها.

النادرة التالية:

"وأُتي عبد الملك بن مروان بأعرابي يسرق، فأمر بقطع يده، فأنشأ يقول:

يدي يا أمير المؤمنين أُعيذُها	بعفوك أن تلقى مكاناً تشينُها
ولا خير في الدنيا، وكانت حبيبةً	إذا ما شمالي فارقتها يمينُها"[1]

النادرة تسرد أحداثها شعراً، فعبد الملك بن مروان وبعد أن أمر بقطع يد الأعرابي الذي سرق، انشأ هذه الأبيات المستعطفة بها ويعلن للخليفة أنه لن يعود للسرقة ثانية، ويؤكد توبته باستعطاف آخر يحاول من خلاله إثارة الشفقة في نفس عبد الملك مغلقة بقالب فكاهي شعري، يمكن أن يُضحك ويدخل السرور إلى القلب، إذ يخبر الأعرابي الخليفة بأن الدنيا لن تصبح جميلة وحبيبة بالنسبة إليه كما كانت سابقاً أما إذا قُطعت يده وفارقت شماله يمينُها، فلن تصبح الدنيا كذلك.

كما تضمن هذا الباب بعض النوادر البذيئة، ذات الألفاظ الفاحشة ومنها النادرة التالية:

"دخل أبو علقمة على طبيب، فقال: إني أجد في بطني غمغمة وقرقرة! فقال له: أما الغمغمة فلا أعرفها، وأما القرقرة فضراط لم ينضج"[2].

وفي الباب نوادر تضمنت بعض الآيات القرآنية، جيء بها في النوادر لتكسبها قيمة وأهمية، ومنها النادرة التالية:

"صلى الأعمش في مسجد قوم، فأطال بهم الإمام، فقال له الأعمش يا هذا، لا تطل صلاتك، فإنه يكون ذو حاجة، والكبير والضعيف قال الإمام "وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين" قال الأعمش أنا رسول رأس الخاشعين إليك، إنهم لا يحتاجون إلى هذا منك"[3].

---

(1) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص٨٠.
(2)
(3)

الباب الثالث:

وهو في أبيات شعر وقعت جواباً، واستعملت خطاباً، وعدد النوادر فيه أربعة وثلاثين نادرة.

يقع هذا الباب في أبيات من الشعر وقعت جواباً واستعملت خطاباً، وذلك لاستحسانها وبلاغتها، وفصاحتها التي تدل على ذكاء قائلها، وفهمه، وسرعة بديهته، لما تتضمن من عبرٍ أو حكمٍ أو نصائح تهدف إلى تهذيب أو إصلاح، وكثيراً ما نرى اختلاف هذه الأجوبة، وتفاوتها، فقد تراها جواباً مفحماً مسكتاً، أو رداً مماثلاً، لقد جمعت النوادر في هذا الباب، نوادر تتراوح ما بين المتوسطة الطول والطويلة نوعاً ما.

يقوم بنائها السردي على جانب نثري، يشير للحدث الرئيس الذي تدور حوله معظم الأحداث، ويتناوبه الشعر ثم النثر، بحركية توالدية إلى أن تنتهي النادرة، مما يخلق عنصر تشويق ويضفي على النادرة حيوية ورشاقة وحركية يزيد منها الحوار الذي يتناوب مع السرد فيها، وهي رغم هذا تظل مترابطة، متسلسلة، رغم توالد الأحداث فيها أما ما يؤخذ عليها أنها تحتوي على بعض ألفاظ البذاءة والفحش مما يخدش حياء المتلقي، ومن النوادر التي تمثل هذا النوع، النادرة التالية:

"قال الأصمعي: رأيتُ أعرابياً يضاجر أخاه، فقال له أخوه: واللهِ لأهجونّك!

قال: وكيف تهجوني، وأبي أبوك، وأمي أُمك؟

قال: اسمع ما أقول:

لئيمٌ أتاه اللؤم من ذاتِ نفسهِ ولم يأت من إرثٍ من أم ولا أب"[1].

أما النوادر الطويلة فخير ما يمثلها النادرة التالية:

"طلق الوليد بن يزيد زوجته سُعدى، فلما تزوجت اشتدَّ ذلك عليه وندم، فدخل عليه أشعب، فقال له: أبلغ سُعدى عني رسالة، ولك عندي خمسة آلاف درهم، قال: عجلها! فأمر له بها، فلما قبضها، قال: هاتِ رسالتك، قال: أئتها وأنشدها:

---

(1) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١١٧.

أسـعدى هـل إليـك لنـا سـبيلُ ولا حتـى القيامـةِ مـن تـلاقِ

بلـى ولعـلَّ دهـراً أن يـواتي بمـوت مـن خليلـكِ أو فـراقِ

فأتاها، فاستأذن عليها، فأذنت له، وقالت: ما بدا لك في زيارتنا؟ قـال: يـا سـيدتي أرسلني إليكِ الوليد برسالة، وأنشدها الشعر، فقالت لجواريها: خذنَّ هذا الخبيـث! فقـال: يـا سيدتي، جعل لي على ذلك خمسة آلاف درهم! قالت: والله لأعاقبنّك أو تُبلغَ إليه ما أقول، قال: يا سيدتي، أجعلي لي شيئاً، قالت: لك بساطي هذا، قال: قومي من عليه، فقامت، فألقـاه إلـى ظهره وقال: هاتِ رسالتكِ، قالت له:

أتبكي علـى سُـعدى وأنـتَ تركتهـا فقد ذهبتْ سُعدى فما أنت صـانعُ؟![1].

ومن النوادر التي تتضمن معنى الفحشِ النادرة التالية:

رمت امرأة ماجنة للجوزي رقعة فيها مكتوب: ما يقول سيدي في امرأة أصابها حكاك في فرجها:

فأجابها:

يقولـون ليلـى بـالعراق مريـضةٌ فيا ليتنـي كنـت الطبيـبَ المـداويا[2].

الحديقة الثانية:

وهي في مداعبات يُستجلبُ بها السرور، ومضحكات تميل إليها النفوس، وتنشرح بها الصدور، وفيها مئتان وسبعة وتسعون نادرة أو مُلحة، وتضمُ خمسةَ أبوابٍ هي: الباب الأول:

وهو في ترويح الأرواح بمستحسن المُزاح، وفيه ستة وعشرون نادرة ومُلحة.

لم تأخذ النصوص الحكائية في هذا الباب شكلاً واحداً بل تنوعت، حتى تراوحت مـا بين النادرة والمُلحة، وما يُروى عن الرسولِ الكريم من أحاديث أو مواقف، تضمن هذا الباب بعض ما رُوي عن الرسول الكريم من أحاديث تكشف وتبين موقفه من المُـزاح والـضحك، وعدم ممانعته للهو والمُزاح، والرسول الكريم في موقفه هذا إنما يعكس موقف الدين الحنيف،

---

(1) المصدر السابق، ص١٢١.

(2) المصدر السابق، ص١١٣.

إذ وردت بعض الآيات القرآنية التي تؤكد هذا الموقف وتبين أحوال المؤمنين، وما هم عليه من فرح وسرور وضحك، إذ هم في الجنة فكهين بما آتاهم الله من نعيم.

أما الأحاديث التي وردت عن الرسول في هذا الباب الحديث التالي:

كان النبي صلى الله عليه وسلم، يمزح ولا يقول إلا الحق، فمن ذلك قوله لإحدى عماته: "إنَّ الجنة لا تدخلها عجوز، فما جزعت من ذلك قال لها: إنَّ الله يخلقهنَّ يوم القيامة ثواب أبكاراً" مما أفرحها وأدخل السرور إلى قلبها.

إنَّ استحضار المؤلف (ابن عاصم) بعض الأحاديث النبوية الشريفة لهو دليل على رغبته في تبرير ما قام به عند تأليفه لهذا الكتاب لإحساسه بأن بعض الفئات الموجودة في مجتمعه وقد تأخذ عليه التأليف في مثل هذه الموضوعات، فأراد أن يدفع التهمة عن نفسه وأن يردَّ أيَّ لوم قد يوجه إليه، فابن عاصم كان يدرك أن الضحك والمُزاح والفكاهة لا تتعارض مع الدين وأنه رجل فقه وشريعة والتأليف في مثل هذا الموضوع لا يفسد عليه دينه أو خلقه.

أما طول النوادر والمُلح في هذا الباب فتتراوح ما بين القصيرة والمتوسطة الطول، تتسم كل منهما بالقصر والبساطة وعدم التعقيد وتنزع كل منهما نحو شخصية واحدة، أو أكثر خاصة إذا ما تطوّر الحدث وتعددت الشخصيات.

فما يُروى من المُلح في هذا الباب الملحة التالية والتي لا غاية لها إلا التسلية وإثارة الضحك.

"سأل رجل عمرو بن قيس عن الحصاة، حصاة المسجد يجدها الإنسان في خفه أو ثوبه أو جبهته، فقال له: إرمِ بها، فقال: زعموا أنها تصيح حتى تُردُّ إلى المسجد، قال: دعها تصيح حتى ينشقُّ حلقها!! قال الرجل: أولها حلق؟!

قال: فمن أين تصيح إذن!!" [1].

تعتمد البنية الحكائية في هذه المُلحة على السرد الذي يتناوبه الحوار القائم على السؤال والجواب، لتكمل الشخصيتان الموقف الفكاهي في هذه المُلحة، ويتسم حوارهما بالبساطة

---

(1) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١٣١.

والسهولة وعدم التعقيد رغم تطور الحدث، وما يثير الضحك فبهذه المُلحة أن جعل لها حلقاً تصيح منه من خلال تجسيدها لها وجعلها كائناً حياً له حلق يصيح منها، ممازحة لطيفة ممزوجة بنوع من التعامل المقصود لإضحاك الآخرين.

الباب الثاني:

وهو في المضحكات المستحسنة الخفيفة على الألسنة، وفيه مئة وواحد وخمسون نادرة ومُلحة.

ينسجم المضمون في نوارد هذا الباب مع العنوان الذي وضعه له ابن عاصم، وذلك لأن كثير من الشخصيات تصطنع لنفسها الغفلة والحمق والبله، مع أنها في حقيقة أمرها شخصيات طريفة، تتصف بالذكاء، وسرعة البديهة، ولديها القدرة على التحايل، لإيجاد الرد المناسب للخروج من أي مأزق قد يواجهها، ومن هذه الشخصيات، شخصية الشاعر أبي نواس، وشخصية جحا التي عُرفت بالحمق والغفلة.

ومن نوادرهم النادرة التالية:

"بعث الرشيد إلى أبي نواس براءة مختومة، فلما فتحها، لم يجد فيها شيئاً، ففكر طويلاً، ثم رأى الرجل الذي جاء بها أصلع وهو يطلب منه الجواب، فقال له: إن أردت الجواب فإنما أكتبه في أسك، وإلا انصرف دون جواب، فقال له: اكتب، فكتب فيه شعراً، وكتب في آخره: وبالله ألا مزقتم الرقعة إذا قرأتموها، فلما قرأ الرشيد ذلك، أمر بصفع الرجل، فصُفِعَ حتّى أمحى ذلك الكتاب، الصفع، والرشيد يضحك"[1].

يقوم البناء في هذه النادرة على السرد وإن تخلله حوار فإنما هو قليل، تدور الفكرة الرئيسة في هذه النادرة حول رغبة الخليفة العباسي الرشيد في ممازحة أبي نواس، وإثارته لخلق جو ضاحك، فيه ترفيه وتسلية وترويح عن النفس، حتى تتابع السرد في هذه النادرة جاء ليخدم تلك الفكرة وينميها، ولذا فإننا نرى أن السرد قد جاء سهلاً مترابطاً لا تعقيد فيه، لينسجم مع الغاية التي أنشئ هذا النص من أجلها وهي التسلية والترفيه.

---

(1) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١٣٤-١٣٥.

ومن نوادر جحا أيضاً النادرة التالية:

"خرج جحا يوماً على الصبيان، فقال: مَنْ يخبرني بما في كمي، وأعطيه أكبر خوخة فيها؟!!

فقال له الصبي: خوخ، فقال: ومن هذا الولد، زنى الذي قالها لك"[1].

أما ما يؤخذ على بعض نوادر هذا الباب احتوائها على بعض معاني البذاءة مما يقلل من شأن الكتاب، ويقلل من قيمته الأدبية ومن النوادر التي احتوت على بعض هذه المعاني، المُلحة التالية:

"أتت امرأةٌ إلى عطّار، فقالت له: أعندك شعر إبليس؟! قال: نعم، فدخل قاعة الحانوت، فنفخ شدقة، وضرط وزبيط ونتف من إبطه شعرات وأعطاها، قالت: هذا هو؟!! قال: نعم، أما سمعتِ تَوزَوُزَهُ حين كنت أنتفه، فقالت: صدقت، لعن الله صاحب الشعرات"[2].

وفيما يتصل بأصول هذه النوادر والمُلح، فإن أغلبها أُصوله مشرقيه فيما عدا بضع نوادر لها أُصولاً أندلسية، نثرها المؤلف بين نوادر هذا الباب، ليرضي أذواق المتلقين، كما أن الباب يتضمن نادرة واحدة وردت على لسان الحيوانات، تبين دلالتها أن الاحتيال قد لا يفيد في بعض الأحيان، ودلالة هذه النادرة دلالة رمزية، نستخلصها من خلال الحوارات التي تمت ما بين الديك والثعلب، لدرء أي عقاب أو ملاحظة من السلطة لابن عاصم.

ليعرف من خلال هذا الرمز، بعض الشخصيات الموجودة في مجتمعه والتي تحتال بالنفاق للوصول إلى أهدافها وتحقيق أغراضها.

أما نادرة الثعلب والديك فهي:

"صرخ ديك في شجرة، فسمعه ثعلب، فأتى إليه، فقال: أبا المنذر! أذّنت؟ قال: نعم، قال: انزل نصلِّ جماعة، قال الديك: أيقظ الإمام فتخيّل الثعلب أنه ديك آخر، فرأى كلباً له ذنب

---

(1) المصدر السابق، ص١٤٠.

(2) المصدر السابق، ص١٣٨.

أكبر من كلحته، فهرب ولم يردَّ رأسه، فقال الديك: يفوت الوقت: قال: انتقض الوضوء، أجده وأرجع إن شاء الله"[1].

ومما يُسجل لهذه النوادر أنها تتضمن بعض الآيات القرآنية التي تساهم في تشكيل البناء الغني لهذه الحكايات، وتؤكد على قضية محددة أو موقف تعبر عنه هذه النوادر، ومنها النادرة التالية[2]:

"يُحكى أنَّ رجلاً لقي آخر فقال له: من أين أقبلت؟ فقال له: من عند أهلونا، فتحجب السائل من فصاحته ثم قال له: قد علمت من أين أخذت هذا من قوله تعالى: "شغلتنا أموالنا وأهلونا"[3].

الباب الثالث:

وهو في المضحكات المستملحة، وإن كانت ألفاظها مستقبحة وفيه سبع وستون نادرة.

يمتلئ هذا الباب بالألفاظ الجنسية المكشوفة، بل والفاضحة أيضاً، وذكر هذه النوادر، أو حتى سماعها، يخدش الحياء قد لا يتذوقها ابن عاصم، لكنه يرى أن لها مَنْ يتذوقها في عصره ممن يملون لمثل هذا النوع من الأدب، يرتبط بروز هذا النوع بأكثر العصور ظلماً وجهلاً، وقهراً سياسياً واجتماعياً، وعصر ابن عاصم فيه مثل هذه الأحوال، فيه ظلم، وقهر سياسي واجتماعي، تحلل المجتمع من بعض قيمه وأخلاقه، لم يعد يرَ بمثل هذا النوع من الأدب أيَّ حرج أو خجل أو عيب، بل يرون فيه تعبير عن حالات الاضطراب والفوضى التي يعيشونها ومن هنا جاءت تسمية ابن عاصم لتلك النوادر بالمضحكات المستملحة وإن كانت ألفاظها مستقبحة؛ لأن لها مَنْ يستملحها ويستظرفها.

يتراوح حجم هذه النوادر ما بين القصيرة، والمتوسطة الطول، تبعاً لتطور الأحداث والمواقف فيها، أما الشخصيات في هذه النوادر والتي يقع عليها العبء الأكبر في تطور

---

(1) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١٣٣.

(2) المصدر السابق، ص١٤٦.

(3) الآية: ١١ من سورة الفتح.

الأحداث فهي شخصيات ليس لها أي سمات محددة، أو أية دلالة واضحة تدلُ على مكانتها أو ثقافتها، إذ عمد منشؤها لعدم تسميتها باسمها إلا فيما ندر.

سأنتقي من بين هذه النوادر، الأقل خدشاً للحياء ومنها النادرة التالية:

"تزوج رجل امرأة، فولدت له يوم دخوله بها، فقال لها: ما هذا؟ فقالت: أظنك مُلحداً قدرياً؟!

قال: وكيف ذلك؟

قالت: ما الله سبحانه قادرٌ أن يخلق الولد من ساعته؟!! فقام إليها وقبل رأسها، وقال لها: قولك بالسنَّةِ أحبُ إليّ من هذا المولود!!" [1].

يقوم البناء في هذه النادرة على السرد الذي يغلب عليه الحوار، تلك الأداة التي تساعد على تصوير الشخصيات تصويراً واضحاً ودقيقاً واستكناه خبايا نفوسها، والحوار في هذه النادرة استطاع أن يجسد معتقدات المرأة واتجاهاتها الدينية والاجتماعية الفاسدة فهي تقبل بالزنا، كما ساهم في تجسيد معتقد الرجل الديني والاجتماعي الذي يدل على جهله بأمور دينه، كل هذه المواقف تدلُ دلالة واضحة على فساد المجتمع ممثلاً بالرجل والمرأة – وفساد القيم الأخلاقية والاجتماعية، ودلالة هذه النادرة دلالة رمزية، ضمنها ابن عاصم لكتابه، ليشير إلى مجتمعه وما هو عليه من فساد وانحلال أخلاقي وديني، وكأنه بهذا أراد أن يعرّي تلك الطبقة ويضع يده على ما تعانيه من فساد وانحلال ليساعد على بث الوعي وتوجيهه نحو الصلاح والخير.

الباب الرابع:

وهو في المضحكات الشعرية، وفيه ستٌ وثلاثون نادرة، بعضها لا يخلو من الفكاهة اللطيفة المحببة، لما تبثه في النفوس من ضحك وسرور، وبعضها الآخر لا يخلو من بعض النوادر التي تدور حول بعض المعاني الجنسية المكشوفة، أو الألفاظ البذيئة، أما حجم النوادر في هذا الباب، فإنها تتراوح ما بين المتوسطة الطول والطويلة، ولذلك علاقة بطبيعة الأحداث

---

(1) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١٦٧.

التي تميل إلى التطور مع ما يرافق ذلك من تعدد للشخصيات، وما يتخلل السرد فيها من حوارات.

أما تسميته هذا الباب بالمضحكات الشعرية، فلا يعني أنها تقتصر على الشعر، بل إنها تحتوي على الشعر والنثر معاً تبدأ بالجزء النثري الذي يتضمن تعريفاً أو تفسيراً، يُعرّفُ بشخصيات النادرة والحدث الرئيسي فيها، ثم يليه الجزء الشعري، ولا تكتمل إلا بالجزأين معاً الشعري والنثري ، ومن النوادر في هذا الباب النادرة التالية:

"أهدى بعضهم على أميرٍ يوم نيروز عصافير أحياء في طبق، وجعل معها رقعة فيها مكتوب:

عصافيرٌ تبعثُ بها ملامحٌ	ليضحك لا ليأكلها الأميرُ
وما أهدى إلى ملك سوائي	عصافيراً على طبق تطيرُ

فلما وضع الطبق بين يدي أمير المؤمنين، ورفع عنه الغطاء، طارت العصافير، فرفع الرقعة، وقرأ الشعر، فضحك وأمر له بجائزة سنية"[1].

تحي هذه النادرة، حكاية الرجل الذي أهدى العصافير لأحد المؤمنين يوم نيروز حينما كانوا يحتفلون بقدومه عليهم، تُروى النادرة شعراً ونثراً معاً بأسلوب سردي سهل وغير معقد ويخلو من الحوار، ورغم هذا التناوب ما بين الشعر والنثر فإن البناء الفني للنادرة يبدو عليه الترابط، والتناسق بين أجزائه الشعرية والنثرية.

أما النوادر التي تدلُّ على الألفاظ البذيئة فمنها النادرة التالية:

"دخل أبو الفضل بديع الزمان، على الصاحب بن عبّاد، ففرح به وأجلسه معه، فضرط البديع ضرطة منكرة، ثم أراد أن ينفي عن نفسه التهمة، فقال: يا مولاي هذا صرير التخت!! فقال له الصاحب: هذا صغير التخت، فخرج البديع خجلاً، وانقطع عن الوصول إليه، فكتب إليه الصاحب:

فإنها الريحُ لا تستطيع تدفُقها	إذ لست أنت سليمان بن داود[1]

([1]) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١٧٣.

يعتمد البناء الفني في هذه النادرة على الحدث والشخصية وما يمكن أن نميزه بين هذه الأحداث والحدث الرئيس الذي يتمحور حول خجل بديع الزمان الهمذاني، من الوزير الصاحب بن عباد بعد أن ضرط أمامه ضرطة منكرة، وانقطاعه عن مجلس الصاحب فترة من الوقت، فما كان من الصاحب إلا أن كتب إليه يدعوه فيها لأن يعود لمجلسه، وأن لا يخجل مما أحدثه أمامه، كتبها ببيتين من الشعر، لما يحتويه الشعر من عواطف جياشة، وقدرة على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر التي يُكنّها الصاحب تجاه بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات والكاتب الهزلي.

وفيما يتصل بأصول هذه النوادر، كان أصولها مشرقية، وأغلبها يمثل العصرين الأموي والعباسي، وما يدلل على ذلك، ذكر بعض شخصيات هذين العصرين، كشخصية هشام بن عبد الملك، وشخصية المأمون والمهدي، وسيف الدولة وغيرهم.

الباب الخامس:

وهو في المضحكات المطولات وفيه ثمانية عشرة حكاية، وهي حكايات طويلة، تشبه إلى حدٍ ما القصة القصيرة لتوفر عناصر القص فيها من شخوص وحدث وغير ذلك، وجُلُّ هذه الحكايات يكشف عن ألفاظ جنسية بذيئه تخدش الحياء، ومن الأمثلة عليها النادرة التالية التي تقوم على السخرية والتهكم من أصحاب اللحى الطويلة، واتهامهم بقلة العقل والجهل.

تقول الحكاية:

"كان المأمون جالساً مع ندمائه ببغداد، مشرفاً على دجلة، وهم يتذكرون أخبار الناس، فقال المأمون: ما طالت لحية إنسان قط، إلا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته، وما رأيت قط عاقلاً طويل اللحية! فقال له بعض جلسائه، ولا يرد على أمير المؤمنين، قد يكون في طول اللحى أيضاً عقل! فبينما هم يتذاكرون في هذا، إذ أقبل رجل كثير اللحيـة، حسنُ الهيئة والثياب، فقال المأمون: ما تقولون في هذا الرجل؟!!

([1]) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١٧٨.

فقال بعضهم: هذا رجل عاقل، وقال آخر: يجب أن يكون هذا قاضياً فقال المأمون لبعض الخدم: عليَّ بالرجلَ!!، فلم يلبث أن صعد إليه ووقف بين يديه، فسلّم، فأجاد السلام، فأجلسه المأمون واستنطقه بأحسن النطق، فقال له المأمون: ما اسمك؟ قال: أبو حمدويه، قال: والكنية؟ قال: علويه، فضحك المأمون وغمز جلساءه، ثم قال: ما صنعتك؟ فقال: أنا فقيه أُجيد الشرح في المسائل! فقال له: نسألك عن مسألة؟!

فقال الرجل: سل عما بدا لك! فقال المأمون: ما تقول في رجل اشترى شاه من رجل، فلما أخذها المشتري، خرجت من إستها بعرة ففقأت عين رجل، على مَنْ توجب دية العدل؟ قال: فأطرق طويلاً ينظر بالأرض أوجبت الدية عليه دون المشتري؟ قال: إنه لما باعها لم يشترط أن في إستها منجنيقاً، قال: فضحك المأمون حتى استلقى على قفاه وضحك كل من حضر، وأنشأ المأمون يقول:

ما أحدٌ طالت له لحية	فزادت اللحية في هيئته
إلا وما ينقصُ من عقله	أكثر مما زاد في لحيته"[1]

تتوفر في هذه الحكاية الطويلة، أغلب عناصر القصة القصيرة من أحداث، وشخصيات، وسرد وحوار وغير ذلك ...

تدور معظم الأحداث في هذه الحكاية حول فكرة رئيسية هي السخرية من أصحاب اللحى الطويلة، والتندر بلحاهم، واتهامهم بقلة العقل، والجهل بأمور الدين، ويتنامى الحديث ويتطور، ويتناوب السرد مع الحوار، ويعرض كل شخص وجهة نظره في هؤلاء، إلى أن يظهر عليهم شخص له لحية طويلة، حسنُ الهيئة والمنظر، يستدعيه الخليفة ويحضره إلى مجلسه بقصد التندر به، والسخرية منه، فيطرح عليه سؤالاً، حول مسألة غامضة ومعقدة، فيجيبهم عليها إجابة طريفة، أضحكت الخليفة حتى استلقى على قفاه، وضحك كل من في

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١٨١-١٨٢.

المجلس، وفيما يتصل بحجم هذا النوع من الحكايات الطويلة أعتقد أنه قد وُفق في هذه التسمية فهناك توافق وتناسق بين العنوان والمضمون، كما أنَّ هناك ترابطاً وتسلسلاً في الأحداث وفي علاقاتها مع الشخصيات، وفيما يتصل بأُصولها، فإنها ذات أصول مشرقية.

صور للفكاهة في كتاب الحدائق:

١-الردّ بالمثل

وهو أحد ألوان الفكاهة الذي يُستخدَم بقصد إثارة الضحك ، ويأتي إذا كان قصد المتكلم أن يسخر ، أو أن يستهزئ بالمخاطب ، ولكي يحدث هذا اللون فإنه يحتاج إلى بعض العناصر الهامة في الشخص الذي -سُخِرَ منه - لعلّ من أهمها أن يتمتع بالذكاء والفطنة والبديهة الحاضرة-وأن يتوافر عنصر المفاجأة وعدم التوقع كمثير للضحك أو دافع إليه.

ومما ورد في هذا الباب النادرة التالية:

"قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم ، فقال له ابن عباس: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم"[١].

بداية لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه النادرة تحمل مضموناً سياسياً يتعلّق بالخلاف الذي نشب بين الخليفة على بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وانتهى بمقتل علي وقيام الدولة الأموية ،ففي هذه النادرة يحاول معاوية أن ينال من ابن عباس وهو الصحابي الجليل عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي الذي روى عن الرسول محمد صلّى الله عليه وسلم الأحاديث الصحيحة ت ٨٦هـ وكان قد أُصيب بالعمى ، لا بل وأن ينال من الهاشميين كلهم ، ويسخر منهم ومنه-حيث أصابه العمى ، وقد تمثّل ذلك بقوله أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، - فالعمى ليس عاراً يلحق بمن أصيب به، إلا أن ابن عباس وما عُرِف عنه من الحذاقة ، والذكاء ، والفطنة والبديهة الحاضرة ، ردّ عليه ردّاً، يماثل الرد الذي قاله له معاوية.

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٤٧

وتمثّل هذا الردّ بقوله: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم ففي هـذا الـردّ إشارة إلى انهم -بني أمية - مصابون في بصائرهم وهذا يعني عدم قدرتهم على الفهـم أو الإدراك.

ولتحقيق هذا الأمر استعان بالجناس وقابل بين أبصاركم -بصائركم. وهنا يكمن موضع الفكاهة ومكمن الضحك.

ومما " يروى في هذا الباب أيضاً أنّ بثينة[1] دخلت على عبد الملك بن مروان ، فحدّد النظر إليها وقال : يا بثينة ما رأى فيكِ جميل[2] حين قال فيكِ ما قال؟ قالت: يـا أمير المؤمنين ما رأى فيك الناس حين ولّوك الخلافة؟

فضحك الخليفة حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها فما تـرك لهـا حاجـة إلا قضاها"[3] لقد أحسنت بثينة في الردّ على الخليفة عبد الملك بن مروان والذي تـضمّن سخرية وتهكماً من الخليفة لدمامته وقبح منظره.

وردّها كان ردّاً مماثلاً لما قاله لها- وما تضمّنه من سخرية وتهكم بهـا وقـبح شكلها .

ما أثار الضحك في هذه النادرة هو ردّ بثينة الجريء الذي يدلّ علـى الـذكاء والفطنة، والبديهة الحاضرة-ردها أضحكه لأنه كان قد تفاجأ به ، لعدم توقعه سماع مثل هذا الجواب.

---

(١) هي بثينة بنت ثعلبة العذرية، شاعرة من بني عذرة من قضاعة اشتهرت بأخبارها مع جميل ت(٨٢هـ)

(٢) هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي افتن ببثينة ت(٨٢هـ)

(٣) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٤٩-٥٠

ومما يروى في هذا الباب أيضاً " أنّ نصر بن سيّار"[1] مرّ بأبي الهندي وهو يتمايل سَكِراً ، فقال له نصر أفسدت شرفك بإدمانك الخمر فقال أبو الهندي : لو لم أفسد شرفي لم تكن أنت والي خراسان"[2].

لقد ردّ أبو الهندي رداً مماثلاً لقول نصر بن سيّار الذي كان يلومه على شرب الخمرة ويسخر منه ، لما يرتكب من آثام ومعاصي ومنكرات تسيء لشخصه وتقلل من قيمته ومهابته في مجتمعه ، وجاء ردّه متضمناً لمعنى السخرية اللاذعة والتهكم المقيت، وأنّ ما يتمتع به من مكانة في ولاية خراسان كانت بسبب تلك الخمرة والأفعال التي كان يقوم بها –والتي كانت لدى الحكام بسببها أُعطي ونال ما أراد له ولغيره، ومكمن الفكاهة والضحك يتمثل بحالة الاندهاش والذهول التي أصابته –نصر بن سيّار– الذي لم يكن يتوقع مثل هذا الردّ والذي يُفصح عن ذكاء وبديهة حاضرة.

٢–حسن التعليل.

وحُسن التعليل هو تبرير القيام بتدبير الفعل أو القول أو الحدث الذي يؤدي إلى الضحك، ، شرط أن يتسم بالمفاجأة وعدم التوقع.

ومما ورد في هذا الباب النادرة التالية:

" وتكلم ربيعة يوماً ، فأكثر وإلى جانبه أعرابي فالتفت إليه وقال : ما تعدّون البلاغة يا أعرابي؟

قال: قلّة الكلام وإيجاز الصواب.

قال: فما تعدون القيّ؟

قال: ما كنت فيه منذ اليوم.

---

(١) نصر بن سيّار بن رافع بن جري بن ربيعة الكناني، أمير من الدهاة (ت ١٣١هـ)

(٢) ابن عاصم. حدائق الأزاهر، ص٥٠

فكأنما ألقمه حجراً"[1] .

فما ردّ به الأعرابي على ربيعة كان تعليلاً وتوضيحاً للسؤال الذي سأله عنه- وهو "معنى العيّ" وهو ردّ مناسب لتلك الحالة التي كان عليها ربيعة وتمثلت بإكثاره من الكلام الذي لا فائدة ترجى منه – وردُّ الأعرابي يدلّ على الذكاء والفطنة وسرعة البديهة فكأنه بهذا الردّ قد ألقمه حجراً فأسكته.

لقد تفاجأ –ربيعة –بما سمع من الأعرابي ، لأنه لم يكن يتوقع سماع مثل هذه الإجابة من الأعرابي ، وأصابه الذهول وربما التصلّب ، وهو ما يدعو إلى الضحك .

ومما يُروى في هذا الباب أيضاً " أن رجلاً قال لبعض الشعراء:

-أنت تقذف المحصنات في شعرك.

فقال: إذاً لا يصيبُ أمك من شعري شيء"[2].

وهذا يعني أن أمه غير محصنة ، فكأنه قد اتهمها بالزنا– وهذا قذف وتعريض، والمضحك في هذه الحكاية هو الأثر الناتج عنها–وهو الإحساس بالتصلب والذهول الذي ظهر على الابن وما يصحبهما من حقد ورغبة في الانتقام .

٣-التهكم.

يقول صاحب اللسان " المتهكم هو المتقحم على ما لا يعنيه والذي يتعرّض للناس بشرّه ، وتهكّم بنا: زَرَىَ علينا وعَبَثَ بنا ، والتهكّم: التكبّر ، وهو السيل الذي لا يطاق ، والتّهكم هو الاستهزاء والوقوع في القوم"[3] .

---

(١) ابن عاصم، حدائق الأزاهر ، ص ٥٢

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٧

(٣) ابن منظور اللسان مادة هكّم

والتهكم هو أحد الأساليب التي تُستخدم من أجل إثارة الضحك ، ويعتمد هذا الأسلوب على السخرية تجاه الذات أو تجاه الآخرين، وذلك لإظهار بعض العيوب الجسدية منها والنفسية بدافع الانتقام ، أو بدافع إيجابي غايته الإصلاح والتقويم.

ما ورد في هذا الباب النادرة التالية :

" حكى حمّاد الراوية قال: أخبرني خالد بن كلثوم قال: أخبرني رجل من بني أسد، أنه أدرك ميًا، وكان أعور قال: رأيتها في نسوة من قومها ، فقلتُ لهنّ : أيتكنّ ميًا؟

فقالت النسوة : ما كنّا نرى أنها تخفى على أحد، هذه ميّاً ، قلت : والله ما أدري ما كان يُعجب ذا الرمة منك ، وما أراكِ كما كان يَصفُك، ؟؟؟ ، وقالت: يرحم الله غيلان ، إنه كان ينظر إليّ بعينين ، وأنت تنظر إليّ بعينٍ واحدة " [1].

لقد حاول الرجل الأسدي أن يتهكم بـ "ميّ" صاحبة ذي الرمة ، وذلك بأن يسخر من صاحبها ومنها، لأنه لا يرى فيها شيئا جميلاً مما وصفه لها ، أي أنها غير جميلة وأنها قبيحة، لكنها استطاعت لذكائها وسرعة بديهتها وفطنتها أن تردّ عليه رداً مليئاً بالسخرية وحب الانتقام وأنه أعور- وبسبب هذا لم يستطع أن يرى محاسنها ، فلو كانت له عينان اثنتان لكن رأى جمالها.

وهذه نادرة أخرى تروى في هذا الباب تتهكم فيها امرأة من زوجها القبيح، " الذي قال لها يوماً: إني أتمنى أن أرى إبليس ،قالت له: أنا أريكَهُ ، قال: وكيف ذلك؟ فأخرجت له مرآة وقالت له: انظر إلى وجهك "[2] .

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر ، ص ٥٠

(٢) ابن عاصم: حدائق الأزاهر ، ص ٤٩.

فالمرأة تسخر من زوجها وتتهكم به لقبح وجهه، وتهزأ به ربما للانتقام منـــه ، ومبعث الضحك في هذه النادرة هو مفاجأة الزوج بما قالته المرأة له وحالة الانــدهاش وعدم التوقع التي أصابته. وهذه "صورة شاذة حاولــت المـــرأة أن تبرزهـــا لزوجهـــا مضخمة لقبح الزوج وبشاعته فكأنها دعوة إلى الآخرين لمشاركتها الضحك والـسخرية من زوجها"[١].

الباب الثاني من الحديقة الأولى.

وهو في مستحسن الأجوبة التي ذكاء قائلها معربة إذ يلعب الـذكاء دوراً هامـــاً وفاعلاً في الإدراك وسرعة الفهم وحدّته لتساعد في اختيار ما حسُنَ من الجواب .

أهم الدلالات التي وردت في هذا الباب:

١-أسلوب التضاد

٢-اللغز

٣-السخرية

٤- المداعبة

٥- التورية

٦-التخلص الفكه

هذه هي أهم دلالات الفكاهة في هذا الباب ، وسأتناولها فيما يلي بالتفصيل:

١-أسلوب التضاد.

ويتمثل هذا في النادرة التالية:

---

(١) رياض قزيحة: الفكاهة والضحك في التراث العربي المـشرقي ، المكتبـــة، العـصرية، بيـــروت، ط١، ١٩٩٨، ص ٢٨٤.

" لقي الحسن بن علي رضي الله عنهما، الفرزدق في حين خروجه إلى العراق ، فسأله ما وراءه ، فقال له: تركت القلوب معك والسيوف عليك، والنصر من الله"[1].

لقد قابل الفرزدق بين أمرين هامين يشيران إلى الفتنة التي وقعت بين علي بن أبي طالب وأولاده الحسن والحسين من جهة ، ومعاوية بن أبي سفيان ومن معه من جهة أخرى ، وما يمكن أن تقدّمه المقابلة في هذه النادرة هو تجسيد الخلاف القائم بين الفريقين وإبرازه، ورغم ما بهذا الجواب من دلالة تبعث على الأسى والحزن إلا أنها تحمل قدرة الفرزدق على الإيجاز الذي يدل على البلاغة والبيان والفصاحة.

٢- الألغاز.

والألغاز بما تحمله من إبهام أو غموض إلا أنه يؤدي إلى إعمال الفكر المحاورة والتي يشترك فيها اثنان أو أكثر . من أجل فك اللغز وحل غموضه، وقد تمثّل هذا بالنادرة التالية:

" ودخل على القاضي إياس ، وهو في مجلس القضاء عدي بن أرفأه"[2].

فقال له: أين أنت ؟ قال: إياس بينك وبين الحائط

قال:فاسمع مني! ، قال :للاستماع جلست.

قال: إني رجل من الشام!

قال: نائي المحل ، سحيق الدار ، قال: تزوجت امرأة.

قال: بالرفاء والبنين

قال: وولد لي غلام.

قال: ليهنك الفارس.

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٥٩

(٢) هو عدي بن أرطاة الغزاري ، أبو واثلة ، أمير من أهل دمشق ،ت ١٠٢هـ.

قال: وأريد الرجوع إلى وطني، قال: في حفظ الله

قال: وشرطت لأهلها أن لا أخرجها من بينهم!

قال:أوفِ لهم بالشرط.

قال:فاقضِ بيننا، قال: قد فعلت ، قال: فَعلى مَنْ قضيت؟ قال: على ابن أمِـكَ، قـال: بشهادة مَنْ؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك"[1].

القاضي إياس أصدر حكمه في قضية الرجل لكن الحكم لم يأت صريحاً ، بـل جاء بلغز ، ألقاه القاضي على الرجل ليمتحن ذكائه لكنه لم يفهم معناه، وقد تمثّل اللغـز بقول إياس: " قد فعلت ، قال: فعلى من قضيت؟

قال: على ابن أمك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك." وكلاهما تعني ذات الرجل والقاضي أصدر حكمه عليه ، لكنه لم يدرك ما عناه ولم يفهمه بقوله وابن أمك، فهو المقصود وقوله: بشهادة ابن أخت خالتك. أيضاً هو المقصود ، لكنه أراد أن يعبث به ويمازحه من أجل تعميق الفكاهة والضحك.

٣-السخرية.

وفعلها الثلاثي سَخِرَ بكسر العين " عين الكلمة " ويقال: " فلان سَخْرةٌ، ومُسخَرةٌ، يضحك منه الناس، ويضحك منهم "[2]" وسخرتُ منه، واستسخرت ، اتخـذوه سُـخُرِيّاً، والسخرة الضحكة ، ورجلٌ مُسخرةٌ، ويسخرُ بالناس، ومسُخرةٌ يُـسخُر منـه وكـذلك سُخْرِي وسُخريةٌ"[3].

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ، ص ٦٢-٦٣

(٢) الأساس، اللسان ، تاج العروس ، مادة سخر

(٣) مجدي وهبه، كامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص١٩٨.

والسخرية " في مفهومها البلاغي تعني طريقة في الكلام ، يعبر بهـا الـشخص عن عكس ما يقصده بالفعل ، كقولك للبخيل، ما أكرمك" وهناك من عبّر عنهـا بأنهـا الهزأ بشيء ما ، لا ينسجم مع القناعة العقلية ، ولا يستقيم مع المفاهيم المنتظمـة فـي عُرف الفرد والجماعة ، هو الشاذ الخارج على عادات المجتمع وتقاليده ، حتى أنه قـد يخرج على نفسه فيسخُر منها.

أي أنها تعتمد-السخرية-في صـياغتها علـى مـا تلاحظـه علـى الأفـراد، والمجتمعات من خلل أو عيوب أو سقطات تجعل منه موضعاً للهزأ منه والسخرية مـن تلك العيوب بعد تضخيمها والمبالغة فيها.

ومن النوادر التي تُروى في هذا الباب ،النادرة التالية:

" وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً بالبادية قد بسط كساه للشمس وهـو يفتلـي ، فجعلت أنظر إليه ، فكان يأخذ البراغيث ويدعُ القملَ ، فقلت له: في ذلك، فقـال: أبـدأ بالفرسان ، وأرجع للرجالة"[١].

الأصمعي في هذه النادرة يسخر ، بل ويهزأ من قذارة الأعرابي والفعل الـذي يقوم به، بعد أن بسط كساه للشمس إنما هو دال على التخلف الحضاري الذي يعيشه-هذا الأعرابي- ولذلك فإن سخرية الأصمعي ، إنما هي سخرية من الـنمط الـذي يعيـشه الأعرابي وحياتهم القاسية، وما تتسم به من قلة النظافة والقذارة. وهذا هو ما يدعو إلى الإضحاك.

٤-المداعبة :

المداعبة أو الدُعابة: إنما هي الممازحة كما تعرّفها معاجم اللغة، والمداعبة " لا تتم إلا بين الأصدقاء، طرحاً للكلفة وثقة بالألفة ، وترويحاً عن النفس ، وإظهاراً للمقدرة

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٦١.

على التندر في غير ما جُرحٍ أو ثلب"[١] وهي بهذا المعنى الإيجابي ورغم أنها لا تبحث إلا عن بعض جوانب الضعف ، إلا من أجل أن تجعلها مواضع للتنـدر والتفكـه دون ثلب أو تجريح.

فقد نظر المأمون إلى جارية له ، وبيدها مسواك، فقال لهـا: كيـف تجمعـين مسواكاً؟

قالت: محاسنك يا أمير المؤمنين.

فاستحسن ذلك منها.

أراد المأمون مداعبة هذه الجارية فسألها عن جمع مسواك فقابلته بدعابة مثلهـا ولكن بمعنى يحمل دلالة أخرى للمسواك معنى إيجابي تمثّـل بقولهـا " محاسـنك " ، فالجارية داعبته من خلال تلاعبها بالمعاني-قلبت مسواك وجعلت منها محاسن وذلـك مودة للخليفة والتحبب إليه والتقرّب منه.

٥- التورية

والتورية أحد الأساليب البلاغية التي تقوم على معنيين أو غرضـين ، أحـدهما قريب، وقريب من البال، لكنه غير مراد والآخر بعيد ، بعيد عن البال لكنه هو المُراد ، فالاختلاف بين هذين المعنيين يحمل في طياته عنصر المفاجأة وعدم التوقع وما يُضحك فيها أن " السامع يتوقع المعنى القريب للفظ جرياً وراء سياق العبارة أو دلالة المقـام، فإذا بالمتكلم يقصد المعنى البعيد وهنا تقع المفاجأة -المبنية على أحد أساليب الخداع أو التحايل- في استخدام اللغة"[٢].

---

(١) د.أحمد الحوفي : الفكاهة في الأدب العربي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٠٥.

(٢) د.أحمد الحوفي: الفكاهة في الأدب العربي، ص٨١

تجلّت التورية في النادرة التالية:

" جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له: ما اسمك؟ قال: شهاب بن حرقة، قال: ممن؟ قال: من أهل حرة النار، قال: وأين مسكنك بها؟ قال: بذات لظى قال: أدركْ -أهلك- فقد احترقوا ، فكان كما قال عمر"(١).

أنّ اسم هذا الرجل ، واسم أهله ، والمكان الذي يسكن فيه تدلُّ على النار والاحتراق، فعندما سأله عمر بن الخطاب عن اسمه واسم أهله، والمكان الذي يقيمون به أحس وكأنه أمام نار حقيقية تحرق كل شيء ، أجابه بالمعنى القريب لهذه الأسماء ، لكن عمر بن الخطاب ، لذكائه وقدرته على الإدراك استطاع أن يفهم المعنى البعيد الذي لم يرده صاحب هذه الأسماء ، لأنها مجرد أسماء لكنها تحمل معاني النار والاحتراق.

ومن الأمثلة الأخرى على التورية النادرة التالية:

وسأل رجل من الشعراء ، رجلاً من المتكلمين بين يدي المأمون: ما سنّك؟ قال: عظم، قال: لم أُرد هذا ، ولكن كم تعُدّ؟ قال: من واحد إلى الألف وأزيدُ، قال: لم أُرد هذا ، ولكن كم أتى عليك؟ قال: لو أتى عليّ شيء لأهلكني ، فضحك المأمون وقال له: كيف السؤال عن هذا؟ فقال: أن تقول: كم مضى من عمرك؟

فالسائل لم يرد إن كان سنه من العظم أم لا، بل أراد أن يسأله عن عمره كم هو، لكن الرجل -أي الذي سُئِلَ- فهم السؤال كما أجاب وكذلك في بقية الأسئلة التي وجهت له ، هذا التناقض بين ما قصد السائل ، وما فهم -المسئول-هو ما أضحك ، لأن الإجابة كانت شيئاً مفاجأً وغير متوقع بما تحمله من تناقض ومغالطة ونوع من التحايل غير المقصود مما أدى إلى انحراف تيار الفكر عن مجراه إلى تيار آخر " فكأنها في

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٨٩

ظاهرها ضرب من التصلب من السامع الذي توقع غير ما سمع وفي القائل الذي نطق بغير ما يُنتظر منه"[١] .

٦-التخلص الفكه

يلجأ إليه الإنسان ليتخلص من موقف مباغت، الغاية منه إظهار " تغفله والتنــدّر به، أو إثارته ليتندّر بغيره"[٢] ومن أمثلة ذلك " أنّ المأمون قد وضع طعاماً وكان عنــده أعرابي ، فقال: يا أعرابي هلمّ ، قال: إني صائم ، فاختلفت الألوان فرأى جدياً مشوياً ، فغسل يده، فقال له المأمون: ألم تقل إنك صائم؟؟

قال : أقدر على صيام يوم آخر ، ولا أقدر على إعادة جدي مثل هذا "[٣].

فالأعرابي استطاع أن يخلّص نفسه من هذا الموقف الحرجْ والمباغــت والــذي تمثّل بوضع جدي مشوي أمامه -فبعد أن اعتذر عن تناول الطعام لأنــه صــائم، قــام وغَسَلَ يديه ليأكل ، فلما رآه المأمون تعجّبَ منه وسأله عن قيامه لتناول الطعام ، فوجد ما يخلصه من مأزقه وبطريقة تدعو على الضحك وذلك عندما قال للمأمون أقدر علــى صيام يوم آخر ولا أقدر إعادة جدي مشوي مثل هذا ، فبفضل ذكائــه وحُــسن تــدبره استطاع إيجاد مخرج مناسبٍ يُضحكُ به المأمون، ويتناول الطعام.

ومن ذلك أيضاً " أنه كان بالبصرة مجنوناً يأكل التمر بنواه، فقيل له: بنواه تأكل التمر؟

قال: كذا وزنوه علي"[٤].

---

(١) د.أحمد الحوفي : الفكاهة في الأدب العربي، ص٨١.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤١.

(٣) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٦١.

(٤) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٦١

يتبيّن من هذا أنهم كانوا يتعجبون من تناوله التمر بنواه فأرادوا إثارته لإظهار غفلته، ليتندروا به، فما خلّص نفسه منهم إلا بطريقة تُظهرُ غفلته وحمقه مما أضحكهم.

الباب الثالث: الحديقة الأولى.

ويقع هذا الباب في أبيات من الشعر، وقعت جواباً واستعملت خطاباً، وذلك لإستحسانها، ربما لبلاغتها وفصاحتها التي تدل على ذكاء قائلها وفهمه، وسرعة بديهته، ولِمَا تتضمنُ من حِكَمٍ أو عِبرٍ،أو عِظاتٍ، أو نصائحَ، أو إرشادات تهدفُ إلى تقويمٍ أو إصلاحٍ أو تهذيبٍ، وكثيراً ما نرى اختلاف هذه الأجوبة وتفاوتها، فقد نراها جواباً مفحماً مسكتاً، أو ردا مماثلا لرد وقد يتحايلون بتورية أو مفارقة، أو تناقض أو بتلاعب في الألفاظ والمعاني.إنّ استخدام مثل هذه الأساليب ما هو إلاّ نتيجة حتمية لظروف نفسية، أو عقلية، أو اجتماعية، أو سياسية أو ثقافية، جابهت الفرد والمجتمع، وحتّمت عليه استخدامها لتساعده على تجسيد تجربة خاصة لتعميمها، وما يميز هذا الاستخدام انه يغلف بإطار فكاهي ضاحك وربما ساخر أيضا- ليفلت من عقاب أو ملاحقة أو غير ذلك. ولإيضاح هذا الأمر لا بد من الوقوف على بعض النوادر ومنها النادرة التالية:

" إجتمع ناس من الشعراء وأتوا منزل عدي بن الرقّاع[1] وصاحوا به، فخرجت بنت له صغيرة فقالت: ما تريدون؟ قالوا: نريد أباكِ لنهجوه ونفضحه، فقالت:

تجمعتم من كل أوْبٍ ووجهةٍ   على واحد لا زلتم قِرْنَ واحد!!!

فأستحيوا وانصرفوا خجلين "[2].

---

(١) هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع، شاعر كبير، عاصر جريرا وكان مهاجيا له، مدح بني أمية، ت نحو ٩٥هـ = ٧١٤م

(٢) ابن عاصم: حدائق الأزاهر،ص ١١٣.

لقد استطاعت هذه الفتاة -ورغم صغر سنها- أن تسخرَ منهم وتُعرِّضَ بهم وبقوتهم، وقلّة مروءتهم، وضعفهم رغم اجتماعهم وكثرتهم، وان تردّهم وهم خجلين مما سمعوا من رد بليغ يدل على ذكاء وسرعة بديهة وفطنة وفصاحة في القول،تجسّد ذلك بقدرتها على اختيار بعض الألفاظ وبعض الأساليب البلاغية- وهنا التشبيه- لتحقق ما تريد وان تسخر منهم سخرية لاذعة، تكمن الفكاهة في هذا البيت الشعري بقولها" تجمعتم من كل أوْبٍ على واحدٍ" وقولها أيضا" لا زلتم قرن واحد" أي أنكم تجمعتم ليكثر عددكم وتزداد قوتكم، لكنَّ تجمعكم لم يزد في قوتكم بل زاد في ضعفكم وبقيتم كالقرن الواحد الذي لا يمكن للحيوان أن يناطِح به منفرداً لضعفه لعدم اكتمال قوته.

لقد كان جواب هذه الفتاة مفاجأة، بل صدمة عنيفة أصابتهم بالذهول وربما التصلّب والاندهاش والوقوع في المأزق الحرج، أكملته بالسخرية منهم، مما ولّد لديهم إحساساً بالضعف والاحتقار والمهانة وصغر أنفسهم، واصبحوا موضعا للتفكه بهم والضحك عليهم.

ومن النوادر التي وردت في هذا الباب النادرة التالية والتي توحي بسخرية لاذعة من الجبنِ وفقدانُ الشجاعةِ والخوف من مواجهة الأعداء، جسّدها الشاعر- الجبان- في أبيات شعرية ردّ بها على أولئك الذين دعوه للقتال، وسخروا من نكوصه وعدم إقدامه على ساحة الحرب، متخذاً من أسلوب التحاور والتخاطب مع الذات وسيلة فنية تساعد على كشف أسباب هذا النكوص وعدم الإقدام، ليبين أن الخوف من مواجهة الموت، وحبه للحياة ولأولاده ونسائه وحرصه عليهم جميعاً كلها كانت دوافع لخوفه وعدم إقدامه على مواجهة القتال.

فالشاعر وبما يمتلك من حس شعري استطاع أن يجسّد قضيته هذه الأبيات الشعرية التالية:

وقالوا تقدّم ،قلتُ لستُ بفاعل   أخافُ على فخارتي أن تحطّما

فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ولكنه رأسٌ إذا مـــات أعقما

وأيتم أولاداً ، وأرمـــل نسوةً فـكيف على هذا تَرون التقدماء![1]

أنّ ما قام به الشاعر من حوار وجدال مع الذات ومع الآخر ، إنما هو وسـيلة فنية تعينه على كشف مشاعره نحو الموت ، وخوفه منه ، وقلقه على أولاده ونسائه إنْ هو أقدم على القتال ، وما عَرَضَ من براهين ، ما هي إلا مبرراتٍ يمكن أن تشفع لـه لديهم فلا يسخرون منه، لأنه يعلم أن " الجبن منقصة يُعَيّرُ بهـا الفـرد وتُعيّـر بهـا القبيلة"[2].

ومن النوادر التي وردت في هذا الباب النادرة التالية والتي تدل على التلاعـب بالألفاظ والتخلص الفكه.

" وأُتي العريان بن الهيثم بغلام سكران، فقال له: ابن مَنْ أنت؟ فقال:

أنا ابن الذي لا تُنزل الدهرَ قدرُهُ وأن نزلتْ يوماً فسوف تَعودُ

فظنّ أنه ابن أحد الأشراف ، فخلّى سبيله ، فكشف الغيب أنه كان ابن فوّال"[3].

لقد أحسن السكران بردّه على العريان بن الهيثم بهذا البيت الشعري ، الـذي لا يوحي إلا أنّ صاحبه من الكرماء الذين يقدمون الطعام لضيفانهم في الليل والنهار، وبه أيضاً استطاع أن يخلّص نفسه من مأزق حرج يتمثل بإقامة الحد عليه بسـبب سـكره، وهذا تخلّصٍ فكه يثير الضحك والانبساط.

ما كان له أن يتحقق لولا قدرته على التلاعـب بالألفـاظ والمعـاني بالإبهـام والغموض ،وما قاله السكران هو أمر حقيقي لأن قدر الفول لا ينزل عن النار مـا دام

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ١١٥

(٢) د. احمد الحوفي: الفكاهة في الأدب العربي، ص ٢٣٦

(٣) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ، ص ١١٧

فيه فول، لأن لذته لا تكون إلا بسخونته ، لكن الذي يستمع إليه لأول وهلة لا يدرك هذا المعنى المهم الغائب عن بال المتلقي، بل يدرك أنه أحد الكرماء وليس ابـن فـوّال. - السخرية القائمة على التشبيه -والتشبيه في اللغة هو التمثيل ، وعند علماء البيان هـو مشاركة أمر لأمر في معنى ، أو صفة أو أكثر بواسطة أداة من أدوات التشبيه ، ومـن النوادر في هذا الباب النادرة التالية:

" وقال الشافعي رضي الله عنه: تزوج رجل امرأة حديثة على امـرأة قديمـة ، فكانت جارية الحديثة تمرُّ بباب القديمة فتقول:

وما يستوي الرِجلان: رِجلٌ صحيحة ورجلٌ رمى فيها الزمان فشلّتِ

ثم تعود فتقول:

وما يستوي الثوبان : ثوبٌ به ألبلي وثوبٌ بأيدي البائعين جديدُ

فمرت جارية القديمة بباب الحديثة وأنشدت:

نقّل فؤادَكَ حيثُ شئتَ من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأولِ

كم من منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحـنينه أبداً لأولِ منزلِ "[1]

الفكاهة في هذه النادرة تقوم على السخرية من المرأة القديمة وهي التي يتـزوج عليها زوجها امرأةً أخرى حديثة كما في النادرة، وجارية الجديدة هي التي تسخر مـن الزوجة القديمة ، ربما باتفاق مع الزوجة الجديدة -لإيقاع الحزن والألم والغيرة في نفس الزوجة القديمة ، وإمعاناً في الكيد والقهر والتشويه والإساءة للزوجة القديمة ، استعانت بالتشبيه ، إذ شبهتها بالرِجل التي مرضت وأصابها الشلل، وأصبحت عديمة الفائدة بـل بلا فائدة ترجى منها ، كما شبهتها بالثوب الذي بليَ وأصابه الإهتراء وأصبح قديماً.

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ، ص ١٢٠-١٢١.

ولتضخيم هذا المعنى قابلت بين المعنيين الجديد والقديم وبالغت في التأكيد والتضخيم عليهما، وهذا ما أثار نوازع الانتقام عند جارية المرأة القديمة ، مما أجبرها على الرد بأحسن وأسمى وأرفع مكانة مما قالته جارية المرأة الجديدة ، واستعانت على ذلك ببيتين مما تحفظ من الشعر، تخبرها فيهما أن الزوج الذي ابتعد ليبحث عن حب جديد، لا بدّ إلا وأن يعود للحبيب الأول ، تؤكد على هذا المعنى أيضاً بمعنى آخر وهو المنزل –السكن– ، فكثيراً ما يألف الإنسان أماكن ومنازل، لكن حنينه يبقى أبداً لأول منزل أقام به.

الحديقة الثانية : الباب الأول

وكان في : ترويح الأرواح ما حَسُنَ من المزاح ، وردت في هذا الباب نوادر تبيّن موقف الرسول الكريم من المُزاح وموقف بعض أصحابه منه أيضاً ، والتي تُجمع في مجملها على موقف الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم ممانعته للهو والمزاح والضحك وموقف الرسول الكريم في هذه النوادر ، يعكس موقف الدين الإسلامي من المُزاح والضحك ،إذ وردت آيات تبيّن أحوال المؤمنين وما هم فيه من فرح وضحك وسرور إذ هم في الجنّة فكهين بما أتاهم الله من نعيم. لكن موقف الرسول وعدم ممانعته للضحك والمُزاح كانت مشروطة بشرط هام وهو أن يمزح لكن ،أن لا يقول إلا الحق وبذا فأن ممازحته مقبولة، بل إنه كان يحضُّ على المزاح ، ومما يروى أنه كان يمازح أهل بيته، وأصحابه ويبادلونه ممازحاته، اختارها ابن عاصم ليضمّها لكتابه ، لكي يقول أن وقاره كفقيه لا يتعارض مع تصنيف كتاب في الفكاهة والضحك ، مثل هذا الكتاب،خاصة وأن هذا الكتاب لم يعد يؤلف للخاصة كما كان في العصر العباسي – أوائل العصر العباسي– بل أصبح يؤلف للخاصة والعامة على حدٍ سواء لتعمَّ الفائدة للجميع . ويحقق هذا الأدب غاياته وأهدافه في التهذيب والإصلاح والتقويم بالإضافة للتسلية والترويح عن النفس إبعاداً للملل.

ومن الأمثلة على النوادر التي تبيّن ممازحة الرسول ، النادرة التالية:

" كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً ، فمن ذلك قوله لإحدى عماته: إنّ الجنّة لا تدخُلنها عجوز ، فلما جزعت من ذلك ، قال لها: إنّ الله يخلقهنّ يوم القيامة ثواب أبكاراً"[١] مما أضحكها وأدخل السرور إلى قلبها أنها تدخل الجنة شابة بكراً جميلة.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً أن الرسول الكريم قد " قال لامرأة : ما فعل زوجك الذي في عينه بياض؟ فلما جزِعتْ من ذلك ، قال لها : أو ليس في كل عين بياض"[٢].

ومما يُروى عن أصحابه أنه " كان عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيه مزاح، فدَخَلَ على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وهي عمة والده يعودها في مرضها الذي ماتت منه، فقال لها: كيف تجدينك يا أمي؟ فدتكِ نفسي، فقالت:في الموت ،قال: فلا أفديك إذاً ، فابتسمت وقالت له: ما تدع مُزاحك على حال"[٣].

ومنه أيضاً أنه لقي نعيمان وهو من قدماء الصحابة ، وكان رجلاً صالحاً مع ما كان فيه من المُزاح ،أعرابياً معه عكّة عسلٍ فاشتراها منه، وجاء بها إلى عائشة والنبي صلى الله عليه وسلّم عندها ، فقرع الباب وقال: خذوا هذه ، فظنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه أهداها له ، ومرّ نعيمان وترك الأعرابي جالساً ، فلما طال جلوسه صاح: يا هؤلاء ردّوا عليّ عسلي إن لم يحضر الثمن ، فسمع النبي صلى الله عليه وسلّم كلامه، فأعطاه ثمنه ، فلما جاء نعيمان ،قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما حملك

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ، ص ١٢٧.

(٢)المصدر السابق ، ص ١٢٧.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٨.

على ما فعلت يا نعيمان؟ قال: رأيت النبي يحبّ العسل ، ولم يكن عندي ثمنه ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلّم"[1].

ومن الأمثلة أيضاً على المزاح النادرة التالية :

كان الشعبي جالساً مع أصحابه " وجاءه رجلٌ فقال: تزوجتُ امرأة وهي عرجاء، أفلي أن أردها بالعيب ، قال: إن كنت تريد أن تسابق عليها ، فلَكَ ردُّها"[2].

أراد الشعبي أن لا يحكم برد هذه المرأة إلى أهلها فما وجد إلا المزاح طريقة يعرض فيها رأيه ، فقال له هذا القول اللطيف إن كنت تريد أن تسابق عليها فردّها.

ومما يروى في باب المُزاح أيضاً النادرة التالية:

"وسأل رجل عمرو بن قيس عن الحصاة، حصاة المسجد يجدها الإنسان في خفّه أو ثوبه أو جبهته ، فقال له: ارم بها ، فقال : زعموا أنها تصيح حتى تردّ إلى المسجد، قال: دعها تصيح حتى ينشقّ حلقها! قال الرجل: أولها حلق؟ قال: فمن أين تصيح إذنّ!!"[3].

ما يثير الضحك ف بهذه النادرة ، أنْ جعل للحصاة حلق تصيح منه تطلب العودة إلى المسجد ، ممازحة لطيفة ممزوجة بنوع من التغافل المقصود لإضحاك الآخرين.

---

(1) المصدر السابق ، ص ١٢٨.

(2) ابن عاصم : حدائق الأزهر ، ص١٢٨. ص ١٣١.

(3) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ، ص ١٣١.

الحديقة الثانية

الباب الثاني : وهو في المضحكات المستحسنة الخفيفة على الألسنة

أهم دلالات الفكاهة في هذا الباب :

١-الاحتيال

احتيال الحيوانات

٢-أسلوب التحذلق

٣-نوادر تُروى عن بعض الشخصيات النمطية التي عُرفت بالسخرية والتهكم والحمق.

٤-السخرية.

١-الاحتيال والتخلص الفكه

يقوم الاحتيال عادة على الخداع والمكر من أجل الوصول إلى شيء ثمين ، وبالنسبة للحيوانات ، للحصول على طعام أو فريسة دسمة ، أو التخلص من مأزق قد يقع فيه، وهذا ما نجده في النادرة التالية:

" صرخ ديك في شجرة ، فسمعه ثعلب ، فأتى إليه فقال: أبا المنذر أذّنت؟ قال: نعم، قال: انزل نصلِّ جماعة!

قال الديك: أيقظ الإمام، فتخيّل للثعلب أنه ديك آخر، فرأى كلباً له ذنب أكبر من "كَلَحَتَه"[١] فهرب، ولم يرد رأسه فقال له الديك: يفوت الوقت" قال: انتقضّ الوضوء، أجدده وأرجع إن شاء الله"[٢] .

---

(١) كلحته: الفم وما حوله

(٢) - ابن عاصم: حدائق الأزاهر ، ص ١٣٣

استطاع الديك أن يخلّص نفسه من مأزق كاد أن يقع فيه لولا خبرته بالثعالـــب، ومكرها واحتيالها، فذكاء الديك خلّصه من المأزق الذي حاول الثعلب أن يحتال به عليه بحجّة دعوته لإقامة الصلاة –صلاة الجماعة.

٢-أسلوب التحذلق

يحاول بعض الأشخاص أن يظهر " حذقه ومعرفته ومهارته بأمر ما ، وكثيراً ما يجرّه هذا إلى أن يتظاهر بأكثر من قدرته "[١] ربما ليوقِعَ الرهبةَ في نفوس الآخرين، أو ليوهمهم بأنه يتمتع بمواهب عظيمة أو العتاب لأمر ما وقع من الآخر عليه، وهذا مسا حدث في النادرة التالية:

" أحرق فراناً طاجناً لفقيه، فجاء ووقف على باب الفرن ، وقال: أيهـــا الفـــرّين المسكين، أضرمت اليوم السعير، وأحرقت الطنجير فورب العالمين، لولا أنـــك عنـــدنا أمين ، لضربتك بهذا الأطربزين، وأكلت من السياط مائة وتسعين ولبثت فـــي الـــسجن بضع سنين ، فقال له الفران " وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين"[٢].

لقد حاول الفقيه توبيخ هذا الفران ، فاستعان بالفذلكة والتحذلق وقدرتـــه علـــى استخدام الكلمات –الموزونة– كما في هذه النادرة وتوجه العتاب له بسبب إحراقه طاجن الطعام ، فرغم أنه يتضمن معنى التوبيخ والعتاب إلا أن فيه ظرفاً نجم عـــن اســـتخدام الكلمات على وزن واحد مما أضفى على كلامه نغمة لا توحي بالغضب ، بـــل تـــوحي برقّة العتاب، لكن الفران أتى بأفضل من هذا ، واستعان بالنص القرآني ليردّ عليه رداً يكافئه فيه على عدم غضبه عليه لإحراقه الطعام ويحمد الله على هذا الموقف للفقيه الذي يعبّر عن ظرفه.

---

(١) د.احمد الحوفي : الفكاهة في الأدب العربي، ص٩٧

(٢) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص١٣٣

٣-نوادر تُروى عن بعض الشخصيات -النمطية -التي اقترنت أسماؤها بصفة معينة تدل على السخرية أو التهكم أ، الحمق والغفلة ومن هذه الأسماء :أبي نواس، وجحا.

ومن الأمثلة على ذلك النادرة التالية:

" بعث الرشيد إلى أبي نواس براءة مختومة ، فلما فتحها لم يجد فيها شيئاً، ففكر طويلاً ، ثم رأى الرجل الذي جاء بها أصلع وهو يطلب منه الجواب ، فقال له: إن أردت الجواب ، فإنما أكتبه في رأسك، وإلا انصرف دون جواب ، فقال له: أكتب ، فكتب فيه شعراً وكتب في آخره: وبالله ألا مزقتم الرقعة إذا قرأتموها ، فلما قرأ الرشيد ذلك أمر بصفع الرجل ، فصُفِعَ حتى أمحى ذلك الكتاب بالصفع والرشيد يضحك"[١].

أنّ الرشيد في هذه النادرة أراد ممازحة أبي نواس وإثارة ظرفه فأرسل له هذا الأصلع "عمداً" وأرسل معه براءة مختومة وفارغة أيضاً ، ليرى ما هو فاعل بهذا الأصلع ، ولخوف هذا الأصلع من الخليفة أن يُكتب الجواب على رأسه (على صلعته) وتضمّن الجواب شعراً ، كما تضمّن طلباً بإيقاع العقوبة بهذا الأصلع بعد قراءة الرقعة (الصلعة)، فلما قرأ الرشيد الرسالة ، أمر بضرب هذا الأصلع لغفلته وحمقه لأنه وافق أن تكتب الرسالة على رأسه، والرشيد يضحك.

فما عُرف عن أبي نواس من ظُرف وتظّرف كان سبباً ومدعاةً للضحك، خاصة لما يترتب على ذلك الظرف من آثار.

ومن الشخصيات النمطية الأخرى التي عُرف عنها الحمق والغفلة والبله جحا العربي ، رغم أن التاريخ قد ألصق اسمه بتلك الصفات إلا أنه شخصية مختلفة تماماً،

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ١٣٤-١٣٥

شخصية ذكية ، يتحامق ويتغافل من أجل إضحاك الآخرين " ليسرّي عنهم ويخفف عنهم آلامهم وهمومهم ومعاناتهم"[1].

فمن النوادر التي تُروى عنه النادرة التالية، وإن كانت أقرب إلى الحكاية المرحة، (ولذا سأطلق هذا المصطلح على ما يُروى عنه من أخبار):

" قال جحا لأبيه : تزوجتَ أمي على خمسمائة درهم ، فولدت لك أختي ، فزوّجتها على خمسمائة درهم ، وبقيت لك أنا فضلا"[2].

في هذه النادرة عدّ جحا الزواج صفقة-لكنها صفقة رابحة وذلك لأنه حسب ما دفعه أبوه مهراً لأمه وأضاف إليه مهر أخته، ليجد أن أباه قد ربح وكسب جحا، فوق هذا الزواج ، جحا في هذه النادرة يحاول أن يُظهر نفسه أحمقاً -ليضحِكَ الآخرين- مكمن الضحك هنا هو شخصية جحا وتغافلها وتحامقها.

ومما يُروى في هذا الباب الحكاية المرحة التالية:-

" جاء جحا ليكسر لوزة، فخرجت له من تحت الحجرين ، فقال: سبحان الله ، نراها بهيمةً ولا تريدُ أن تموتَ"[3].

عدّ جحا خروج اللوزة من بين الحجرين ، أنها ترفض أن تموت فهو يراها (بهيمة) كما يقول ، لكنها ليست كذلك، والدليل على ذلك أنها رفضت أن تموت وخرجت من بين الحجرين.

---

(١) انظر د.محمد رجب البخار: جحا العربي ، عالم المعرفة، ع١٠، ١٩٧٨، ص ١٠

(٢) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ١٣٧

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٨

ومن حكاياته أيضاً الحكاية التالية:

مرّ جحا بصبيان يلعبون بباز ميّت فاشتراه منهم بدرهم، وحمله إلى أمه فقالت له: ويحكَ: ما تصنع به وهو ميّت؟ فقال لها: اسكتي ، فوالله لو كان حيّاً ما بيع مني بمائة درهم"[1].

وجحا أيضاً في هذه الحكاية المرحة يحاول أن يُظهر حمقه وتغافله وذلك لإضحاك مَنْ حوله وتسليتهم ، والتسرية عنهم للتخلص من أي هموم أو متاعب يعانون منها.

التخلص الفكه

تحدثت قبل قليل عن تخلص فكه لديك، أما الآن فإنني سأتحدث عن تخلص فكه لإنسان –لطفيلي–" خطر على قوم يأكلون وقد أغلقوا الباب دونه، فطلع عليهم من الجدار وقال: منعتمونا من الأرض جئناكم من السماء"[2].

وفي حكاية أخرى أنه " دخل طفيلي على قوم ،فقالوا: ما الذي جاء بك؟ فقال: إذا لم تدعوني أنتم ، ولم آتِ أنا وقعتْ بيننا وحشةٌ ، فضحكوا منه وأكل معهم"[3].

لا زال الطفيلي وفي كل الأحوال – هدفه الحصول على الطعام ، لا يهمّه أن يراق ماء وجهه ، ما دام أنه سيحصل على الطعام .

ففي النادرة الثانية نرى هذا الطفيلي قد استخدم ظرفه وفكاهته ليخلّص نفسه من المأزق (السؤال) الذي وضعه فيه أصحاب الطعام.

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ١٤٤

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٥

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٣

الباب الثالث من الحديقة الثانية

أما هذا الباب وإن كان من المضحكات المستملحة وألفاظها مستقبحة فإنه يمتلئ بالألفاظ الجنسية المكشوفة بل والفاضحة، وذكر هذه النوادر أو سماعها يخدش حياء الكاتب والمتلقي، لذا فإنني سأغفلها ولن أتحدث عنها وفيه سبع وستون نادرة.

أما الباب الرابع من الحديقة الثانية وهو في المضحكات الشعرية: فإن بعضها لا يخلو من الفكاهة اللطيفة المحببة ، لما تبثّه في النفوس من ضحك وسرور وانبساط، وبعضها الآخر لا يخلو من بعض النوادر التي تدور حول بعض المعاني الجنسية المكشوفة أيضاً-وهذه سأغفلها ولن أتعرّض لها أيضاً. وفيه ست وثلاثون نادرة.

ومن النوادر في هذا الباب النادرة التالية:

" وأهدى بعضهم إلى أمير، يوم نيروز عصافير أحياء في طبق ، وجعل معها رقعة فيها مكتوب:

عصافيرٌ تَبعثُ بها مِلاحٌ ... ليضحَكَ لا ليأكلها الأميرُ

وما أهدى إلى ملك سوائي ... عصافيراً على طبقٍ تطيرُ

فلما وُضِعَ الطبق بين يدي أمير المؤمنين، ورفَعَ عنه الغطاء طارت العصافير، فرفع الرقعة ، وقرأ الشعر فضحك وأمر له بجائزة سنية"[1].

تحكي هذه الأبيات الشعرية ، حكاية الرجل الذي أهدى العصافير لأمير يوم نيروز والذي كانوا يحتفلون بقدومه عليهم ، يسردها وكأنه يسرد قصة أو حكاية في النثر ، المهم أنه يروي حكايته شعراً ، فالرجل لم يهدِ الأمير تلك العصافير الأحياء من أجل أن يأكلها، بل أهداه إياها ليمازحه ويُضحكهُ من خلال هذا "المقلب الضاحك" " وقد تمثّل هذا المقلب بوضع غطاء على الطبق الذي فيه العصافير الأحياء ، فإذا ما رفع

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ١٧٣

عنها الغطاء فإنه سيتفاجأ بأنها ستطير ، وهو ما قصد إليه في هذا المقلب الضاحك ، أن يرى الأمير وقد أصابه الفزع والدهشة عندما يرفع الغطاء عن العصافير تفرّ بين يديه لتطير، وفي البيت الثاني ألمح اعتزازه واعتداده بنفسه وتفرده بمثل هذا المقلب الفكاهي الضاحك، ومما يبدو في هذه الحكاية الضاحكة أن الأمير يمتلك حساً فكهاً، وروحاً رياضية لا تعبأ بمثل هذه التجاوزات في المزاح ، والدليل على ذلك أنه ضحك ، وأكرمه بجائزة سنية.

وفي هذا الباب أيضاً النادرة التالية: والتي تدل على الدعابة والتهكم معاً، تقول النادرة:

" وخرج المهدي يتصيّد ، ومعه علي بن سليمان[1]، فسنح لهما قطيعُ ظباءٍ فأُرسلت الكلابَ ، وأُجريت الخيل ، فرمى المهدي بسهمٍ ، فَصَرَعَ ظبياً، ورمى علي بن سليمان فَصَرَعَ كلباً، فقال أبو دلامة:

قد رمى المهديُّ ظبياً شقّ بالسهم فؤاده

وعليٌّ بن سليمـان رمى كلباً فصاده

فهنيئاً لهما كلُّ امرئٍ يأكلُ زاده

فضحك المهدي حتى كاد يسقط"[2]

في هذه الأبيات –والتي قالها أبو دلامة[3]–تهكمٌ وسخريةٌ من علي بن سليمان الذي اصطاد كلباً ، بينما الخليفة المهدي كان صيده ظبياً، فالشاعر يفرّق بين الرميتين، ويصورهما تصويراً فكهاً مضحكاً، رمية علي بن سليمان الذي اصطاد كلباً من كلابهم

---

(1) هو علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي من الولاة ، وليّ مصر لموسى الهادي(ت ١٧٨هـ/٧٩٤م)

(2) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ١٧٨

(3) أبو دلامة : هو زند بن الجوت الأسدي بالولاء ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة (١٦١هـ)

التي أطلقوها لتساعدهم أثناء مطاردة الظباء والتي تتضمن معنى السخرية والتهكم ، ورمية الخليفة التي شقّت فؤاد الظبي والتي تتضمن معنى المداعبة والتودد للخليفة، والإشادة برميته التي نفذت لقلب الظبي، ثم جعل كل منهما يأكل صيده، وما كل هذه إلا من باب الترويح عن النفس والضحك والمداعبة المحببة إلى النفوس ، وإن كان في بعض جوانبها التهكم ، لكنه التهكم في غير ثلبٍ ولا جرحٍ ولا أذى خاصةً من علي بن سليمان الذي سخر من رميته وصيده.

التحايل بالرؤيا

أحد أساليب الفكاهة في كتاب "حدائق الأزاهر" غرضه المداعبة والتودد والترويح عن النفس ، يعمد إليه شخص يحتاج إلى شيء ، ويريد الحصول عليه، لكن بطريقة ظريفة ، تدخل السرور للشخص الذي تمّ التحايل عليه ، ولكي تتحقق هذه المداعبة فإنها تحتاج إلى مهارة في التعبير والتصوير والفصاحة بحيث لا تؤذي أحداً فلا تخضى من قدره.

ومن الأمثلة على هذا، النادرة التالية:

" ودخل أعرابي الكوفة فقصد تمّاراً فقال له:

رأيتُكَ في النوم أعطيتني ... قواصرَ من تمركَ البارحةْ

فقلت لصبياننا: ابشروا ... برؤيا رأيتُ لكم صالحةْ

فأمّ العيالِ وصبيانها ... قلوبُهُم نحوها طامحةْ

فقُلْ لي " نَعم " إنها حلوةٌ ... ودَعْ عنك " لا " إنها مالِحةْ

فرفع إليه قوصرة ، وقال له: لا تعدْ ترَىَ مثلَ هذه الرؤيا مرة أخرى"[1].

---

(١)ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص:١٧٤

لقد تحايل هذا الأعرابي على التمّار بـــ " الرؤيا" من أجل الحصول على التمر ، إذ سَرَدَ هذه الأبيات ، وكأنه يسرد حكاية نثرية لولا تلك القافية التي ختم بهـــا أبياتـــه لكانت نثراً، لا شعراً، سَرَدَها على التمّار وكان كأنه يستحثّه على أن يعطيه تمراً وأن لا يبخل عليه ويرده خائباً، لأن هناك من ينتظر عودته فالصبيان وأمهم يطمحون لتـــذوق طعمه.

لجأ الأعرابي إلى هذه الوسيلة لأنه فقير ولا يملك نقوداً ليشتري بها هذا التمر ، أما الفكاهة فتكمن في هذه الحكاية الشعرية اللطيفة بخاتمة تلك الأبيات ، أي في البيـــت الأخير والذي يقول فيه فقُلْ لي " نَعم " إنها حلوةٌ ودَعْ عنك " لا " إنها مالِحةْ

فهي مداعبة لطيفة من الأعرابي للتمّار ، وطريقة مضحكة في الطلب والـــسؤال تمثلت بقوله قل نعم فإنها حلوة وجميلة ، ودع عنك لا إنها مالحة وقبيحة وغير مقبولـــة فلا تقلها، وهذا ما جعل التمّار يحس بمداعبة الأعرابي ومودته له، فأعطاه ودون تردد قوصرة تمر، وطلب إليه أن لا يعود يرى مثل هذه الرؤيا مرة أخرى.

الباب الخامس من الحديقة الثانية

وهو في المضحكات المطولات ، وهي إحدى أنواع القصص الفكـــاهي، وهـــي حكايات طويلة ، تشبه إلى حد ما القصة القصيرة ، وذلك من حيث الطـــول ، وتنـــامي الحدث، وتعدّد الشخوص، تتراوح في لغتها بين النثر والشعر ، وجلّ هـــذه الحكايـــات تكشف عن ألفاظ جنسية بذيئة تخدش الحياء ، ولذا فإنني لن أتعرّض لها، ولن أتحـــدّث عنها عدا واحدة تقوم على السخرية والتهكم من الإنسان الفضولي الذي يحشو أنفه فـــي أموّر الآخرين، ليعرف عنهم دقائق حياتهم ، وربما يستخدمها للتشهير بهم ، أو السخرية منهم أو خلاف ذلك.

تقول الحكاية:

" وقال السندي بن شاهد قائد الخليفة: بعث إليّ المأمون وأنا بخراسان، فطويتُ المراحل حتى أتيتُ باب أمير المؤمنين، وقد هاجَ بيَ الدمُ ، فوجدته نائماً ، فأعلمتُ قصتي إلى الحاجب ،وقدّمت إليه عذري وما هاج بي من الدم وانصرفت إلى منزلي فقلتُ: ائتوني بحجامي! فقالوا: هو محموم! قلت: فهاتوا حجاماً غيره، ولا يكون فضوليّاً! فأتوني به، فما هو إلاّ أن دارت يده على وجهي فقال: هذا وجه ما أعرفه فمَنْ أنت؟ قلت : السندي بن شاهد! قال: ومن أين قَدمتْ؟ فإني أرى أثرُ السفر عليك! قلت: من خراسان! قال: وأي شيء أقدَمَكَ . وكم لك في الطريق؟ قلت: وجّه أمير المؤمنين إليّ! ولكن إذا فرغتُ سأخبرك بالقصة على وجهها إن شاء الله ! قال: وتعرّفني بالمنازل التي جئت عليها؟ قلت: نعم ، قال: فما هو إلاّ أن فرغ ودخل رسول أمير المؤمنين ومعه كركي، فقال: أمير المؤمنين يُقرِؤكَ السلام وهو يعذُركَ فيما هاج بك من الدم، وقد أمرك بالتخلف في منزلك حتى تغدو عليه إن شاء الله ويقول: " ما أُهدي إلينا اليوم شيء غير هذا الكركي"

فقال: الحجّام: يضع كذا وكذاً فقلت: يضع كما قال، وعزمتُ على الحجّام أن لا يبرحَ، فحضّرت الغداء ، فتغدّينا وهو معنا، ثم قُدِمَ الشرابُ ، فلما دارتْ الأقداحُ ، قلت: يُعلّق الحجّام في العاقبين! فعُلق ، فقلت له: إنك سألتني عن المنازل التي قدمت عليها ، وأنا مشغول ذلك الوقت، وأنا أقصّها عليك الآن فاسمع! خرجتُ من خراسان وقت كذا فنزلتُ بموضع كذا! يا غلام أوجعْ! فضربه عشرة أسواط! ثم قلت: خرجت إلى موضع كذا يا غلام أوجع! فضربه عشرة أسواط مرةً أخرى ! فلم يزل يضربه لكل منزلة عشرة أسواط حتى انتهى إلى سبعين سوطاً! فالتفت إليّ الحجّام فقال: يا سيدي إلى أين تريد أن تبلغ؟ قلت: سألتني بالله ، إلى بغداد ، قال: ليس تبلغ والله الريّ حتى تقتلني! قلت: فأتركك على أن لا تعود ! قال: والله لا عدت أبداً!!

قال: فنزّلته وأمرتُ له سبعين ديناراً، فلما دخلت على المأمون أخبرته الخبـــر، قال: وددتُ أنك بلغت به الري على أن تأتي على نفسه!! "[1].

تروي هذه الحكاية قصة القائد السندي بن شاهد الذي أعاده الخليفة المأمون من خراسان إلى حاضرة الخلافة في بغداد والأحداث التي مرّ بها في الطريق أثناء مسيره من خراسان ، والمشاقّ والمصاعبَ التي واجهته في تلك الرحلة ، وكل هذه الأحداث ما هي إلا مقدمة لتلك القضية الاجتماعية التي يودّ مؤلف هذه الحكاية عرضها ، للتخلص منها-وهي قضية الفضول والتي ترتبط بأخلاق الإنسان وتصرفاته وما ينجم عنها مـــن فساد وخلل وتوتر في العلاقات الاجتماعية ، فالحكاية ما هي إلا تجسيد لتلك القــضية، لتسليط الضوء عليها للتخفيف منها أو القضاء عليها، وما السياط التـــي نالهـــا الحجّـــام الفضولي إلا أحدُ ألوان العقاب الذي يلحقُ به، وبمنْ همْ على شـــاكلته فـــي المجتمـــع، والحكايةُ بمجملها توحي بالتهكم والسخرية من تلك الفئة الاجتماعية التي لا همّ لهـــا إلا البحث عن عيوب الآخرين والتقاطها ، تمهيداً لإشاعتها بين الناس وتـــأليف القـــصص والحكايات حول أصحابها.

أما موضع الفكاهة والضحك في هذه الحكاية فيتجسّد بحالة الاندهاش والـــذهول التي أصابته بعد أن اطمأن وتناول طعام الغداء بمعية القائد وما تلا ذلك من تفـــصيلات دارت بين القائد سندي بن شاهد والحجّام الفضولي، تتعلق بتعليقه من عاقبيه وضـــربه بالسياط وخلافُ ذلك كل ذلك أضحك وأدخل السرور لقلب الخليفة المأمون وتمنّى لو أنه لا زال يحكي له ويضربه على أن يأتي عليه.

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ٢٠٠-٢٠١

الحديقة الثالثة

الباب الأول منها وهو في النوادر المستغربة، والنكت المستعذبة.

لقد رُوي مثل هذا النوع من النوادر لغرابته، وخروجه على المألوف والشائع ، كما رويت به، بعض النكت والحكايات المرحة، لظرفها ولطافة معناها ودلالته ، وفيه مئة وأربعون نادرة، تنوعت دلالاتها واختلفت أساليبها ومنها:

١-حسن التعليل

ومن الأمثلة عليه النادرة التالية:

" سمع القاضي إياس نباح كلب ، فقال: هذا نباح كلب مربوط على شفير بئر، فنُظر: فكان كما قال!!

فقيل له في ذلك فقال: سمعت عند نباحه دوياً، ثمّ سمعت بعده صوتاً يجيبه، فعلمتُ أنه عند بئر"(١).

تدل هذه النادرة على ذكاء القاضي وقدرته على التعليل والتبرير، فعندما سمع نباح الكلب تفاجأ وأندهش، لأن به غرابة لكنه لذكاءه وفطنته ونباهته استطاع أن يفسر ويعلل سبب الغرابة التي بالنباح إذ أدرك بعقله أن الكلب مربوط على شفير بئر، فعندما كان ينبح الكلب كان يُحدِث دوياً وبعده صوتاً يجيبه، بسبب عمق البئر، وتردد الصوت فيه، ما يضحك في هذه النادرة هو إهتمام القاضي وانشغاله بمثل هذا الأمر- وغرابة النباح- وحالة التوتر والتصلّب التي أصابته- وتسخير علمه وذكائه وفطنته- لتعليل هذا النباح وتحليل النغمة الغريبة التي سُمعت فيه.

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٢٠٥

٢- الكناية

ومن الأمثلة عليها النادرة التالية:

" وقفت إمرأة على قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه، فقالت له: أشكو إليك قلّة الجرذان بداري!!- وهي الفئران- فقال: ما احسن هذه الكناية! املأوا لها بيتها بُـــراً ولحماً وسمناً، وبيان ذلك أن الفئران لا تعمر بالموضع الذي ليس فيه طعام"[1] .

لقد أحسنت المرأة بقولها" أشكو إليك قلة الجرذان بداري" أي أن دارهـــا تخلـــو تماماً من الطعام والدليل على ذلك قلة الجرذان فيها، وقولها هذا يـــدل علـــى ذكائهـــا وفطنتها وبلاغة لسانها لم تشأ أن تطلب المساعدة بطريقة مباشرة وأنها فقيرة وبيتها لا يوجد فيه طعام، بل إستعانت بأحد أساليب البلاغة وهو الكناية وذلك للتعبير عن معنـــى أرادت أن توصله له، لكنها لم تستطع فتحايلت عليه بذكر أمر يدل عليه كما فـــي هـــذه النادرة إذ ذكرت قلة الجرذان في بيتها لتدل على عدم وجود الطعام فيه لفقرها وحاجتها وهنا مكمن الفكاهة والضحك وموضع السرور، وحتى أن قيس بن سعد قد استحـــسنها وعبر عن ذلك بقوله" ما احسن هذه الكناية!"

٣- السخرية من الثقلاء

والثقلاء هم ثقلاء الظل الذين إذا جلسوا في مجلس زادوا في ضجر أصحابه لقلّة كلامهم، ولعدم فائدته حتى وإن تكلموا وقد ذُكرت فـــي هـــذا البـــاب بعـــض الآيـــات والأحاديث والأقوال التي تدل عليهم وضجرَ من يجلس إليهم، ومن ذلك ما قالته عائشة رضي الله عنها انه نزلت الآية التالية في الثقلاء قال تعالى" فإذا طُعمتْم فانتـــشروا ولا مستأنسين" [2] ومن ذلك أيضا " أن أبا هريرة رضي الله عنه كان إذا اســـتثقل رجـــلاً

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٢١٠

(٢) الآية ١٢ من سورة الدخان

يقول: اللهم اغفر له وأرحنا منه" [1]ومما ورد في هذا الباب أيضا " قال طبيب للحجاج إياك ومجالسة الثقلاء، فإنا نجد أن مجالستهم حِمّى الروح"[2]. فهو يُحذّره من مجالسة مثل هؤلاء.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً : " قال زياد بن عبد الله : قيل للشافعي: هل يمرض الروح؟

قال: نعم من ظل الثقلاء!

قال: فمررت به يوماً وهو بين يدي ثقيلين ، فقلت: كيف الروح؟ قال: في النزع! "[3].

ومنه أيضاً هذه النادرة : " قيل لظريف كان له ثلاثة أولاد: أيّ أولادك أثقل: ليس بعد الكبير أثقل من الصغير إلا الأوسط "[4].تلاعَبَ بالألفاظ ليدل على ثقلهم كلهم.

وتكمن الفكاهة ليس في ثقيل الظل وحده ، بل بالآثار التي تُلاحظْ وتبدو على مَنْ يُجالسهُ ، وما يصاب به من ضجرٍ وملل وتصلّب وتوترٍ وما السخرية منه والتهكم بثقل ظله وصمته إلا وسيلة قد تساعد في أن يتخلص من جلوسه الطويل ومقابلته له.

٤ – التهكم بالغرور

والغرورُ نوعٌ من الأمراض التي تُصيبُ النفسَ الإنسانية ، مع ما يتهيأ له من الأسباب والعوامل الذاتية والاجتماعية التي تحيط بهذا الإنسان ، والمصابُ بهذا المرض يقدّر نفسه أكثر مما هي تستحق " وقد يُنْسُبُ لنفسه ما ليس فيها من مزايا، ويزعُم أنه أقدرُ الناس، وأذكاهم ، وأبعدهم نظراً، وأجدرهم بالرياسة والزعامة والتجلة

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ٢٠٨

(٢)ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ٢٠٨.

(٣)المصدر السابق، ص ٢٠٨

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٩

والإكرام "[1] ، ومما لا شك فيه أنّ الآخرين يدركون حقيقته " ويعرفون قدره ومكانته ، ويرونه متجاوزاً حدّه معتدياً على غيره "[2] ، والتهكم به هو نوع من القصاص والتأديب له لإصلاحه وردعه عمّا هو فيه من غرور وإحساس بالعظمة ، ومن الأمثلة على ذلك النادرة التالية:

" قال مقاتل بن سليمان ، وقد داخلته أبهة العلم: سلوني عما تحت العرش إلى أسفل الثرى!!

فقال له رجل: ما نسألك عن شيء من ذلك ، إنما نسألك عمّا معك في الأرض ، أخبرني عن كلب الكهف ما كان لونه؟ فأفحمه!! "[3] .

لقد كان هذا الرجل مدّعياً يدّعي لنفسه علماً واسعاً يتجاوز ما تحت الثرى إلى ما تحت العرش ، والسؤال الذي تعرّض له كَشَفَ زيفَ هذا الادعاء ،رغم أنه تعجيزي ، إلا أنه كان مفاجئاً وغير متوقع ، مما أفحمه وأسكته وأصابه بالتصلب والاندهاش والصمت وما نال من عقاب تمثّل بالتهكم به وبغروره هو ليس لغاية التسلية والترفيه وحسب بل لردعه وإصلاحه وتقويمه أيضاً .

٥-التهكم بالشَرَهِ

والشُره هو الإفراط في تناول الطعام والشراب ، دون الالتفات إلى حاجة الجسم أو للإحساس بالشبع ، وذلك لقناعته بأنه أمام فرصة نادرة قد لا تتكرر أبداً، والإنسان الذي يتصف بهذه القباحة لا يراعي أصول تناول الطعام أو آداب المائدة، ولذا فإننا نراه قبيح المنظر، قذِرَ الهيئةِ والشكلِ والتهكم به ما هو إلا عقابٌ لـه من أجل ردعه

---

(١) د.أحمد الحوفي: الفكاهة في الأدب العربي، ص ٢٤٢

(٢)د.أحمد الحوفي: الفكاهة في الأدب العربي، ص ٢٤٢.

(٣) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ٢١٣.

وإصلاحه ومن النوادر التي تُمثّلُ هذا النوع من الحكايات ، الحكاية التاليـــة: " مـــرت امرأة ماجنةٌ برجل وهو يأكل ، فقالت : أعرسٌ في بطنك؟ نرى لحيتك ترقص!!" [1].

لقد أحسنتْ المرأة إذ تهكمت بهذا الشرِهِ الأكول، بكلمات قليلـــة، لكنهـــا تحمـــل دلالاتٍ ومعانٍ كثيرة ، ولكنها تتضمّن معنى التهكم والسخرية والازدراء، تمثّـــل ذلـــك بقولها: " أعرسٌ في بطنك؟ " وذلك لأنه يتناول طعاماً كثيراً حتى لكأن في بطنه عرس، وهناك من دعاهم إليه، وهو يأكل ليكفي حاجة هؤلاء من الطعام، وهذا تـــشبيه جميـــل ولطيف فيه غرابةٌ إلا أنه يوحي بالتهكم والسخرية ، أسلوب نقد وتوجيهٌ، علّـــه بـــذلك يرتدع عما هو فيه من شَرَهٍ وبطنة.

٦-التهكم بالطفيليين.

والطفيلي هو شره على الطعام أيضا لكنه وقح ، ولا يخجل في إراقة ماء وجهه، وقصصُ هؤلاء كثيرةَ وجُلّها يدلّ على ذكائهم ، وسعة حيلتهم ، بل وتفننهم في ابتـــداع الأساليب التي يحتالون بها، على أصحاب الموائد في الأعراس ، والولائم وغير ذلك.

ومن النوادر التي تدلّ عليهم النادرة التالية:

" مرّ طفيلي بقوم يأكلون ، فقال لهم: ما تأكلون؟

قالوا: سمّاً، قال: لا خير في الحياة بعدكم ، وجعل يأكل معهم"[2].

رغم ما قالوا له إلا أنه ولفرط حبه للطعام ، حتى وإن كان سمّاً فإنه سيأكل ولن يتوانى عنه لكنه أخفى هذا الحب ، بقناع مهذب يدل على حبه لهم وعدم رغبتـــه فـــي الحياة من بعد موتهم، وهذا غير حقيقي ، بل هي حيلة ابتدعها ليأكل، فهو يدرك أنهم لا

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٠.

يريدون أن يشاركهم الطعام وقولهم له سمّاً، هو طريقة لصده عن الطعام ووسيلة للتخلص منه.

ومن نوادرهم أيضاً:

" مرّ طفيلي بقوم يأكلون ، فقال: السلام عليكم معشر اللئام!! قالوا: لا والله الأكرام، فجلس وقال: اللهم اجعلهم من الصادقين ، واجعلني من الكاذبين "[1].

لقد كان هذا الطفيلي ذكياً إذ استطاع أن يجلس ويشاركهم الطعام دون أي عناء لفطنته وقدرته على اختيار ألفاظ قبيحة وغير مستحبة تدل على الأنانية وحب الذات والبخل ، ولإبعاد هذه الصفات عن أنفسهم قالوا: لا والله الأكرام، وبقولهم هذا استطاع أن يحصل على موافقتهم ، بل ورغبتهم في أن يتناول الطعام معهم. وأسلوب التهكم المستخدم ضدهم، وإن كان ظاهره التفكه والضحك إلا أنه يخفي وراءه نقداً لاذعاً وتهكماً مريراً -قد يفيد في إصلاح تلك الفئة.

٧-التهكم بالقبح .

الجمال قيمة محببة إلى النفوس ، تميل إليها وتبحث عنها وهو نعمة من النعم التي أنعم الله بها على الإنسان ،بل على كل مظاهر الكون، لما له من أثر فعّال في النفس الإنسانية وما يبث بها من مشاعر تدعو على التأمل والتفكر بقدرة الله عزّ وجل.

وكما هو الجمال ، هو القبح ، وإن كان غيْر محببٍ إلى النفوسِ إلا أنه موجود، فلولاه لما أدركنا قيمة الجمال ، وليس هو موضع تهكم أو سخرية ، لكنه قد يصبح كذلك " عندما يبرزُ بصورة شاذة سواء في الهيئة أو الحركة مضخمة أمام الناظرين ومبالغ

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ٢٢٠

فيها ، بل وغير متوقعة"[1] بصورة تجذب الانتباه وكأن من عبّر عنها " يدعو الناظر أو القارئ أو السامع لمشاركته في الضحك والسخرية"[2] والتهكم أيضاً.

ومن الأمثلة على ذلك النادرة التالية:

" جاءت امرأة إلى موثق ، يشهد عليها في عقدٍ، فوجد اسمها جميلة ، فلما نظر إليها وجدها قبيحة، فرمى العقد من يده وقال: لا أشهد بالزور ، إنما أنت قبيحة"[3].

يبدو أن الموثّق قد توقّع من اسمها (جميلة) أن تكون كذلك " جميلة" ، لكنها كانت خلاف اسمها وكانت قبيحة ، إذ تظاهر بأنه قد تفاجأ بقبحها لأنه لم يتوقعه فأراد أن يتهكم بها ويسخر من قبحها فرمى العقد من يده ، وقال: لا أشهد بالزور إنما أنت قبيحة، لقد تعمّد هذا الموثّق -أن يبرز -لتلك المرأة صورة مضخمة وشاذة وكأنها تخالف ما ألِفَهُ المجتمع مع أن فيه الجميل وفيه القبيح ربما ليلفت انتباه مَن حوله ، ليشاركوه تهكمه بها ، وضحكه وسخريته منها ومن قبحها.

التخلص الفكه

وهو أن يتمكن الإنسان من أن يُخلِصَ نفسه من مأزقٍ حرجٍ ، " أو موقفٌ يتورط به يحسبه صواباً فإذا هو خطأ ، ويظنّه مُرضياً ، فإذا هو باعثٌ على اللوم والسخرية"[4].

---

(١) د.رياض قزيحة: الفكاهة والضحك ، ص ٢٨٤

(٢) انظر المرجع السابق ، ص ٢٨٤

(٣) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ٢١٩

(٤) د. احمد الحوفي: الفكاهة في الأدب العربي ، ص ١٤١

ومن الأمثلة على هذا النادرة التالية:

" كان الواثق يقول بخلق القرآن ، ويُعاقبُ مَنْ خَالَفه، فأُدخِلَ عليه رجلٌ ، فقال له: ما تقول في القرآن؟

فتصامم الرجل ، فأعاد السؤال، فقال: مَنْ تعني يا أمير المؤمنين؟

فقال: إياك أعني!!

فقال: مخلوقٌ " وتخلَّص منه" [1] .

لقد استطاع هذا الرجل أن يخلّص نفسه من مأزق خطير كاد أن يودي به إلى العقاب ، لولا ما به من ذكاء وفطنة وسرعة بديهة أسعفته وفي الوقت المناسب " فعندما سأله عن القرآن أول مرة تظاهر بالصمم ، لكنه في المرة الثانية وعندما كرر عليه نفس السؤال، ورغم أنه تظاهر بأنه لا يعرف مَن هو المقصود بهذا السؤال ، أجابه بتورية أعانته على التخلص من العقاب كما أعانته على أن يجد الجواب الذي لا يخالف فيه الآراء والأقاويل التي تتعلق بتلك المسألة الحساسة والتي تتمحور حول القرآن وهل هو مخلوق؟ وهي نفس الكلمة التي تضمّنها جواب الرجل وهي كلمة " مخلوق" والتي تحتمل معنيين أولهما وهو القريب وهو غير المُراد ويقصد به لأن يكون جواباً على سؤال أمير المؤمنين الواثق فيفلت من العقاب وثانيهما: وهو المعنى البعيد وهو المراد، وهو ما أراده الرجل نفسه ويتعلق به وأنه مخلوق كباقي مخلوقات الله التي تعبده وتسعى لنيل رضاه.

أن أسلوب التورية في هذه النادرة ، استخدم استخداماً جميلاً ، أعانه على أن يتخلص من موقف حرج كاد أن يوقع به عقاباً كما أعانه على أن يُبرز بل ويكشف أوجه التناقض القائمة في الواقع الذي يعيش فيه، ويبيّن ما به من خلل وفساد أصاب

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ٢١٤

تفكيره بل ونال من معتقداته فالتورية وإن كانت قد أعانته على التخلص الفكه إلا أنها تضع يدها على مواطن الخلل والتناقض في المجتمع والأشخاص على حدٍ سواء.

الحديقة الثالثة- الباب الثاني

وهو في أخبار الأعراب يتبعه فصل عن المتنبئين وفيهما مئة وستة أخبار، تكشف أخبار هذا الباب ونوادره عن مسألة هامة تتعلق بالأعراب ، وهي قضية الدين الإسلامي ، وعدم تمكّنه من نفوسهم وكيف أنهم يكثرون من استخدام النص القرآني في معظم هذا الأخبار والنوادر، وقد تراوحت معظم هذا الأخبار بين الحكاية الموجزة والنادرة والخبر ، كما تعددت فيها الدلالات والأساليب.ومن الأمثلة عليها:

١-نوادر الحمقى والمغفلين من الأعراب

وجاءت نوادرهم تسلية للسامعين والترفيه عنهم ، ومن النوادر التي تُروى عنهم النادرة التالية:

" حجّ أعرابي فسبق الناس فطاف بالبيت ، وصلّى ركعتين ، ثمّ رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس"[1].

" وقيل لأعرابي يحفظ القرآن ما أول الدخان؟

قال: الحطب الأخضر"[2].

" ونظر أعرابي إلى جنازة والناس يقولون : كان سبب موته التخمة؟ قال الأعرابي : وما التخمة ؟ قيل له: أكل كثيراً فمات، فقال الأعرابي : اللهم اجعل موتي من التخمة"[3] .

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ص ٢٤٣

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٨

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٣

وقيل لأعرابي : أتحسن قراءة أُم القرآن؟

قال والله ما أُحسنُ قراءة بنته فكيف أمه؟!! "[١].

" وقيل لأعرابي ألا تغزو الأعداء، قال: وكيف يكونون لي أعداء وأنا لا أعرفهم ولا يعرفونني"[٢].

٢-الأعراب والتخلص الفكه

ومن نوادرهم في هذا الباب

" ضلّ لأعرابي جمل ، فحلف بالله أنه إن وجده باعه بدرهم فوجده ، فلزمه بيعه، فشدّ في عنق الجمل سنوراً وقال : السنور بمائة درهم والجمل بدرهم ولا أبيعهما إلا معاً! "[٣].

لقد ندم الأعرابي بعد أن وجد الجمل ، لكنه ولكي يبرّ في يمينه شدّ في عنقه سنوراً، وقال : السنور بمائة درهم والجمل بدرهم ولا أبيعهما إلا معاً ، وبهذا استطاع أن يخلّص نفسه ويبرّ بيمينه وهذا تخلّصٌ فكهٌ يدلُ على ذكاء الأعرابي وفطنته وسرعة بديهته".

ومما قيل في هذا الباب أيضاً : " قال الأصمعي: حَضَرَ أعرابيُ عند الحجاج ، فقدّم إليه فالوذج ، أكل منه الأعرابي لقمة ،قال الحجاج : مَن أكل هذا ضربتُ عُنُقَهُ، فامتنع الناس ، فجعل الأعرابي ينظرُ إلى الحجاج مرة ، وإلى الطعام مرةً ، ثم قال:

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٩

(٣) ابن عاصم : حدائق الأزاهر ، ص ٢٤٧-٢٤٨

أوصيك أيها الأمير بالصبيةِ خيراً وابتدأ يأكل، فضحك الحجاج حتى استلقى على ظهره وأمر له بجائزة "[1].

لقد وافق الأعرابي على الشرط الذي اشترطه الحجاج في أن يُضرب عنقه إذا ما أكل من الفالوذج ، فقد أكل لكن بعد أن أوصاه بأولاده خيراً، وهذا تخلّص فكه ضاحك إذ وافق على أن يضرب عنقه مقابل طبق فالوذج – وهو نوع من الحلوى يُصنع من اللوز –يأكله الأعرابي ، وهو دليل على ذكائه وسرعة بديهته، لأنه أدرك غاية الحجاج من هذا الشرط.

٣-التهكم بالسمنة

يقوم هذا النوع من الفكاهة على التهكم والسخرية من الشخص السمين ، إذ لولا أنه يأكل كثيراً لما سَمِنَ وأصبح بديناً ، وكأنه يرتدي قطيفةً، لكنها من صنع أضراسه... وقد تمثل هذا بالحكاية المرحة الموجزة التالية:

" رأى أعرابي رجلاً سميناً ، فقال: إني أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك"[2]

واستخدام الأعرابي لهذا الأسلوب من التهكم وإن كان يُقصد به الضحك والتسلية إلا أن به نقدٌ وتوبيخٌ غايتُه أن يُخففَ هذا الرجل من أكله ، ليتخلّص من هذا العيب الجسدي.

٤- المداعبة:

ومن الأمثلة عليها النادرة التالية:

قال المتوكل لأبي العيناء يوماً: إنّ سعيد بن عبد الملك يضحك منك فقال : " أنَّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون [3]"

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٧

(٢) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٢٤٨

(٣) الآية ٢٩ من سورة المطففين.

تحملُ الدُعَابةُ دائماً معنى المودة والمحبّة، وفي هذه الحكاية المرحـــة المـــوجزة تتجسّد تلك المعاني وردُّ أبي العيناء وإن جاء يحملُ بعض التهكم كما تدل على ذلك الآية الكريمة : أنّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون " إلا أنّ به مـــودة ومحبـــة ويدل على المداعبة، وما ذلك إلا لإثارة الضحك والسرور والتسلية للترويح عن النفس .

٥-السخرية والتهكم من البخل

البخل عيبٌ ورذيلةٌ بل سبّةٌ وعارٌ ، يذم بسببه الإنسانُ ويسخرُ منه ، وهذا تأكيد على فضيلة الكرم التي كانت موضعاً لاعتزاز العربي وتفاخره به، وفي الباب بعــض النوادر التي تجسّد مثل هذا النوع من السخرية ، ومنها النادرة التالية:

" قَدِمَ أعرابي على آخر ، فقدّم له قرصاً يابساً وملحاً جريشاً ، فأكله الـــضيف، فقال له: أشبعت؟ قال: لا ، قال: لأنك لم تذكر اسم الله الطيب ، على قرصك الخبيث؟؟

قال: وكيف أذكر اسم الله الطيب على قرصك اليابس الخبيث؟؟! "(٢).

٦-الردّ بالمثل

ومن الأمثلة عليه النادرة التالية:

" لقي خالد بن صفوان الفرزدق ، وكان الفرزدق قبيحاً، فقال له خالد: -يا أبـــا فراس ، ما أنت بالذي " فلما رأينه أكبرنه وقطّعنَ أيديهنّ" (٣) .

فقال له: ولا أنت بالذي قالت الفتاة فيه لأبيها " يا أبتِ ، استأجره أنّ خير مـــن استأجرت القوي الأمين"(١٠٤).

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٢٣٦

(٢) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٢٤٥

(٣) الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٤) الآية ٢٦ من سورة القصص.

لقد استعان كل منهما بالنص القرآني ليتهكما ببعضهما بعضاً ، تمثل ذلك بتعريض خالد بن صفوان بقبح الفرزدق وتهكمه به وسخريته من هذا القبح، ولكي يجسّد هذا المعنى استعان بالآية الكريمة التالية التي نزلت بسيدنا يوسف عليه السلام" فلما رأينه أكبرنه وقطّعنَ أيديهنّ" ، لكن الفرزدق لسرعة بديهته وذكائه استطاع أن يستحضر من القرآن آية تدل على عدم الأمانة وعلى الضعف وهما من صفات خالد بن صفوان ، جسدتها الآية الكريمة التالية والتي نزلت بسيدنا موسى عليه السلام والتي تقول :" يا أبتِ ، استأجره أنّ خير من استأجرت القوي الأمين".

الحديقة الثالثة– فصل في المتنبئين:

وهؤلاء هم الذين يدّعون النبوّة، والنوادر التي تدور حولهم تؤكد أنهم أذكياء ، يتمتعون بالفطنة وسرعة البديهة، والقدرة على التخلص الفكه ، إضافة لما هم فيه من ظُرفٍ وميل للفكاهة والضحك. وفيه ثلاثة عشرة نادرة ومنها:

التخلّص الفكه ومن نوادره النادرة التالية:

" قال أبو الطيّب اليزيدي : أُخِذَ رجل ادّعى النبوّة في أيام المهدي، فأُدخل عليه، فقال له: أنت نبي؟ قال: نعم ، وإلى من بُعثتَ؟ قال: أوَتركتموني اذهب إلى أحد ؟ ساعةَ بُعثتُ ثقفتموني في السجن! فضحك المهدي وخلّى سبيله"(٢).ومنه أيضاً:

" أُتي المأمون برجل يدّعي النبوّة ، فقال له: ألك علامة؟ قال: نعم علامتي أن ما نفسك أنّي كذّاب ! قال : صَدَقْتَ ، وأمر به إلى السجن ، فأقام فيه أياماً، ثم أخرجه،

---

(١) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٢٣٦

(٢) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٢٥١

فقال: أوحي إليك بشيء ؟ قال: لا ، قال: ولِمَ؟ قال: الملائكة لا تدخل السجن، فأمر بإطلاقه"[1].

" وتنبأ رجل بخراسان ، فأُتي بع العامل، فقال: مَن أنتْ ؟ قال: نبي، قال:وما صناعتك؟ قال: حائك! قال: فنبيّ حائك؟

قال له: فأردتَ أنت صيرفياً؟ " الله أعلم حيث يجعل رسالاته"[2] فضحك منه وأمر بإطلاقه"[3].

تضمّ هذه النادرة سخرية واستهزاء واستنكاراً من العامل لصناعة هذا الذي يدّعي النبوّة ، فلا يُعقل أن يكون نبياً وحائكاً معاً، لكن الرجل المتنبئ أتى بنص قرآني يردّ به ، على استنكاره وسخريته حيث يقول " الله أعلم حيث يجعل رسالاته"[4] ويمعن في استنكاره بأن يردّ عليه رداً مليئاً بالسخرية والتهكم وأنه ربما يكون ممن يقبلون بالرشوة ، تجسّد ذلك بقوله: " فأردتَ أنت صيرفياً؟ " أي ليعطيك رشوة.

الحديقة الثالثة

الباب الثالث: وهو في أخبار المغفلين وأهل البله، وما يحكى عن المجنونين ، ومن لا عقل لهم.

أفرد ابن عاصم في كتابه " حدائق الأزاهر" باباً لأخبار هؤلاء الحمقى والمغفلين، وقلما يخلو كتاباً في أدب الفكاهة من أخبار هؤلاء ونوادرهم.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٣

(٢) الآية ١٢٤ من سورة الأنعام

(٣) ابن عاصم: حدائق الأزاهر، ص ٢٥٥

(٤) الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

والغفلة نوع من أنواع الغباء " وقلة العقل" ونقص الذكاء . " والجهل بصواب الأحكام وسلامة التعبير"[١] والمغفل وكما أورد صاحب اللسان " الذي لا فطنة له، لعجز في العقل ، ونقص في الذكاء ، يقال غفل يغفل غُفولاً، وأغفله عنه، أي غيره وتركه وسَها عنه"[٢].

والمغفلون لا يدركون ما بهم من غفلة ونقص في الذكاء والفطنة بل نراهم يتهمونُ مَنْ حولهم بالغفلة وقلة الفهم وانعدام الذكاء ، ولعل هذا ما يضاعف ضحك الناس فهم " لأنهم لا يعرفون ما بهم من غفلة ولا يعرفون هم ما بأنفسهم"[٣] . ولو أنهم أدركوا ما بهم من غفلة وبلَه لحاولوا علاج أنفسهم أو إصلاحها بالتيقّظ والحذر والانتباه، ولظهروا بمظهر الناس الأسوياء.

وكذلك هي الحماقة فأن معناها لا يختلف كثيراً عن معنى الغفلة ، بل يتداخل به، والأحمق شخصٌ ، ينقصه العقل، والذكاء والفطنة، وهذا قد يتفق إلى حد ما مع الحد الذي وضعه ابن الأعرابي للحماقة والذي يرى أنّ الحماقة مأخوذة من " حمقت السوق إذا كسدت، فكان الأحمق هو كاسد العقل والرأي، فلا يُشاور، ولا يُلتفتُ إليه"[٤] وكذلك الجنون فمعناه قريب من معنى الحماقة لأنه يعني " نقصان العقل ، يقال : جنّ الشيء يجنّه جناً أي ستره، وجنّ الرجل جنوناً فهو مجنون"[٥].

---

(١) د.احمد الحوفي: الفكاهة في الأدب العربي ، ص ٣٥

(٢) اللسان: غفل

(٣) د.احمد الحوفي: المرجع السابق ، ص ٣٥

(٤) ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين، ص ٢٩

(٥) اللسان : حَمَقَ

لقد أصبحت هذه الفئات هدفاً للضحك والتسلية ، بل والتندر بهم والتهكم بحماقاتهم ، وربما هذا يقودني للحديث عمن يتعمد الغفلة والحمق والجنون، إلى التغافل والتحامق والتجانن-وهذا يعني " تحريف الشيء عن مواضعه مع التيقّن أنّ ذلك صواباً"[1] فهم يتكلفون هذا التحريف، ويعمدون إليه. " تمويهاً وتضليلاً" ، ربما لخوفهم من سلطة قد تعاقبهم ، وتَعَاظَم هذا الاتجاه ، حتى أصبح مظهراً اجتماعياً، وفناً أدبياً له حضوره في مجالس الخاصة ، ومجالس العامة، وعمد بعض الأدباء إلى تدوين نوادره وحكاياته، وأشهرُ المغفلين والحمقى من الرجال ، وبرزت مؤلفات ،اقتصرت على هذا النوع من الأدب الفكاهي، أو أنه جاء في باب من أبواب تلك المؤلفات ، وكما هو مدوّن في كتاب ابن عاصم حدائق الأزاهر إذ بلغ عددها مئة وخمسين نادرة وحكاية.

وقد تنوعت هذه النوادر وجاءت في الأقسام التالية:

١-نوادر المعلمين من الحمقى والمغفلين.

٢-نوادر الأعراب لن أتحدث عنها منعاً للتكرار.

٣-نوادر المؤذنون.

٤-نوادر الحمقى والمغفلين

١-نوادر المعلمين

تؤكد معظم النوادر في هذا الباب ، على النظرة الاجتماعية المتدنية ، التي يكنّها المجتمع للمعلم، وخاصة معلم الصبيان -الكتاتيب-والتي تكشف عن نظرة اجتماعية ، يشوبها كثير من الاحتقار والازدراء للحرفة وأصحابها ، وما يزيد الأمر سوءً أنهم يقرنون بين هذه الحرفة وغيرها من الحرف الحقيرة كالحاكة والحجّامين والغزّالين.

---

(١) أحمد الحسين: مقالات في أدب الحمقى و المتحامقين ،دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩١، ط١، ص ٤٧

وغير ذلك من الحرف التي لا تحتل إلا مكانة متدنية بين طبقات المجتمع وربما يكون مردّ ذلك " لنظرة الجاحظ وقسوته عليهم وكثيراً ما كان يقول : الحمق في الحاكة والمعلمين والغزّالين"[1] إضافة لتلك النظرة المحدودة في فهم الغفلة على أنها ضرب من اللهو والعبث"[2] متغافلين عمّا يمكن أن يكون لها من " مقاصد انتقادية ساخرة، غُلِّفَتْ بالإضحاك والبلاهة تمويهاً"[3] ربما تجنباً لأي عقاب أو حساب.

ومن النوادر الواردة في هذا الباب النادرة التالية:

" وقال الجاحظ : مررت بمعلم وقد كتب على لوح صبي: " يا بنيّ لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كثيراً، وأكيد كيداً ، فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً "[4]فقلت: ويحك ،أتدخل سورة في أخرى ؟؟

قال: نعم عافاك الله ،إنّ والده يدخل أجرتي شهراً في شهر، وأنا أيضاً أدخل سورة في سورة ، فلا أنا واجد شيئاً ، ولا الصبي يتعلم شيئاً"[5].

ومنها أيضاً:

وقال أبو بكر القبطي: مررت بمعلم ، وهو يملي على صبيّ: فريق في الجنة وفريق في الشعير! فقلت له : يا هذا ، ما قال الله من هذا شيئاً إنما هو" فريق في الجنة وفريق في السعير"[6] فقال: أنت تقرأ على حرف أبي عاصم بن علاء الكسائي وأنا أقرأ

---

(١) أنيس فريحة: الفكاهة عند العرب ط١، ١٩٦٢، ص ١٧٢

(٢) انظر احمد الحسين: مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين، ص ٨٣

(٣) المرجع السابق ، ٨٢

(٤) الآية الأولى هي الآية ٥ من سورة يوسف، والآيتان الأخريان ١٦و١٧ من سورة الطارق.

(٥) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٢٥٨

(٦) الآية ٧ من سورة الشورى

على حرف أبي حمزة بن أبي عاصم المدني! فقلت: معرفتك بالقُرّاء أعجبُ من معرفتك بالقراءة"[1].

لقد حاول أبو بكر القبطي أن يكشف جهل المعلم وزيفه وعدم معرفته بقراء القرآن ، والحروف التي يُقرأ القرآن الكريم عليها ، فعندما سمعه وهو يُملي الآية التالية على الصبي " فريق في الجنة وفريق في الشعير" بَدَلَ السعير ناداه مستنكراً بل وساخراً بأنّ ما سمعه منه ، ما قال الله منه شيئاً ، مما أذهله وأوقعه بمأزق حرج إذ تفاجأ المعلم به بل وأصابه التصلّب والتشنّج وهذا ما دعاه للبحث عن وسيلة يتخلص بها من هذا المأزق، فردّ عليه بأنه يقرأ على حرف قارئ آخر ، وهذا يدلُ على جهله وعدم معرفته بقُراءة القرآن والحروف التي يُقرأُ عليها القرآن، وهنا مكمن الفكاهة والضحك ،أراد أن يتخلص من مأزق فيقع بمأزق أشدّ منه، وسخرية القبطي من جهل المعلم ، ما هي إلا وسيلة ردع وزجر للمعلم ودعوة له لزيادة علمه بالاطلاع والقراءة والبحث.

ومن الأمثلة على هذه النوادر ، النادرة التالية:

حكى الجاحظ ، فقال: كان بالمدينة معلمُ يفرط في ضرب الصبيان فلاموه في ذلك، فساء حاله معهم ، فجلستُ عنده يوماً ، فاستفتح صبي، فقال: يا سيدي و " إنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين "[2] فقال المعلم: بل عليك وعلى والديك!!

وقال له آخر: يا سيدي " فاخرج منها فإنك رجيم"[3] ما بعده ؟ قال: ذلك أبوك إسحاق!! "[4].

---

(١) ابن عاصم، ص ٢٥٨

(٢) الآية ٣٥ من سورة الحجر

(٣) الآية ٣٤ من سورة الحجر

(٤) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٢٠٩

في هذه النادرة سخرية بل وتهكم من المعلم باستخدام بعض الآيــات القرآنيــة الكريمة والتي وجهها الله سبحانه وتعالى لإبليس عندما أخرجه مــن الجنــة ، بعــد أن عصاه، استُحضرتْ في هذه النادرة كوسيلة لردع المعلم وزجره عما هو فيه من قسوة وعناد وإصرار على ضرب الأولاد وتعذيبهم ، عله يصلح نفسه، بالتخلص من غلظتــه وقسوته وعناده بل وإصراره على تلك القسوة والتــي تتمثــل بــضربه للــصبيان، أنّ استحضار مثل هذين النصين من القرآن الكريم يدل على حُــسنْ الاختيــار ، والــذكاء والفطنة ، والقدرة على استخدام مضمون بعض الآيات القرآنية والاستفادة منه للتخلص من أمر معقد وشائك.

ومن النوادر التي تدل على غفلة المعلمين وحمقهم النادرة التالية:

قال بعضهم مررتْ بمؤدبٍ والصبيانُ يضربونه ، فتقدمتُ لأخلّصه منهم فقــال: دعهم ، فإني أتسابق معهم ، فإذا سبقتهم ضربتهم ، وإذا سبقوني ضربوني، وهم اليــوم قد سبقوني.

أن ردّ المؤدب يدل على قلة عقله ، وغفلته ، تجسّد ذلك باستــسلامه للــصبيان ليضربوه وذلك تحقيقاً للشرط الذي تمّ بينه وبينهم ، فالذي يكــسب الرهــان يــضرب الخاسر، وهذا ما يضحك ويجلب السرور.

٣- نوادر المؤذنين

المؤذنون من الشخصيات التي تعرضت للتفكه والتندر لما عُرف عن بعــضهم من الحمق والغفلة والبله، وفي هذا الباب بعض النوادر التي تعبّر عن هــذا الأمــر ، ومنها النادرة التالية: " قال بعضهم : رأيت مؤذناً أذّن ثم عدا، فقلت: إلى أيــن؟ قــال: أنظر إلى أذاني إلى أين بلغ؟ "[١] .

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٢٦٨

ومنها أيضاً:

" كان مؤذن يؤذن وفي يده رقعة ، فسقطت من يده ، فاحتملها الريح، فجعل يجري وراءها ويقول: امسكوا أذاني!! "[1].

٤ – نوادر الحمقى والمغفلين:

ومن الأمثلة عليها النادرة التالية:

" ضاع بازي لمعاوية بن مروان فقال: أغلقوا أبواب المدينة لئلا يخرج"[2].

ومن نوادرهم أيضاً:

" كان لبعضهم بغلة، فغضب عليها ، وقطع عنها العلف ، ثم ركبها فلم تستطع المشي به، فقال لخادمه: ما بالها لا تمشي؟ قال: لأنك قطعت عنها العلف. قال: أعطها علفها، ولا تعلّمها أني قلت لك شيئاً"[3].

ومنها أيضاً ما قيل عن رجل سُرق حماره، فقال:الحمد لله الذي لم أكن على ظهره"[4].

الحديقة الرابعة:

وهي في الوصايا والحكم وما يتضمنه من حضّ على أمر أو النهي عنه ، وفيها باب واحد .لن أتعرض لدراستها لابتعاد موضوعاتها عن موضوع البحث.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٨

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٠

(٣) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٢٧٢

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٤

الحديقة الخامسة:

وهي في أمثال العامة، وفيها باب واحد مرتب على حروف المعجم ، من ذلك حرف الألف وفيه فصول ولن أتعرّض أيضاً لدراستها لابتعاد موضوعاتها عن موضوع البحث.

الحديقة السادسة

الباب الأول

التخلص الفكه والاستعانة بحكاية وردت على لسان الحيوان ليخلّص نفسه من المأزق، وينجوا من عقاب الحجاج له، هذا ما ورد في الحكاية الطويلة التالية:

كان الحجاج قد استعمل مالك بن أسماء بن خارجة[1] على الحيرة وكانت أخته هند تحت الحجاج ، فبلغه عنه شيء فعزله ، وبعث إلى أهل الجزيرة ، وأمرهم أن يقولوا: ظَلَمَنَا وأَخَذَ أموالَنا ، فقال بعضهم لبعض: حتى الأمير يغضب عليه اليوم، ويرضى عليه غداً ، لا تتعرضوا لذلك ، ولما دخلوا على الحجاج قدّموا شيخاً لهم، فسأله الحجاج عن سيرته فيهم ، فأثنى عليه الشيخ خيراً ، فأمر به الحجاج فضرب مائة سوط فقال الباقون: كَذَبَ الشيخُ بل كان يظلمنا ، ويأخذ أموالنا ، فقال مالك : أيها الأمير مَثَلي ومَثَلُك ، فقال: قد زعموا أنه كان أسد وأرنباً، فقال الأسد للذئب: أقسم بيننا واعدل، فقال الذئب : لك الحمار ، ولي الظبي، وللثعلب الأرنب، فضربه الأسد وقطع رأسه ووضعه بين يديه ، وقال للثعلب: اقسم بيننا وأعدل ، فقال: الحمار لك تتغذى به ، والظبي تتعشى به، والأرنب تتفكه بها فيما بين الغداء والعشاء،قال الأسد: ما أعدلك في القسمة؟ قال الرأس الذي بين يديك ، فضحك الحجاج ورده إلى موضعه.

---

(١) هو مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الزاري شاعر غزل ظريف كان أبوه من أشراف الكوفة ، ت(١٠٠هـ-٧١٨م).

استطاع مالك بن أسماء بن خارجة في هذه الحكاية، أن يخلّص نفسه من المأزق الذي وضعه فيه بعض الوشاة، لكنه وبما يمتلك من قدرات في الذكاء والفطنة والفهم وسرعة البديهة والظرف استعان بحكاية وردت على لسان الحيوان ، تشبه ما كان بينه وبين الحجاج من خلاف .

علّه يفهم المغزى الذي تهدف إليه وتوصل إليه عبرة أو عظة ، أو نصيحة تعيد إليه رشده (للحجاج) وتساعد مالك بن أسماء في تبرئة نفسه من التهم التي وُجهتْ إليه فذكر قصة الأسد والذئب والثعلب والصيد الذي اصطادوه ، واختلفوا عليه، وعقابه للذئب الذي حاول أن يكون عادلاً في قسمته، والتي لم تعجبْ الأسد الطامع بكل شيء ، ويبدو أنّ الحجاج قد فهم مغزاها -فأحس بالذهول لأنه تفاجأ بسماع مثل تلك الحكاية - والتي لم يكن يتوقع سماع مثلها من مالك بن أسماء، وللتعبير عن هذا الذهول والتصلب والندم الذي أحسّ به، فضحك وردّه إلى موضعه.

الحديقة السادسة

الباب الثاني منها : وهو في الحكايات ذوات الأشعار ،وفيه سبع وسبعون خبراً ومنه هذه الحكاية:

" حكى أبو جعفر الشيباني قال: أتانا يوماً أبو شأس الشاعر ونحن في جماعة فقال: ما أنتم فيه؟

قالوا: نذكر الزمان وفساده!!

قال: كلاّ : الزمان وعاء وما أُلقي فيه من خير أو شر كان على حاله ، ثمّ أنشأ يقول:

رأيتُ حلَى تصانُ على أُناسٍ وأخلاقاً تُزالُ ولا تُصانُ

يقولون: الزمان به فسادٌ وهم فسدوا وما فسد الزمان[1]

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٣٩٢.

الأبيات في هذه الحكاية والتي قالها أبو شأس الشاعر ليردّ بها على الجماعة ، التي كانت تتذمر من الزمان وتشكو من فساده، كان رداً جميلاً ولطيفاً يدلّ على حكمة وبلاغة وفصاحة في القول وذكاء وفطنة في العقل ، تمثّل ذلك بالقول الذي سبق الأبيات الشعرية والذي يشبّه فيه الزمان بالوعاء الذي يتسع لكل ما يُلقى فيه من خير أو شر، ثم يكرر هذه الأبيات والتي لا تخلو من السرد ، ولغة الحوار.

والأبيات تحكي قضية على جانب كبير من الأهمية وهي فساد أخلاق الناس وتبدّلها، وعدم إبداء الحرص في المحافظة عليها ، وإلقاء اللوم على أهل هذا الزمان ، لأنهم هم من أفسدوا تلك الأخلاق وحديثه عن فساد الأخلاق يتضمن سخرية وتهكماً بأهل هذا الزمان وأخلاقهم، التي تبدّلت وتحولت ، بل وفسدت ، مكمن الفكاهة ، والضحك يتجسّد بحالة الاندهاش وعدم التوقع التي أصابت الجماعة ، لأنهم تفاجئوا بجواب الشاعر وسخريته من أهل هذا لازمان وتهكمه بأخلاقهم التي فسدت.

ومن النوادر التي تؤكد على فساد الأخلاق وزيف العلاقات الاجتماعية ، وصلات القرابة، النادرة التالي:

" حكى الأصمعي قال: كان أعرابيان متآخيين بالبادية ، ثم إنّ أحدهما استوطن الريف ، واختلف إلى باب الحجاج ، فولاّه أصبهان ، فسمع أخوه خبره فسار إليه ، فأقام ببابه حيناً لا يصل إليه، ثم أذِنَ له في الدخول فأخذه الحاجب فمشى به وهو يقول: سلّم على الأمير فلم يلتفت إليه ثم أنشأ يقول:

فلستُ مسلّماً ما دُمتُ حيّاً ... على زيدٍ بتسليم الأمير!

فقال زيد : لا أبالي!!

فقال الأعرابي:

أتذكرُ إذ لِحافكَ جلدُ شاةٍ ... وإذ نعلاكَ من جلد البعير؟

قال : نعم ، فقال الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك مُلكاً   وعلّمك القعودَ على السريرِ "[1]

تؤكد هذه الحكاية أيضاً على فساد الأخلاق وتنكّر الأخ لأخيه الذي جاء إليه مهنئاً لمنصب تولاّه، وعندما رأى تنكره أخذ يتذكّره بجلد الشاة التي كانت لحافاً له، ونعلاه التي كانت من جلد البعير.

فيسخر منه ويتهكُم بأخلاقه التي أفسدها المنصب الذي تولاّه كما أفسدها ، حياة التنعّم التي أصبح يعيشها.

الباب الثالث

الباب الثالث وهو في حكايات الأولياء والعبّاد والصلحاء والزهاد وما يرجع إلى ذلك وفيه تسعة عشر خبراً.

تتحدث معظم النوادر والحكايات في هذا الباب عن التوبة وطلب المغفرة ، وإغاثة المكروب، وما ترتب على حسن الظنّ بالله من الكرامة، وأسباب توبة بعض العصاة –وأظن أن المؤلف قد استشعر ما يمكن أن يلحقه من إثم ، فضمّن كتابه هذا الباب تكفيراً عما ذكر من حكايات ونوادر في باقي أجزاء الكتاب ، تمثّل ذلك بذكر بعض الألفاظ الجنسية المكشوفة التي تخدش الحياء بصراحة ودون تكنية.

ومن الحكايات التي وردت في هذا الباب:

" حدّث مسلم بن مسلم الرجل الصالح قال: رأيت يحيى بن أكثم في المقام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه وقال: يا شيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك في النار!! فأخذني ما يأخذ العبد بين يدي مولاه ، فلما أفقت قالها ثانياً وثالثاً

فلما أوقفت قلت: يا ربّ ما هكذا حُدثنا عنك!!

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٣٩٧

فقال تعالى: وما حُدثت؟

قلت: حدثني عبد الرازق قال: حدثني معمر بن راشد عن الزهري عن أنك قلت : " ما شَابَ لي عبدٌ في الإسلام شيبٌ إلا استحييت أن أعذبه في النار".

فقال الله تعالى: صدق عبد الرازق وصدق معمر وصدق الزهري وصدق أنس وصدق نبيي وصدق جبريل ،أنا قلت ذلك ، انطلقوا به إلى الجنة"(١).

في هذه الحكاية نكتة لطيفة بين الله سبحانه وتعالى وأحد القضاة ، تقوم على التخيل والتوهم ، إذ يتخيل فيها وقوف يحيى بن أكثم ،أحد القضاة في العصر العباسي بين يدي الله سبحانه وتعالى ليحاسبه على أعماله التي قام بها في الدنيا، وتذكّر الحكايةُ ما يدل على مهابة هذا الموقف وجلاله إذ يغمى عليه، ثم يفيق من إغمائه لهول ما رأى، لا يسعفه في هذا الموقف الرهيب إلا معنى لحديث نبوي شريف " من شاب شيبة ، كانت له نوراً يوم القيامة" فيذكره أمام الله سبحانه وتعالى ، فيعفو عنه ويغفر له ويدخله الجنة.

وبعد.... فهذه دراسة لكتاب حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرنساطي ودراسة لنوادره وحكاياته النثرية والشعرية منها ، بما اشتملت عليه من أنواع الفكاهة سواء منها الفكاهة المحببة التي تروّح عن النفس وتسلّيها ، أو الفكاهة القائمة على البحث عن العيوب والأخطاء فتصوّرها ، أو تلك التي تكشف عن الذكاء وحسن التخلص أو البديهة الحاضرة ، أو السخرية من الآخرين أو التهكم بهم ، وغير ذلك مما ورد في الدراسة من أساليب ،دلّ عليها موقف من مواقف الحياة الكثيرة والمتجددة والمتطورة.

---

(١) ابن عاصم : حدائق الأزاهر، ص ٤٢٧

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة لأدب الفكاهة عند العرب من خلال الكتب المؤلفة، وقد جاء في تمهيد وأربعة فصول:

التمهيد ويتضمن دراسة عامة للفكاهة والضحك وأهم الدراسات التي تعرضـت لدراستها.

الفصل الأول: وتضمّن دراسة للفكاهة في القرن الثالث الهجري، وأهم المؤلفات التي برزت في هذا القرن.

الفصل الثاني: تضمن دراسة الفكاهة واتجاهاتها في القرنين الرابـع والخـامس الهجريين، من خلال بعض الكتب التي أُلفت في هذين القرنين.

والفصل الثالث: تضمن دراسة الفكاهة بعد القرن الخامس الهجري مـن خـلال الكتب التي ألفت بعد هذا القرن.

الفصل الرابع: اشتمل على الدراسة الفنية لكتاب حدائق الأزاهر.

Abstract

This study aims for studying the comics for the Arabs by studying the book authored at this si^de, so this research constituted from a preview and ٤ semesters:

The preview contains the study of comics and laughter and the most important studies talking about that case.

The first chapter: which contained the study for comics and jokes that were in the third century for hejrah and the most noticeable books authored of this side.

The second semester contained a study about jokes and its trends during the fourth and fifth centuries by dealing with some books authored at this side burring these two contraries.

The third semester contained a study for jokes during the period after the fifth century bwsludying books authored about this issue during that period.

The fourth chapter talked about a care study for the book "hadaeq alazhar"

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

- الأبشيهى: المستطرف في كل فن مستظرف،دار الفكر ،بيروت ، ج٢، ١٣٧٩هـ.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت ، د.ت.
- ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، دار الكتاب العربي بيروت –لبنان، ط١، ١٩٩٤.
- ابن الجوزي، أخبار الصراف والمتماجنين،تحقيق محمد أنيس مهرات، دار الحكمة ، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.
- ابن الجوزي، الأذكياء تحقيق محمود مرسي الخولي، معهد المخطوطات جامعة الدول العربية ١٩٧٠م.
- ابن العمراني ، الأنباء في تاريخ الخلفاء.
- أبن خلدون، مقدمة ابن خلدون ،طبع القاهرة، مطبعة مصطفى محمد ، (د.ت).
- أبن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر بيروت ١٩٧٨.
- ابن عاصم ، حدائق الأزاهر، تحقيق د. عفيف عبد الرحمن ، دار المسيرة – بيروت ١٩٨٧.
- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مكتبة لجنة التأليف والنهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩– ١٩٦٢م.
- ابن قتيبة، عيون الأخبار – الكتاب العربي،بيروت مصوّر عن دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥م.
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت.

- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، دار الكتب العلميـــة بيـروت لبنـــان ط١، ١٩٩٧.
- أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر،تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني، دمـــشق ، ١٩٦٤م.
- أحمد بن يحيي بن جابر البلاذري ، فتوح البلدان، طبع القاهرة، ط١، ١٩٠١.
- أحمد بن يحيى المرتضى، المنية والأمل في شرح الملل والنحل، طبع حيدر آبـــاد، ١٩٠٢.
- الأصفهاني الراغب ، وحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغـــاء ، تحقيـــق الفيومي ، المطبعة العامرية الشرقية ، مصر ، ١٣٢٦هـــ.
- الإمام البخاري، الأدب المفرد، تحقيق عبد الباقي ودمشقية، دار البشائر، ط٤.
- بديع الزمان الهمذاني، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق محمـــد محيـــي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- بهاء الدين العاملي ، الكشكول، دار إحياء الكتب العربية، عيـسى الـــداي الحلبـــي (د،ت)
- بهاء الدين العاملي، المخلاة ، عالم الكتب، بيروت ،ط١، ١٩٨٥ .
- بهاء الدين العاملي، الكشكول، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط١، ١٩٨٣.
- التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المنشور بهامش الديباج المـــذهب، تـــأليف برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري، دار الكتـــب العلميـــة، بيروت – لبنان.
- الثعالبي ، فقه اللغة وأسرار العربية مطبعة الحياة – بيروت (د.ت) .

- الجاحط ، رسائل الجاحط تحقيق عبد السلام هـارون، مكتبة الخـانجي القـاهرة ١٩٥٢م.
- الجاحط: البخلاء ، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف مصر .(د،ت).
- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، الهيئة العامة لقـصور الثقافة.
- الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، تحقيق فوزي عطوي الشركة اللبنانيـة للكتـاب بيروت، ١٩٦٩م.
- الحصري : زهر الآداب وثمر الألباب، طبعة اليابي الحلبي.
- السيوطي، تاريخ الخلفاء ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٢م.
- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن الخامس، دار مكتبة الحياة –بيروت.
- الشهرستاني، أبو الفتح ممد بن عبد الكريم ، الملل والنحل- تحقيق مها فاعور–دار المعرفة- بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب (٣٠) مصر، (د.ت)
- علي بن الجرم ، ديوانه ، تحقيق خليل مروم بك ، لجنة التراث العربي ، ط٢.
- الغزّالي، إحياء علوم الدين، ج٣.
- الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٧م
- القرآن الكريم
- الكتبي، فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، (د.ن)
- كشف الظنون، خليفة، حاجي.

- المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، دار صادر، بيروت.
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبع القاهرة، ١٣٤٦هـ.

ثانياً : المراجع

- أحمد الحسين ، مقالات في أدب الحمقى والمغفلين ، دار الحصاد للنشر والتوزيع دمشق ، ط١ ، ١٩٩١م .
- أحمد الحوفي ، الفكاهة في الأدب العربي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٦.
- أحمد أمين، ضحى الإسلام، طبع القاهرة ،١٩٤٣.
- أحمد عبد الغفار عبيد ، أدب الفكاهة ند الجاحظ.
- أنيس فريحة ، الفكاهة عند العرب، بيروت ،ط١، ١٩٦٢م.
- البشير المجذوب ، الظرف في العراق فيما بين القرنين الثاني والرابع لهجرة ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس،١٩٩٢م.
- جميل جبر ، الجاحظ مجتمع عصره، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨.
- حبّور عبد النور ، المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان، ١٩٧٩م.
- حسن السندوبي، أدب الجاحظ، المكتبة التجارية بالقاهرة، ط١، ١٩٣١م.
- حسن، إبراهيم ،حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٤، ١٩٦٤.
- حسين الحاج حسن ، أعلام في النثر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط١ ،١٩٩٣.
- حسين خريوش ، أدب الفكاهة في الأندلس، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٢.
- د. بشرى الخطيب، القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي، ط١، ١٩٩٠م، بغداد.

- د. خولة شخاترة، بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ، دار الينابيع للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.
- د. شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف بمصر، ط٦، ١٩٦٦م.
- د. فاروق سعد، مع بخلاء الجاحظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت – لبنان، ١٩٧٨م.
- رشاد رشدي، فن القصة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٧٠م.
- رياض قزيحة ،الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي ، المكتبة، العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- زكريا إبراهيم، سيكولوجية الفكاهة والضحك، دار مصر للطباعة د.ن.
- زكي مبارك، الجوانب الجدّية في شعر أبي نواس، أبو نواس حياته وشعره، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت.
- شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمصر ، ط٢، ١٩٧٣م
- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر،ط ٦، ١٩٦٠ .
- طه حسين ، حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر،ط١ ، ١٩٣٦.
- عباس محمود العقّاد ، جحا الضاحك المضحك، دار الهلال القاهرة أب ١٩٦٥.
- عبد الحكيم بلبع ، أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع هجري، دار النهضة ، مصر للطبع والنشر ،ط٣.
- عبد الحكيم بلبع ، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط٢، ١٩٦٩.
- عبد الحليم حنفي ، أسلوب السخرية في القرآن الكريم.

- عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان، بغداد، ١٩٤٥.
- عبد العزيز شرف ، الأدب الفكاهي ، الشركة المصرية العامة للنشر ، ط١١، ١٩٩٢.
- عبد الكريم اليافي ، دراسات فنية في الأدب العربي، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- عبد الله أبو هيف ، القصة العربية الحديثة والغرب ، منشورات اتحاد الكتّاب والأدباء العرب، دمشق، ١٩٩٤.
- عبد المنعم الخفاجي ، أبو عثمان الجاحظ ، ط١، ١٩٨٣.
- عز الدين إسماعيل، في الأدب العباسي- الرؤيا والفن- دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت، ١٩٧٥ .
- علي بو ملحم ، المناحي الفلسفية عند الجاحظ،دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط٢ ، ١٩٨٨.
- قحطان رشيد التميمي، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة بيروت،١٩٨٨م.
- مجدي وهبة ،كامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ، بيروت ط٢، ١٩٨٤.
- محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية في الشرق، القاهرة ١٩٧٣.
- محمود طرشونه، مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢ ،١٩٨٨.

- وهب طنوسى، في النثر العباسي، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية - جامعة حلب،ط٢، ١٩٨٠-١٩٨١.

ثالثاً : الكتب المترجمة إلى اللغة العربية:

- آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي بوريدة، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١٩٦٧، ٤ ج١.
- بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، مكتبة الأنجلو مصرية ، مصر.
- برغسون: الضحك- بحث في دلالة الضحك- ترجمة د. سامي دروبي وعبد الله عبد الدايم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٨.
- بروكمان، كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين- بيروت،ط ١٥، ٢٠٠٢.

ثالثاً : المجلات والدوريات :

- أحمد أبو زيد ، الفكاهة والضحك ، عالم الفكر ، الكويت ، مج ١٣، ع٣، ١٩٨٢م.
- عبد الحميد يونس ، الحكاية الشعبية ، دار الكتاب العربي ، المكتبة الثقافية ، العدد ٢٠٠ ، القاهرة ، يونيو،١٩٦٨م.
- مجلة أوراق، المعهد الإسباني العربي للثقافة، عدد٤، ١٩٨١م.
- محمد رجب النجار ، جحا العربي شخصيته وفلسفته ، عالم المعرفة الكويتية، ع١٠، (أكتوبر ، تشرين أول ، ١٩٧٨م.
- مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة ٢١٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير، شباط ١٩٩٧م.
- وديعة النجم ، الفكاهة في الأدب العباسي، عالم الفكر ، مج ١٣ ، ع ٣.